بلاد اللهب

عرفه بندق

اسم الكتاب: بلاد اللهب

اسم المؤلف: عرفة بندق

التجهيز الفني: القسم الفني بالدار

المراجعة اللغوية: أ/ حنان الألفي

مقاس الكتاب: ١٤× ٢٠

الطبعة الأولى: ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣م

رقم الإيداع: 2023/ 15026

الترقيم الدولي: I.S.B.N

978-977-86749 -5 - 8

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

وأي محاولة نقل أو اقتباس أو إعادة طبع بدون إذن كتابي مباشر من الناشر أو المؤلف تعرض صاحبها للمساءلة القانونية.

للنشر والتوزيع

قد يكون الشَبه والملامح وراثة. وقد تكون الأمراض وراثة. ولكني ورِثت الغُربة والترحال عن أبي. الرجل ذي الوجه الأحمر من شمس وحر العُروبة. ذي الشارب الأصفر الموروث من نسمات الشام. وكفهُ القاسية التي أحبها الله. وقلبه الرقيق الذي اكتسبته من رِقته.

منذُ طفولتي أبكي كي أُرافقهُ وقت رحيلهِ. وها أنا آخذ نفس مقعدهِ في كل حافلة. حتى أصبحتْ الغربة قَدرنا. فقط لقد اشتقنا إلى القواعد الذينَ خَلفونا وتركناهم من أجل إسعادهم.

كنت حينها لم أبلغ العشرة أعوام. ودارَ الشِجار المعتاد من جدتي لأبي مع أمي، جدتي امرأة قوية وجريئة، وكانت أيضًا عصبية لأولادها. فمنذُ أن مات زوجها وترك لها أربعة أبناء، ولدين وبنتين صغار، الكبير فيهم لم يتجاوز العشر سنوات، سمعتها حينها وهي تُقسم على أمي بأنها ستزوجه (حفيظة)، وكانت حفيظة من النساء القويات التي يُضرب بهن المثل تجاه المرأة الرجل، التي كانت تتاجر في الألبان حينها في أسواق القرى المجاورة، كانت داكنة السمار، وجهها عريض كوجنات البربريات، وعينان واسعتان كعيون بنات النوبة، كان بنيانها قوي، فلم يكن قَسم جدتي على أمي إلا مكيدة من جدتي، مع بعض تفكيرها وخوفها على بيت ابنها في غيابه. وهذا الأمر ما يجعل الزوجات تستشيط نفورًا من حمواتهن، كانت تقسم العام لنصفين، تقضي معنا الشتاء في بيتنا الذي يطل في

الاتجاه القبلي، وهذا ما يجعله حارًا في الصيف دافئًا في الشتاء، أما صيفها فكانت تقضيه في بيت عمي عبد الله المقيم في آخر شارعنا الذي ينتهي لِما تبقى من زمام الأراضي الزراعية البحرية التي كانت تمتلك جدتي فيها قِيراطًا، يتوسطه فرخ نخل ذكر، لا فائدة منه سوى أخذ طلحهِ لتلقيح إناث النخيل المتفرقة حول ذاك القيراط اليتيم.

عمي عبد الله هو الأخ الأكبر من أبي، والأصغر لعمتي سعاد المتزوجة من شيخ الخفر السيد أحمد سالم. كان شيخ الخفر زوج عمتي يحب الحياة، وممن يحبون المرح، فقد كان دائم لعب الكوتشينا في شتاء رمضان قبل أذان المغرب. وإذا كانت ليلة العيد أخرج بندقيته الميري، ساحبًا أجزاءها بعد تبين رؤية هلال العيد، ضاربًا في الهواء طلقات الفرح التي كنا ننتظرها كي نلتقط الأظرف الفارغة التي كنا نستخدمها صافرات، بوضعها على أطراف شفاهنا، والنفخ فيها بخيطٍ من هواء، كانت هذه أسعد الأيام لدينا، حيثُ كان أبي يتواجد في هذه الفترة من كل عام وفقط. كان أطفال المنطقة ينتظرون العيد كي يشاهدون ثياب العيد الآتية من الخارج، ولم أنسَ هذا القميص الطفولي المبهج، الذي كان مشغولاً فوقه لعبة موسيقية على صدري. وهذا ما كان يجعل أطفال المنطقة يضربونني على صدري؛ كي يسمعوها فرحين، مما جعل أمي تنسل خيوط هذه اللعبة كي تنزعها من على صدري، مخافة عاقبة هذا الضرب المستمر على صدر قميصي، ويظل أبي معنا حتى قرب

شهر ذي الحجة، ثم يذهب؛ ليقضي مناسك الحج، ثم يذهب إلى جازان التي فيها أعماله.

وما كان يشغل جدتي أيضًا هو أن لا أحد يمس أولادها بسبّ أو لمس مهما كان الثمن، وكيف لا وقد أمرت ابنها حسن أن يضرب من سبهُ وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، وهي تعلم أن أحكام العرف ستغرمها مالاً، كرد اعتبار للمجني عليه، وتأديبا للجاني، وكلٌ حسب خطئه، فقد دفعت لخطأ ابنها ألف جنيه كانت قيمة شراء بقرة وابنها وحليبها الآن، وكل ذلك كي لا يتجرأ على مضايقتهم أحد؛ كي يعلم الجميع أن هناك قويًا خلف هؤلاء بعد ربها، وكان هذا عُرف جدتي، وأحكام العرف تقريباً قائمة على مدار الزمان. غير أن قديمًا كانت أخطاء الناس قليلة، وأخلاقهم حميدة، على خلاف ما نحن عليه الآن، فوصل الأمر إلى وقوع أربعة جرائم قتل خطأ في عامين فقط، وهذا العدد من القتلى في قريتنا لم يحدث في خمسين سنة مضت، وهذا يعني أن المُشكلات والنزاعات والحماقات تفشت في دماء البشر كمجرى الشيطان في جسد المُرابي، ومعنى قتل خطأ، ان طائفتين تتشاجرن فيموت رجل من طائفة ثالثة. أو كان الغرض هو الضرب وقدر له بالقتل، أو لم يكن أصلا مرتبًا لشيء وحدث خناق صدفة ووقع القتل. أو كان هناك عُرس والأهل يعبرون عن فرحتهم بإطلاق النار في الهواء كتعبير عن سعادتهم، ثم يموت أحد المعازيم رميًا بالرصاص دون قصد. كل هذا رغم أنه خطأ، إلا أن العرف لا يتركه

يمر، مثلما لا يتركه القانون. بل هناك قضايا يسامح فيها القانون، لا يسامح في تركها العرف، فالرأي القانوني له جوانبه الدستورية في سطو ليس مسلح على أحد المنازل، فإن لم يكن لدى المتسلل مسروقات فهو بريء، لكن في رأي أحكام العرف ليس بريئًا، ولا بد أن يقدر قيمة خطأه لحُرمة البيت وساكنيه، ويتم تأديب عائلته بتغريمه مبلغ من المال يحكم فيه المُرجح بعد سماع المُحكمين. والمرجح هو شخصٌ حكيمٌ ذو فطنة وتجارب من مشكلات الحياة، قد مرت عليه من خلال تاريخه الحافل بحل قضايا عرفية وقعت بين عائلتين. والمُحكِم مثل المحامي الذي يدافع عن مَدينه، ثم يقوم المُحكم الثاني بالدفاع عن مدينه أيضًا، ويحكم بينهما المُرجح الذي هو بمثابة القاضي، فإن كان الخصمان متساويين في الأخطاء يحملان الرزقة بينهما. والرزقة هي تكاليف الجلسة من شراب وطعام الحضور، أيًا كانت التكلفة التي تم إنفاقها.

وهناك حكم يصدر بتغريم المُخطئ قدر خطئه، وأيضًا تكاليف الجلسة. وهناك من يصلح بين عائلتين على نفقته خيرًا من أجل نشر السلام بين الناس. ومن أبرز القضايا التي انحنى لها العظماء تقديرًا لصاحبها ذاك الموقف الذي قُتلَ على إثره شاب وحيد والديه خطأ، حينما وقع النزاع بين عائلتين متواضعتين، والقتيل المقتول ابن كبير عائلة لا تُضاهيها عائلة. إلا أن صبر ذلك الكبير وتجلده وحلمه جعله ذائع الصيت في أرجاء الدنيا، وليست أرجاء القرى والنجوع، حينما جمع العائلتين عارضًا عليهما الصلح

مقابل التنازل عن حق ابنه، فإن لم يفعلا ذلك اقتص لابنه منهما، فما كان سبيل لديهما إلا أنهما وافقتاه الرأي، في الوقت الذي شهد فيه الجميع له، إنه الخاسر الفائز دون غيره.

لم يكن لدى أبي سبيل إلا الترحال والسفر إلى الخارج للعمل؛ ليوفر لطبقة ريفية حياة بذخية كُنا نعيشها تقريباً نص عام، حصيلة شقائه في بلاد اللهب،

لم تكن هذه البلاد ملتهبة لهب الشمس الخليجي فقط، وبحكم أنه ذهب حينها عاملاً، في مدينه

(جازان) على حدود اليمن والمملكة العربية السعودية، كان العمال يخرجون على المقاهي والأرصفة ينتظرون دورهم في أن يأتيهم أحد ليقضوا معه يوم عمل أو أكثر من يوم، ذلك حسب ما يتطلبه نوع العمل من وقت، فكان أبي يعمل فنيًا معماريًا، ولديه القدرة على التنفيذات الهندسية. يمكنه تقسيم قطعة أرض إلى منزل أو فيلا، إذا كان المطلوب منه الإشراف على المهنيين.

أو معرفة خلل تصدع وشروخ الحوائط. وأيضًا معالجة الخلل، وهنا إذا أخذ دور رئيس العمال، فاستطاع أن يتمكن أكثر في أن يكون مقاولاً للترميم والصيانة المعمارية، مثل إعادة الدهانات، أو تغيير الحوائط، وترميم الأرضيات، وكذلك إعادة هيكلة السباكة. وبالتأكيد لا يفعل كل هذا وحده، أو إنه قد وصل فعلا إلى مكانة تجعله يعلم كل شيء، ولا يفعل أي شيء، إلا توجيه تعليماته التي هي رغبة صاحب العقار.

فدائما ما يأتي رجال أصحاب منازل تحت الإنشاء يبحثون عن حدادين أو نجارين، وكان أصحاب هذه الإقامات يمتلكون ما يسمى بالفيزا الحرة، التي لم يتحكم في صاحبها كفيل أو شركة، وكان أيضًا يأتي أصحاب المزارع والحقول يبحثون عن عمال فلاحين يحرثون، أو يزرعون، أو يحصدون، فتشتهر جازان بمزارع المانجو بأنواعها، وأيضًا تربتها الساخنة تساعد جيدًا على زيادة انتاج محاصيل الذرة، وتزرع جازان الكثير من الخضراوات مثل الملوخية والبامية والباذنجان. وثروة زراعية مثل هذه وحدها كانت كافية أن توفر فرص عمل كثيرة جدًا للعمال فقط.

فكان هذا المقهى قد عرفته المدينة بأنه مقهى (الطائفة) أي طائفة المعمار.

وإذا بامرأة توقف سيارتها أمام المقهى، وينزل منها رجل بنغالي عمره حينها لم يتجاوز الأربعين، محدود الطول، فوق القصير وتحت المتوسط، لونه أشبه بلون الهنود السُمر، الذي يختلط عليه الحُمرة، شعره انسيابي وكثيف، بياض شعره ليس في شُعيرات بعينها دون بقيته، إنما خُصل شعره كأنه أسمر بهت منه السمار، وفي طريقه للابيضاض، إذا به يضع كفه على كتف أبي مشيرًا له بالسيارة، التي أمامه، تقدم البنغالي ليفتح باب سيارتها ليدخل بجوارها في المقعد الخلفي، رغم أنه جلس جنب كائن دسهُ السواد من كل جانب، لا يظهر من ذلك الليل المرفرف إلا شعاعان يخترقان بضوئهما كل إعجاب. انطلق البراق البنجلادشي بوقودٍ من عبقها

الذي استفز الجمادات. كلما هَمَّ أبي ليسألها ما العمل المطلوب، أو إلى أين؟ سحبته روح السكينة والصمت، من الراحة الجسدية

التي شعر بها من تكييف السيارة. انحدر السائق خلف وأسفل جبل (صهاليل) شرق محافظة (هروب)، في مفرق الجبل مضيق بري طوله ثلاثمائة متر، ثم منحدر يُلقي بك في جنة من طبيعة البيئة في هذه الرقعة الواسعة جدًا على منزل واحد فيها، يخدمه كل هذا الخير الذي ليس متواجدًا في الوجه الخارجي من الجبل. الأعشاب الرطبة تشبهُ شعر السائق البنغالي، فهي بين بين من انتعاشتها وجفافها، وهذا لأن الوادي وكأنه دائرة مثقوبة داخل أو وسط الجبل، والشمس لا تؤثر على تربته إلا حينما تكون ملتصقة في بطن السماء. أما ما قبل الظهيرة، فالشمس الباردة التي قد تصل درجة حرارتها أربعين درجة في شهر (بابه)، وعند قرب انحدارها للمغيب تنثر الشمس أشاعتها على الجهة الشرقية التي تحضن البيت، وتصل حرارتها ثمانٍ وعشرين درجة، تقل نصفها في ليل الشتاء،

دائرة الرقعة الخضراء أكثر وضوحًا في قاعه دون منفرجاته التي كلما تصعد للأعلى، كلما انفرجت، وكلما اصفرت. على حفاف الجبل سهول ساقطة من أعلى الجبل إلى أسفله بالتدريج، كأنها مدرجات لكائنات جوف أرضية. أسفل التدريجات محفورٌ مجاري دائرية التحديد حول الرقعة، تجري فيها مياه تخرج من فرج الجبل. تتقاطر من بين الصخور تُلألئ الحصى كما يتلألأ

السجنجل من انعكاسات الظل، كان لها بريق وكأنها دُرر من ندا ألوان أعياد النيروز عند المغيب، لَيزَّريَّه عند الشروق ، بجوار المساقي في أول أرضٍ مستوية قد اصطف من كل جانب شجر الموز الذي تسكن فيه الثعابين، وأيضًا لقربها من رمال وصخور الجبل السفلية التي تنبت فيها ورود عباد الشمس الصغيرة. ولكن الثعابين المتواجدة ليست ضارة؛ لأنها ثعابين صفراء، على عكس الثعابين لامعة السواد التي هي منزوعة، إلا إذا عادت. تنقسم الأرض المزروعة إلى مجموعة حقول متعددة، فكانت هناك رائحة جميلة لا يمكن لأي أحد معرفتها، وهي رائحة البن الخولاني، الذي ورق شجره يشبه ورق المانجو، وثمرته تشبه النبق والزيتون في اخضراره، والكريز والعنب في احمراره، وقسم آخر منها موازٍ للجهة اليمنى من حقل البن، وفيها بيت لا يُرى؛ لأنه وسط أشجار التوت، التي تعتبر خيمة البيت من الخارج، عدا وجهته التي تَطل غربًا. يتم حصد ورعاية هذه المحاصيل من قِبل العمال الذين يصطحبهم جبريل من المقهى وقت التطلب إليهم عند الحصاد، على طول هذا الطريق الذي تسير السيارة منه أنبوبّ تجري فيه كابلات الكهرباء مرفوعة على حوامل صخرية تم رفعها عن الأرض تأمينًا لها من الماء؛ كي لا تتلف أو تتعطل أو تضر أحدًا، وتُعادُ الكرة في العودة، ليسألها عن العمل الذي هو ذاهب لمعاينته وليس لإنجازه، حتى وجد السائق قد فتح له الباب كي ينزل، ولا يدري حينما نزل أين اختفت تلك المرأة، وهو يمشي مع السائق تجاه مصعد لبناية من ثلاثة طوابق.

ركب وحده المصعد، وتم سحبه للطابق الثالث، وهو في المصعد سمع هاتفًا صوته دق في روحه، قالها فجأة: "انتبه".

ولم يدر هل حقًا سمع شيئًا، أم يُخيلُ له أنه سمع صوتًا في داخله؟ وإذا به أمام باب كأنه باب شقة مفتوح، وليس هناك مداخل سواه، وكأن الباب للمصعد والمصعد للباب، فما كان عليه إلا أن يقترب ويتقدم داخل الباب، يتنحنح كي يخبر من لا يراه أنه بالخارج. وسمع صدى لصوت عربي بعيد كأنه قادم من وشوشات الجن المخنثة في ليل صحراء الربع الخالي، ممزوج بالحرارة والبرودة، يتسكعُ في جدران الصمت السائد، يتلألأ في ضوء المغترب الخافض، تُعيد الحداثة طلتها بجمعٍ وفير من الألوان الحديثة بثوبها البترولي، شعرها العبدي وحدهُ ألف انثى، يُقيدهُ منديل أزرق من قطنٍ سافر مثل كل المسافرين، عيناها باقي النساء، قوامها يتموج في عِظامها الرشيقة، كان هذا واضحًا من طواعية ثوبها الرقراق على ملمسها المضيء وسط عتمة المكان.

في الجهة المقابلة لمدخل الرواق نافذة يلمع ضوء نهار الخارج منها، طلبت منه الاقتراب، فدنا وانثنى خوفا تثبتهُ الشجاعة، استدارت بظهرها ممسكةً طاولة بعرض الحائط وطوله، بداخلها أشياء لامعة كثيرة، مثل الكريستالات القديمة والبلور الروماني، وتماثيل كأنها من حضارات متعددة كالأشورية ذات الألوان البُنية ومن بينها حضارتنا المتمثلة في هذا التمثال الفرعوني المتورك، كأنه ينتهي من تشهدهِ الثاني من الصلاة. وأبي ينتظره ليسأله ما

الذي أتى بك إلى هنا، ولم يدر هل يسأل التمثال، أم يسأل نفسه؟ وبعد سحب هذه المصنوعة التي تشبه النيش أو الفترينات المجهزة لعرض المنتجات الثمينة، أصبح هذا الحائط ذو المقتنيات الباهظة على يسار أبي قد أغلق عليه ممر الرواق المؤدي إلى خارج المكان.

ولم يتبقَ على يمينه سوى النافذة البعيدة مقدار عشر خطوات، وخلفه باقي المنزل المظلم. وكأن فيه جمهور من شياطين وملائكة يفصلهما عن بعضهما ظل يقينه، وأمامه مليكة الجن هذه. تفتح بابا داخل الحائط بأرقام سرية. مساحته متر في نصفه.

انتهت بالفعل مع هذه التكه التي تُسمع عند نجاح عمليه فتح الخزائن. التفتت ناحيته وسحبت باب الحظ الماثوني؛ لتفتحه أمام ناظرِه، ليتبين له ثروة من المستحيل جمعها إلا عن طريق هذه التجارة غير المشروعة من تهريب تراث الحضارات العريقة، انثنت على باب خزنتها ليتدلى تربها، يُشفُ خصرها، عارضةً عرضها: "خذ ما شئت، واقضِ، أو سرقت ما شئنا واتصلنا بالشرطة".

هكذا تجرأت تلك القائدة الشيطانية عارضةً عليه ذاتها بهذا الرخص الباهظ الثمن، وأخرجت من خزنتها قارورة خمر مُزركشة برموز وحروف عربية، لكنه ليس عربيًا، قطعت عليه تفكيره بقولها: إن هذه القارورة قد مُلئت خمرًا ذات مساء لملك

شاه عظيم بلاد فارس، ملك سمرقند، عُمر هذه القارورة ألف عام الآن تقريباً أو أقل قليلا.

دخل على إثر قولها جبريل السائق البنغالي وهي توبخه على تأخيره بصينية من كرستالٍ أسود أضاءها جبريل بكأسين فارغين قد وضعهما عليها.

كان ثقل القارورة قد آلمَ معصم اللعوب، بدا ذلك على تجويف معصمها الجائع.

صبت كأسها وكأس الصامت يُشبهُ صاحبه في وقفته. رائحة الخمر المعتقة أشبه برائحة روح الخل النّفاذة، التي كنا نُقطرها على (عين السمكة) وصدفيات الجلد النابتة بين الأصابع أو في باطن القدم. فاحت رائحة الخمر حولهم كأنها منقوعة منذ ألف عام كما أشارت هذه الشريرة.

ألف فكرة في مليون عقلٍ تتصارع، ويبدو أنه قد قرر ما عليه فعله. همس في ذاته: "فمن أضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه". قبضت بأناملها خصر الكأس تقدمه لهُ، آخذًا إياه بكل ثقة السكرى، كأنه سكيرٌ قد ولد في حانات الأندلس.

تبسمت حتى لمعت ثناياها من طواعيته، آمنت بذكاء الفرعون في قبول عرضها. قبض أبي على أناملها الرقيقة، فصرخت ضاحكة، ولا تدري أنه عاجزٌ عن كسرهما، حبس أنفاسه كي لا يشم رائحة المُعتقة، ووجه وجههُ للضوء، ثم اهتدى للجمهور،

ناظرًا، إذا بشياطينهِ ينظرون إلى الباب، وملائكتهِ ينظرون إلى النافذة، رفع كأسه دفعة واحدة بعد أن سَمَّى كأنه يحتسي لبن الصائمين في رمضانٍ صائف.

أسرع تجاه الضوء يستشهد، غريب الدار أينما حتفهُ يسلم. ووثب وثبة الليث في الدفاع عن عرينه، حطم الزجاج بدوائر من طاقة تدور حوله من رأسه لقلبه، يصدم جسمه أول لمسة في مظلة مُنحنية في منتصف البناية أسفل الطابق الثالث، ينتهي انحناؤها بأعلى شواشي الشجر، ويسقط من غصنٍ لغصن حتى سقط فوق تعريشه أعناب من فصائل أعناب اليمن الشهيرة.

تجلطات الجلد والكدمات وكسر ساقه اليُسرى وجُرحٌ في زراعه فقط، قد أعاد الحياة لتلك الشيطانة بعدما تبينت أنه حيٌ يتألم حينما صرخ بها من الأسفل جبريل: "روح فيه، روح فيه"

-مجنون انتي؟! ليش توافج خمر وانتي رافض نوم؟

-وليش توافج خمر وانتي عاوز موت؟

هكذا تعجب البنغالي من تصرفه وسأله طالما ستنتحر فلمَ شربت الخمر؟

وطالما لم توافق على عرضها لماذا اخترت الموت دون السجن؟

- فقط أردت أن أتخدر كي لا أشعر بالموت.

- وهل طعم الموت مؤلم؟

- ليس أشد ألما من مرارة هذا الخمر.

- ولمَ اخترت الموت دون السجن؟

- هناك فرقٌ بين السارق والشهيد، فالسارق يتجنبه الجميع، أما الشهيد، فيشفع لمن أراد، لم اختر الموت، بل اخترت الحياة.

وكأس واحد من هذه المنقوعة كان كافيًا أن يُسكن آلآمَ عِظامهِ الساقطة من مكر الساقطة. استطاع الخمر أن يُسكن جسده، واستطاع جبريل أن يكون متكأه حتى أدخله في صالون الربع، هكذا يطلقون عليه هذا الاسم، لسعته واتساعة لمجلس عدد غفير من الناس. أضجعه جبريل على متكآت أرضية، نسميها نحن الآن (القاعدة العربي). دخل جبريل وعلى صوت همهمته معها، ثم خرج بسيارتهِ ليتركهما من جديد.

وبعدما كانت تلك الشيطانة في مواجهته أصبحت في رعب يملؤها الانكسار، تُدلي برأسها ناظرة لهذا الأحمق الذي أوهن قلبها وأمزجهُ بكل أنواع الألم، بين لعن نفسها ولعنهِ، يسيل الدم الخجول من زراعهِ، تقترب بخوفٍ من مصاب قادر على قتلها الف مرة بعد موتها الذي هي فيه، اقتربت جالسة على ركبتيها لا تنظر إلى موضع عاقده يذرف دمعها حسرةً وخجلا وانكسارًا وعشقًا، نزعت كُم قميصه لأعلى كتفيه تغمس أناملها في دمائه وتحبسهُ صارخًا وتينها من صرخته، وكأنها ترد له قبضتهُ على أناملها وهي تقدم له كأسها في الطابق الثالث، تَشرب كفها بدماء لم يستطع

الخمر الولوج فيها حتى الآن، ومست شعرها العبدي تسحب تعقيدة منديلها الأزرق ماسحة دماءه في شعرها، يتساقط دمعها على جرحه يُطهرهُ. أو ربما الجرح هو الذي يُطهر دمعها الآسف على دمائه، فردت منديلها على زندهِ، وربطتهُ ليكتم جرحه النابع ربما من زجاج النافذة أو بعض خناجر الشجرة التي غزغزت جسده، فلم يكن زراعه فقط المصاب. فكل جسده في حاجة لمشفى، جففت أناملها في أعلى وريدها وأسفل عنقها، كأنها تَتَطَّيب أول تَطيُبٍ للأرامل في الجاهلية بعد قتل بعولتهن.

دخل جبريل ببعض الإسعافات الأساسية للجروح وبعض الجبائر الجاهزة، للعظام المكسورة، كان قد جاء بأشياء كثيرة.

فقد تفاجأ البنغالي من هول ما رآه على سيدته الجبارة، وهي منثورة الشعر على كتفها وصدرها، الطيب الأسود الذي يتقاطر من بؤبؤها، يدها الملطخة بالدماء وكأنها ترثي شهيدها وبطلها وعدوها في آنٍ واحد.

وضع جبريل الأشياء التي جاء بها أمامها، كأسًا واحدة كانت كافية لعربدتهِ وهو مُستلقي على صُلبهِ المُسترخي، بدأ جبريل بفك أزرار قميصه مع تحديقة عين المصاب، الذي تنبه لوجودها فزعًا لهما، كأنه لم يعلم أين هو، باعد يد السائق عن ثيابهِ في حضرة سيدتهِ.

تفهم البنغالي ما عليه أبي مستسمحًا سيدته بالخروج عن مجلسهما؛ لنزع ثيابه وكانت هذه الصفعة الأخرى على صدرها المشتعل من هذا الرجل الذي لم تتوقع برودهِ الآمن في ذاته.

وبعد خروجها من المجلس، قام جبريل بعد طمأنتهِ بأن يتركه كي يُعالجه من أوجاعه الجسدية التي رفقت بها الشجرة وتعريشة الأعناب.

وبدأ في فعل ذلك مُحدثه عن سيدتهِ النَّوَرية، هكذا قال له جبريل، مُضيفًا أن هذه المرأة ليست سهلة، فإنها من بنات (النَّوَر).

والنور جماعة قيل إنهم الغجر، أو أشبه بالغجريين المسلمين، الذين لا يتبعون العلوم الشرعية في دينهم الإسلام، على عكس ما عليه العرب المسلمون، وأن من المستحيل تزويج بناتهم لغيرهم. إلا أن سيدته قد دفع فيها سيده مالاً كثيرًا لأبيها؛ كي يأخذها دون علم أحد من جماعتهم، وهم يتحدثون العربية إلى جانب لغتهم (العصفورة). هكذا بدأ يحكي قصة النورية وهو يُطهر جروحه، بعد نزع منديل هذه المسكينة التي انتُزعت من ثقافتها الحرة وصولا بها إلى تقيدها الثري بكل هذه الأمتعة، التي لم يعلم عنها أحد شيئًا إلا زوجها، الذي أشار إليه جبريل أنه رجلٌ ذو سلطان في هذا البلد، إلا أنه قد تم سجنه؛ لاتهامه بغسيل الأموال والكسب غير المشروع، وكل ذلك يقصه الخادم الذي يعمل سائقًا وطباخًا ونديمًا لها، وهي تسمعه باكية من خلف الستار الذي قلما سترها في بيتها.

انتهى جبريل من إسعافاتهِ، وعمل جبيره عنيفة الربط والإتقان على ساقه المنكسرة. وبدأ يُلملم بقايا أثار تلك الحادثة، مطهرًا ومنظفًا لجسده بالكحول طورًا وبعض الماء أطوارًا.

تركه جبريل في استرخائه مع الألم والسُكر حاملاً بقايا البلاء خارجًا، لتوقفه سيدته في لهفة، سألته عن المنديل الأزرق المُشرب بدمائه المؤمنة. يتعجب جبريل منها. لم يفهم قصدها. لم تُعطيهِ ولا لنفسها فرصة التوضيح، ممسكةً كيس البقايا تنبشهُ، لتخرج منديلها الأبدي.

- آهٍ يا جبريلُ لو تعلم نساء المملكة ماذا يعني ما على هذا المنديل، لأنفقن على محاربتي كل أموالهن ليأخذنه.

هكذا كان عشق النَّورية ليوسفٍ جديد.

- نوار!

هكذا أطلق اسمها جبريل دون ألقاب، متعجبًا من خضوعها الذي لم يسبق أن رآه عليها.

متعلقةً في ياقته تبكي قرينًا قد صاحبها خمسة عشر عاما.

-نعم يا جبريل، لقد وهنت على وهني، ليتني ما اخترته يا جبريل، ليتني ما اخترته. لقد كسرني ابن سلاخ الحمير. (هكذا تكون شتيمة النَّوريين لبعضهم البعض).

-ماذا أفعل يا جبريل؟ دُلني، لماذا فعل بي ما فعله؟

-لأصحاب المبادئ عقائد أشبه بزهادٍ يعشقون الدين لله،

فإذا انحرفوا على ما غُرزَ فيهم من قِيم تألموا تألُم صاحب الرغيف.

فالإنسان تميل روحه لشيئين، ويُبغض شيئين:

يُحبُ اللذة والمتعة والجنة، ويُبغض الفقر والكبت والنار.

والأمّرُ شَرابًا في هذا الصدد سيدتي أنهم حينما وجدوا أنفسهم يَطيعون الله خوفًا من طاعة يمتزجها رياء، فعصوه تَخلُصًا وليس إخلاصًا.

هو لم يرفضكِ سيدتي، إنما في صراعٍ عقدي مع ذاته.

لا عليك سيدتي دعيني أعرف منه حقيقته، وسأصل إلى حلٍ سِلمي معه.

كانت تخشى كشف أمرها، وتحطيم مملكتها النائية. فهي جريمة شروع في قتل، ومحاولة اغتصاب، وتجميد ثروتها والسؤال عنها. كل ذلك كان في نصف عقل نوار، ونصف عقلها الآخر يتضامن مع قلبها في حلٍ يجعل هذا المجرم في طواعيتها بأي ثمنٍ غير المال.

كان هذا أسود نهارٍ قد مر على نوار منذ أكثر من عشرين سنة بعد اليوم الذي هجرتها فيه (باديس) معترضةً على تصرفات نوار التي ما وُلدت كلتاهما على مثلها.

باديس هي قردة اصطحبتها معها نوار منذ يومها الأول في تهريبها من بلاد الشام مع زوجها العجوز، الذي كان عجوزًا بالنسبة إلى فتاة لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها. وتقريباً عمر باديس من عمر نوار. فهذا الشامبنزي، ربيبة نوار منذ طفولتها الأولى التي كانت تُراوضه أمام الجمهور الذي زوجها كان أحدهم.

لم تتحمل باديس إهمال نوار لها، بعد سجن العجوز، في شربها للخمر واصطحاب الرجال الغرباء إلى مملكتها، فتركتها وذهبت. ولم تظهر باديس ولم يعلم أحد خبرها، إلا مرةً توقف الطريق الخارجي من قِبل قطعان القردة؛ لموت أخيهم الذي صدمته سيارة أحد المواطنين في جازان عند جبل (فُيفاء)، ولم يتم سير حركة الطريق إلا بالتصالح مع قائدتهم باديس التي كانت تزعمهم آن ذاك. لم تعلم نوار عن ظهور باديس إلا بعد أيام من حديث وسائل الإعلام السعودية في مدينة جازان، والتقاط صور لقطعان القردة التي بدت فيها باديس غاضبة غضبًا شديدًا.

عرفتها نوار وحاولت البحث عنها خفية، لكنها فشلت.

جاء جبريل بقهوته الخضراء مستأنسًا بصداقة الغريب؛ كي يعرض عليه قبل انتهاء النهار، بأن يتصل على رجاله العمال الذين يقطنون معه في سكن العمل؛ ليخبرهم أنه بخير، وسيغيب عنهم على الأقل أسبوعًا، يكون فيه قد طُبب جُرحه، غير أنه بحاجة إلى الرعاية الصحية، وهذا لن يجده إلا معهم. كما أنه لا يريد أن يُعلم أحدًا بهذه الواقعة، عارضًا عليه ما يريد من المال مُتحشرجًا في عرضه، باسمًا أبي من عرضه.

- قد رفضت المال وقبلت الموت، فهل أقبله للبقاء؟

- اقبل البقاء مقابل رعايتك مني، لا من غيري فقط عزيزي. لنوار فتاة في عمر العشر سنوات، قد أنجبتها فور دخول أبيها السجن. وسأذهب لكي أعود بها من مدرستها القريبة، وكل ما

عليك عزيزي مسامحتنا. فأنت كريم وابن أبطال، ألستم أنتم الذين قهروا الجيش الذي لا يُقهر؟

كنت صغيرًا حينما استقللنا عن باكستان، وسمعنا أن هنالك شعبًا قد هزم اليهود في مثلث الطور الأعظم.

تبسم أبي من قول جبريل وطريقته العربية المتعسفة التى يذكرون فيها المؤنث، ويؤنثون المذكر. وما كان قول جبريل إلا استجارةً به، وأن يكمل شهامته ورجولته التي كسرت عودًا كان من المستحيل كسره، ويبدو أن جبريل قد أعجب بعقيدته ومبدئه، ورفضه لشيء لم يتخيل تقبُله.

وبعد مناقشةٍ باسمة، جاءه جبريل بالهاتف؛ ليتصل على خط المقهى، تاركًا رسالة لصاحبها: أنه يريد محادثة (صبري المنياوي).

فكان ذلك المنياوي يعمل نجارًا ويسكن مع أبي، غير أنه دائم الجلوس على المقهى، حتى بعد انتهاء عمله، ولعل حبهِ للجلوس على المقهى ما جعله بعد ذلك يفتح مقهى في حي إمبابة الذي يعيش فيه صبري المنياوي هو وزوجته وأبناؤه. فور انتهائه من السفر، وبعد معرفة صبري صديقه بالحادثة الذي أبلغه بها أبي على أنها اصطدام سيارة، أصر صبري على معرفة مكانه؛ ليراه؛ كي يطمئن عليه. لكن أبي قد وعده بأنه سيحقق له ذلك غدًا حينما يأتيه ببعض أغراضهِ الشخصية من ثياب. والسائق البنغالي يومئ رأسه له بالموافقة، شريطة ألا يخبر أحدًا.

ضبط جبريل فراشه وجاء بمقاعد إسفنجية قد ضُغطت مرات؛ ليضعها جانب بعضها؛ كي تُشكل مرتبة أشبه بمراتب السرير، لكنها أرضًا، وأسندهُ ورفع ظهره، ووضع خلفه متكأ يجعله في زاوية منحدرة تجاه مدخل ما يتبقى من المنزل،

وانصرف عنه وتركه مُستلقٍ على آلامه. يَغُطَ ويُفزع. يغشاهُ نعاس السُكر. يُوقظهُ همس حفائها أمامه. تقف في ضوئها الخافض تلمعُ عيناها كنجمين يُكِلانِ بصر الناظر،

- كل ما حدثك به جبريل صدقًا، فقط أردت أن أشتري سعادتي بالمال الذي أطلقني فيه أبي بأبخسه. أردت أن أحيا واقعي الذي ينقصني فيه آدم. وما كنت أدري أن بحثي سينتهي بي إلى يوسف. ف زليخة كان لها رجل دون يوسف، وحواء قد التقت بآدم، أما أنا فمخطوبةٌ قبل أن تولد أنوثتي من سجينٍ عَطيل، فلا أنا أحلُ لغيره، ولا هو هنا كي أعيش بظله.

وكأنها حبهُ الأول الذي جاءته تُبرر له سبب خيانتها له، هكذا رأته بل حرصت على رضائه، رغم أنه ليس منها ولا لها، وذهبت تنزعُ عن خيبتها هيبتها، تُجردُ عرق الخوف المختلط بعرق الرغبة المقتولة.

قد جرد كل هذا الماء البارد وهي تودع مفاتنها الشبقة في آخر رغبة قد تقتل كل الرغبات الآتية. تقف أمام مرآتها وترى قبحها لأول مرة، وهي التي أغنت بثروتها فحول شتى، قد أفقرها هذا الفقير الغني.

دبت في صدره الشفقة لها، وهو مثلها منزوع من ثقافته، لكنه يصوم، وتُفطِر. وبدت عليها بعض الحِشمة في ظهورها أمامه، واستعدت وأعدت صيدها المجفف من داخل مبردها الحافظ للطيور واللحوم المجهزة للطهي. مثل السمان الذي لم ينجُ من قنصها له. ولا يهنأ البط المهاجر برحلته، فيكون بلا أجنحة أو ريش فساعات وسيكون لا شيء. كانت حقا أنثى الجبل فلم تستطع أية امرأة أن تعيش بين أحضان الجبل إلا إذا كانت بدوية أو غجرية.

فكلتاهما لديها سر الكائن الآخر. على دراية بعالم الحيوان والطائر. فالغجر رحَّالة، والبدوي كل شيء يرحل إليه.

ولا يحافظ على تاريخ العشائر إلا النساء، فطبيعة مجتمعاتنا أن الرجل هو الذي يسعى، وكثيرًا منهم من يرحل ويُداوم على السفر الطويل والقصير لفترات طويلة، وكذلك الأجيال فالأجيال. وهذا يعني أن فكر الرجل مُتغير من تأثره بثقافات أخرى غير ثقافته. وهذا هو الذي من أسباب انتشار الثقافات في مجتمعنا العربي والمصري خاصةً؛ لأن المجتمع المصري يعيش في أكبر بلد تتوافد عليه أجانب، وهو أكثر شعب ذهب إلى بلاد أجانب. فكذلك المرأة البدوية التي تفتش في الأرض عن خبزها، قادرة على أن تحافظ عليه كي يَكفيها من الجوع دهرًا، وكذلك في المحافظة على لغة البيئة التي خُلقت لهم. ومن أكثر النساء تأثيرًا على مجتمعها في مصر هي المرأة الصعيدية الأصيلة، التي لم تخرج للعمل، ولم تتعلم

ولم تختر زوجها. وفقط تقوم على رعاية أبنائها وإدارة منزلها. هذه المرأة تملك شيئا يُسلب من الرجل كل عام عن العام الذي يليه، وهي عادات البيئة ولغة البيئة. في هذه البيئة جاء سكان عرب ونطقوا بالفصحى، وظل سكان آخرون ينطقون اللغة القبطية، فوجود هؤلاء النساء في بيوتهن يحافظ على اللغات واللهجات من الانقراض؛ لأن الأبناء يتعلمون الكلام بواسطة الأم، ومثله الشارع المتواجد فيه أبناء تعلموا اللغة بواسطة الأم.

مثلما تدلل المرأة ابنها وهي تقول له: "نانوس عين أمه"، التي تعني كثير الجمال لأمه، وحينما تعلمه المشي تقل له: "تاتا"، التي تعني يطأ ويدوس بالقبطية القديمة.

ولم نقل في بيئتنا حينما نريد تنحي الكلب عنا إلا: "جِرْ"، إلا لأنها تعني الزجر، قبل أن نأخذها استطرادًا بالذهاب أو الابتعاد، وحينما كانت أمي تحذرنا من الخروج في الرياح الصيفية، تقول لنا: الجو (شوب) بالخارج، التي تعني الحر الشديد في الأشورية الشامية والأرامية، وكذلك القبائل الصعيدية التي تنطق الفصحى لانحدار أصولها من القبائل العربية، مثل الهوارية، والعلوية المعروفين الآن في جميع أنحاء مصر وبعض المدن الليبية باسم (أولاد علي)، وهم ليسوا قلائل في مصر من معبر السلوم الدولي حتى منتصف الصعيد. كما أنها ساهمت في الدفاع عن أرض مصر أيام الحملة الفرنسية على مصر. ومن أكبر القبائل التي ساهمت في ثورة ألف وتسعمائة وتسعة عشر، ولهم تاريخ وطني لا يقل حظًا من قبطها أو

فرعنتها، فمنهم وزير الدفاع الأسبق، المشير (محمد عبد الحليم ابو غزالة). وتتفرع منها أفرع مثل فرع قبيلة (على الأبيض)، وفرع (قبيلة على الأحمر)، وفرع قبيلة (السنينات)، ومركزها الرئيسي في مصر في الصحراء الغربية بمحافظه مرسى مطروح. وكان لوجود مثل هذه القبائل أثر عظيم على نطق جماعات كثيرة في مصر بالعربية الفصحى سواء كانت لغة فصيحة أو ركيكة. أما ما ينطقونه شاذًا عن لهجتهم أو لغتهم فإما أن يكون دخل عليهم من غريب قطن معهم، أو قريبٍ سافر وجاء به مثل سفر آبائنا وأعمامنا لشبه الجزيرة الحارة. وكذلك الهوارية التي يختلف الرأي على أنها عربية صِرف، أم عربية أمازيغية يعود أصلها لشمال إفريقيا والأندلس، وبعضًا منها انحدر إلى مصر، فلم تكن مصر أم الدنيا فقط لنسبنا بهاجر عليها وعلى زوجها وابنائها السلام، إنما هي أم الدنيا لاحتضان كل من يلجأ إلى أرضها. أما الغجرية فتغلب رجال الترحال؛ لأنها تعمقت في البشر أكثر من غيرها، ليس لديها وطن، ومن ليس لديه وطنٌ ليس لديه حنين. كانت نوار قد تعلمت فن مراوضة الثعابين منذ طفولتها التي رأت أباها عليها. فالغجر يفعلون كل شيء. فمنهم من يجيد الرقص، ومنهم من يراوض القردة والثعابين، مثل نوار وأبيها.

كانت نوار تملك بُستانًا ليس عند أميرات المملكة، كانت تعيش فيه عالمها الذي ظن كل الخارجين أنه لصاحب ذي عزة وسلطان. وكان هذا واضحًا للعوام من خلال رؤيتهم رجال كثيرين

من الأمن الخاص على باب مضيق الجبل سنين وجوده خارج السجن، ويبدو أن الناس تعودوا على أن لها صاحبًا قويًا فلم يقربوها حتى بعد غيابه عنها كل هذا الوقت.

خرجت من مكان مرقده وذهبت إلى آخر البيت، وفي يدها طبق عاجي سميك، وفي داخله إناء طويل ومسحوب كأنه قسطاس مصنوع لغرف لترًا واحدًا فيه. دخلت حجرة نزلت فيها مقدار أربع درجات عالية بُنيت بالحجر البقري، الذي لونه يُشبه لون جلد البقرة الباهت الصفار. وانزوت على يسارها. وجثت على ركبتيها ورفعت غطاء بحجم قرص لب عباد الشمس، فاستنشقت لبُرهة، باعدة موضع وجهها عن ذاك البئر المدفون الذي متدفئ في باطنه الخمر المعتقة. فلم يكن هذا البئر الصغير وحده العين الذي تغرف منه، فتربيعة الغرفة كلها مصطفة بهذه العيون التي تُشبه قرص اللغم في رمال الصحاري محظورة السير لكثره الأفخاخ فيها، غرفت ثلاثة منها في طبقها العاج الأبيض. وخرجت به إلى مطبخها العجيب الذي يُشبه خازنات الأمانة في الفنادق أو المطارات. أنواع كثيرة من الأدراج الصغيرة محددة في الحائط..

وجاءت بطبقٍ آخر (صيني) كبير. وأخرجت من درج أكبر قطعة قماش شديدة البياض منسوجة نسيجًا يجعله يمرر الماء منه ويحجز الشوائب، وضعته فوق الطبق الصيني وأحكمت أطراف القطعة البيضاء بمشابك من مشابك الأوراق والمجمعة لحفظها. وصبت فيه الخمر على مهلٍ لتتحول القطعة من بيضاء إلى صفراء

شبه محروقة. تُلملمها وتُلقي بها في سلة المهملات. وتُخرج قطعًا من اللحم الرقيق وتُسقطه في الخمر وتتركه. حتى يأتيها جبريل بابنتها (دونكا)، ومعنى اسمها عند النَور الفتاة التي لا تقدر بثمن.

كانت دونكا مثل أمها في كل شيء، إلا براءتها التي انطفأت من على وجه أمها منذ سنوات أطول من سنوات حرب المنكسرين، فيها سُمرة يطغى عليها البياض، إذ اصطدما فنتج عن اصطدامهما حُمرة الخجل.

جاء بها جبريل إلى بيتها؛ لتدخل فتجد أمها منزوية في مكانٍ لم تتعود على وجودها فيه، كان صوت طشطشة السمّان في الزيت كصوت نزول المطر على سطح النيل، وهي تغلي بَرَدًا ، دخلت دونكا المطبخ لتتنبه نوار من وجودها وصمتها، فتستقبلها نوار بجناحيها دون ابتسامتها التي اعتادت دونكا رؤيتها، أوقفتها بجوارها لتُحدثها عن الضيف الذي وجده جبريل على الطريق مصدومًا من قبل سيارة مجهولة، كان هذا الذي قد انتهى إليه جبريل مع نوار، وبعد وقتٍ انتهت فيه نوار من إعداد الطعام الذي لحقها فيه جبريل بالمساعدة، كان الجريح قد آفاق من تسكينه الذي كان خوفًا ونومًا وكأس خمر. تركت نوار لجبريل صينية من النحاس الأحمر وزنها أكثر من وزن كل هذا الطعام الذي أعدته نوار.

وضع جبريل متكآت عن يمين ويسار ساق أبي المنفردة ووضع عليها هذه التحفة لتُظلل ساقيه، ثم أحضر عليها هذا الطعام الذي لا يليق إلا بضيفٍ محبب، وكان هو أول ضيف تهتم نوار بطعامه

هكذا، ربما تشفق على جسده الممزقة وعظامه المُكدمة، أو خوفها من سوء حالته الصحية، أو حبًا له، جلس جبريل بعد الانتهاء من وضع الجوارح الطائبة من السمان والبط الرحال الذي يُشبه أهل نوار. وبعض المشروبات الدافئة مثل الملوخية ورقائق اللحم الباردة التي استوت عنوة في خمرها المنقوع، وظل جبريل يطعمه، فكان طعامًا لذيذًا بما فيه اللحم المُسوَّى في الخمر، واستلذها أبي وأكل منها كثيرًا، حتى بدا عليه سُكرٌ لا مثيل له عن سابقه، ولم تكن طريقة وضع اللحوم في الخمر عند نوار لسُكره أكثر منها لتسكين آلامه وأوجاعه التي أخرجتها نوار بغجريتها الماكرة،

جهزت نوار صغيرتها على أتم الاستعداد لمقابلة الضيف كأنها قربانًا لملوك الهنود الحمر في الغابات، وكأنها لم تستطع ولم تنجح في ذلك فرأت في نفسها تلك الحسناء دونكا، التي دخلت مرحة تُصيبها الشفقة من رؤيته المتهردلة، وما عليه من جروحٍ وكسور، رأى ذلك أبي في عين طفلة أضاءها الظل، تبسم فِي وجهها، فتبسمت. وداعبها بصوته السكرانِ، فتضحك واستجلبها بخاتمه فنزعه بُسكره من خنصره يُطوقه في إبهامها. ويطلق عليها قبلةً فتخجل، كان يفعل ذلك دون وعي.

فكانت (تترنح بسُمرةٍ دافئة أشبه بالظل بين الروابي تخجل بحُمرةٍ نفرت عنوةً من مّر السحابِ، حديقةُ الطلِ، ثقيلةُ المّل، تحلبُ الضوء من ضرعِ الضبابِ، ظبية آسرة. للخوف كاسرة كجمال راهبة أهداها القِس للحابي).

تلك الحسناء أعادت لذاكرته أبنائه الذين كنت واحدًا منهم، فعمر هذه الفتاة كان من عمري تقريبًا، أو أقل بعام، كنتُ أصعب ابن عندهم دون إخوتي جميعًا، منذ طفولتي والذي في عقلي لم يظهر أبدًا على وجهي. ولعل غياب أبي كان له تأثير على فرط شقاوتي. حين كنا نذهب إلى النيل؛ كي نستحم فيه دون معرفة من سيعاقبوننا على ذلك. كان النيل لم يبعد عن قريتنا إلا مقدار أكل الرطب التي لملمناها من تحت نخيل الطريق، أو أسقطناها برمي حجارة المهرة الذين لم أكن أحدهم، كنت أُنقي مثل الخائبين أمثالي الذين لم يحترفوا في رمي الحجارة مثل أطفال (العرب)، كانت رمياتهم ماكرة، وسريعة وصائبة في أغلب الأحيان، والمقصود بالعرب في قريتنا أو في معظم مناطق الريف هم (البدو). كان شيئًا ليس هَينًا أن ترتاح نفس العربي للفلاح، ولا يُحبذون مُصاهرتهم إلا مع هذا الشايب أبي، الذي قُدرت له صداقة بين صديقه في الجيش. كان اسمه (حميد) من عرب الحصار التي في المركز المجاور لمركزنا، كان أبي وحميد وجليل في سَريّة واحدة. أما جليل فمن قريتنا وصديق أبي المشاغب.

هذه الصداقة التي بدأت عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين، بين رجلين استطاعت أن تؤلف بين بلدين وليس عائلتين فقط، ولا أحد يدري ما هذه الألفة التي خلفها هذان الرجلان العظيمان، هما وكل الرجال السادة في عشائرهم، وكيف ساد السلام بين طائفتين لم يرتح أطفالُها إلى أطفالِها، كنت أذهب مع أبي إلى العرب كي أرى صديقه حميد، الذي رأيته مرات في وجود أبي، أو

لزيارته عمي عبد الله الذي صادقه مثل أبي وأكثر، كان بيت عمي حميد قد بني بالطوب الحراري المستقيم المنضبط الزوايا، والأجمل في لونه، كان يَطل على المقابر وكانت البيوتات على رابية عالية عن سطح الأرض المواجهة لهم، التي مقبورٌ فيها آباؤهم وأجدادهم، كنت خائفا من هذه الصورة الكثيرة الأهرامات الصغيرة والكثيرة بهذا الشكل المثلثي الحاضن لصبار الموتى المزروع على قبورهم، الذي كنا نُداوم على رَيه حينما نزور مقابر أجدادنا، على يقين بأن النائم هنا سعيد، ونحن نسقي له صبارته، وإذا كانت صبارته أصابها الجفاف فهو حزين من أهله لعدم زيارتهم إياه.

(إذا أردت أن تعلم من الذين يحبونك بصدق مُتْ وانظر من الذي سيروي صبارتك إلى أن يلقاك).

كان استسقاء ليس من السماء، إنما من أكفَّ الأرامل واليتامى، وأحفاد الجدود الذين إما رأوهم أحياء لسنوات قليلة، أو لم يَعوا رؤيتهم جيدًا، فالأطفال تحن لبعضها، فكانت مقولة صادقة التي أخذها الفلاحون حائلاً على بِر آبائهم وأُمهاتهم وهي (مكبرهم مثل مصغرهم).

كنت أسمع أمي تقولها لأبي حينما تشعر أن صوته سيعلو على جدتي وهو يُفهمها شيئا في صالح صحتها، وهي لا تستوعبه.

فرح عمي حميد بزيارتنا التي بدت مفاجئة، تنبهت لذلك حينما شرعوا وقتًا طويلاً في تجهيز الغداء الذي كان جميعه طازجًا، حتى الخبز كان طازجًا أيضًا، فهذه الفردية التعارفيه استطاعت أن

تشارك أفراد آخرين من أولاد عمومتهم في زيارتهم إيانا، وكان نفس الشيء لديهم، ودعوة بعضهم البعض في الأفراح، وأيضًا حضور المآتم. وعلى مر هذه السنوات التي أبقتها المداومة على سؤالهم عن بعضهم البعض، ليس في الهاتف الذي لم يكن قد جاء حينها في قريتنا، أو إلى رمالهم الدافئة، وإنما ذهابًا إليهم فجأةً، أو مجيئهم إلينا كذلك، لم تدُم الصداقة بينهم إلا لأنها ما كانت إلا لله، فلم ينقص هذا الود إلا أمرًا كان من مستحيلات البيئة البدوية مثل البيئة الهوارية التي لم تختلف كثيرًا عن سابقتها، وهي مصاهرتنا إياهم، وكان هذا واضحًا للريفي بأبسط الأمثلة العربية التي يُرددها البدو: (ارميها للتمساح، ولا تعطيها للفلاح)، ولم تكن هذه الخطوة الجريئة يستطيع فعلها إلا كبيرهم وشيخهم (سعيد العرب).

اسمه الحاج سعيد العربي، فكنا نختصرها في سعيد العرب، أي سعيد الذي من العرب، وحينما نخبر عن قدومهم نقول العرب جاءوا أو ذاهبين إلى العرب. سعيد العرب أخو حميد الكبير، وشيخهم الذي صادق عمي عبد الله (شيخ البلد)، واتفقا على أن يكون بينهما نسبًا يربط هذا الود طول العهد، لدى عمي عبد الله خمسة أبناء ذكور يكبرهم صاحب الحظ النادر تحقيقه (بدر) الذي كان عمره حينها التاسعة عشر عامًا، لم يكن هذا النسب نسبًا عاديًا، فأهل القرية على أهُبة الاستعداد لاستقبالهم بدوية فرحين بأول عروس عربية ستقضي عمرها معهم، اما العرب فكان شطرهم راضٍ لقبولهم نسب النبلاء، والشطر الآخر لم يكن قد تعمق في معرفتنا، فكان هذا الشطر معارضًا على مخالفة عادتهم.

كانت الأعراس في قريتنا لم يأتِ عليها المغرب إلا ويكون العروسين في خدرهما قد بدأت ليلتهما منذ ساعة أو أكثر.

استطاع سعيد العرب بعد معاناة أن يطلق الجميع عليه سعيد العرب، هذا الرجل ذو الجسم القوي، سميك الوجه، واسع العينين، ثيابه على جسمانه حية وليست ذابلة، هيئته وبنيته لا تختلف كثيرًا عن بنية عمي عبد الله، إلا أن عمي عبد الله كان وجهه قمحيًا فاتحًا هادئ الملامح، على خلاف سمار وسماكة وجه سعيد العرب، الذي أنصف نساء العرب وبناتها حين بدأ بابنتهِ (رشا) التي ما كانت إلا رشا. لم تكن رشا صغيرة في السن، فكان عمرها السادسة عشر، حصلت على الشهادة الإعدادية، حتى قرر أبوها تزويجها بدر،

كانت نساء العرب تفتخر أن هذا السعيد من عربهم وشيخهم. لكن الرجال كانوا ليسوا كذلك، إلا الذين تعمقوا في ودنا، فوحدهم من كانوا يعلمون أنهم فائزون بهذا النسب، لأنهم وجدوا فينا أخلاقًا وأمانة وصونًا للخبز اليابس والملح الذي مضغه أبي وحميد، من خمسين عامًا، على سطح رمال الإسماعلية، كان أبي وحميد وجليل في سريةٍ واحدة، تحت قيادات المشاة، التي كانت سلاحهم آن ذاك، فكانت البلاد في حرب مع العدو. وكانت سنوات عمل شاقة للجنود والقادةِ والشعب، فكانت السرية تعمل على نظافة الأرض، وما خلفته من ذخائر فارغة ومعطلة وحية، وكانت قليلة، إلا مواضع زراعة الألغام، وكان الجند أثناء عملهم

في نقل وصيانة وفرز الذخيرة التي كان أبي وحميد يتناوبون السير ذهابًا وإيابًا من أرض المخلفات إلى التبة التي يضعون فيها الذخائر، وإذا بالجميع يُفزع من مفاجأة الانفجار الذي يتوسطهم، وأشلاء تتناثر. كان أبشعها موت (غبريال دوس ملاك).

انفجرَ في أحضان (دانتهِ) كما يصعق المضرب الكهربائي الناموس. أسرع كل من في المكان نحو المصابين ينقُلونهم بعيدًا إلا أبي وحميد وجليل، كانوا يُلملموا ويجمعوا أشلاء صاحبهم غبريال دوس ملاك، ابن حي العمرانية الذي جذور فروعه من محافظة (المنيا).

وحين كانوا يجمعون أشلاءه تتقاطر دمعاتهم في أحشائهم من انسداد بلعومهم بغصة من هول ما لا يتوقعونه فجأةً بفقد عزيزٍ عليهم. فكانوا يجمعوا أعضاءه كما لو أنهم يجمعون أجزاء لعبة، فوجد أبي قلبه مُلقي على الرمال. فنسي نفسه ولم يهن عليه قلبه، فجثا على ركبتيه فاردًا كفه يكشطهُ من الرمال ككشط الرغيف المعجون من على النخلة، يحمله في كفه وفي قامتهِ نبض قلب غبريال في كفه، فأُغشي عليه ووقع مريضًا لا ينطق خمسة عشر يومًا، ولم ينطقه أخيرًا إلا أول بكاء انهال به على سرير المستشفى العسكري بالإسماعلية، فكان غبريال يحب أبي حبًا شديدًا لتواضعه وعدم أنفته منه، كما يأنف بعضُهم من بعضهِم في تناول طعامنا طعامهم وتناول طعامهم طعامنا، ودائمًا ما تعودنا على مبادلة الطعام بالطعام، فكانت جدتي تفعل ذلك مع جارتها (مرسى) إذا أحضرت لنا مرسى طبقًا من الأرز الأبيض باللبن، أعادت

جدتي لهم الطبق مليء بالعجوة السيوي، وكانت المرأة الفلاحة الحق، هي وحدها من تُتقن فن تصنيع وتخزين العجوة السيوي، التي كان يتم تخزينها لشهر رمضان، أو العيد في استخدامها للقُرص.

والقُرص هي دقيق أبيض فاخر معجون باللبن والسمن، خالٍ من النخلة، ولا يُقطع إلا على دقيق أو طاولة ممسوسة بالزبد، على خلاف الخبز الذي يُقطع قطعًا قطعًا على النخلة، والنخلة اسمها باللهجة المصرية (الرَدّة)، أي التي رُدت من الدقيق وتم استخدمها كفرش برشها على الطاولة ووضع قطع الخبز فوقها،

كانت جدتي لأمي ماهرة في صناعة العجوة السيوي، التي كانت تطرحها النخيل، التي كان جميعها سيوي إلا نخلتين كانتا تطرحان بلحًا اسمه (مصري)، وكان بطول الرصاصة، ولونها إذا استوت، اصفرت، وتُهزُ من مقدمتها ليتحول ربع البلحة أو نصفها لأصفر، والنصف الأمامي لونه عسلي، فكنت أحب هذا النصف المُرطب دون خشورة، فكنت أقضم نصفها وأترك نصفها الآخر. وكان كثير من هذا النوع من النخيل يُصيص، أي يُصبح صيصًا ليس فيه نواة من الداخل، أو خيط رفيع كالقطمير الذي يكون بداخل النواة. فكانت النخيل لا تسلم من رجمنا لعراجينها حتى وهي في بدايتها (رامخ)، والرامخ هو حبيبات البلح وهي لا زلت مثل حبات الخرز.

فكانت جدتي تستلم التمر السيوي في عراجينه وتفرزه، وتنقي ما يصلح للصنعة، وتعزل ما يجوز أكله على حالته التي قُطفَ عليها، ثم تنشرهُ في الشمس أسبوعًا أو أكثر ثم تُلمعهُ بقطعة قماش من

القطن المبلل بالماء القليل. وتضعه في مقطف مشغول من عسيب النخل، واسمه بالعامية المصرية (خوص). ثم تُحمص البلح السيوي في التنور، ثم تخزنهُ ساخنًا في جرة فخارية بعد مسحها بالزيت كي يعزل العجوة عن جدران الجرة.

وجدت ما خلفه أبي وجدتي لأمي بل وكثير من قريتنا في تناول طعام المسحيين، ولعل هذه واحدة كان قد افتقرها غبريال في معاملة من حوله له، فكان غبريال يُجهز لنفسه وجبة استثنائية عبارة عن مربى تين وخبز يابس وماء يتم تزويد المربى به كي تروب، ثم يضع الخبز اليابس فيها وكأنه يفت كما نفت نحن الآن الكبسة واللحم والخبز في الثريد.

وانهى غبريال طبقه المجهز على أرض مدخل المبيت، وترك ملعقته الخاصة بداخله، وأبي يدخل ليرى هذه التسقية وهو يعلم أن هذه الأكلة لا يأكلها إلا غبريال، وأن هذا تقريباً الطبق الوحيد الذي لا أحد يستخدمه إلا غبريال، فوجد أبي غبريال في آخر المبيت يتحدث مع حميد وجليل وانتهى معهما، في حين انكمش أبي على قرافيصه. ماسكًا ملعقة غبريال وتسقيته الحلوة ويأكل، مترقبًا رد فعل غبريال الذي توقع أنه سينهره؛ لأنه يأكل أكله دون أذنه، أو أكله الذي أعده لنفسه لأنه جائع، وإذا بغبريال يضع جناحه على السرير العلوي الذي من طابقين ويتأبط زاويته العلوية مسترخيًا بجسده، ناظرًا إلى أبي والضحكة تسقط من وجهه فرحًا بروح صديقه. قائلا له:

- أحلى ما فيكَ يا حسن، نفسك الحلوة.

- قلت في ذاتي إنك ستنزع زاوية السرير لتضربني بها.

ومكثا يضحكان، ويبدو أن تسقيته فعلا قد أعجبته، فكان أبي يأكل وغبريال يشبع، ولم أدر هل أبي وجد كل مسيحيي قريتنا مثل غبريال دوس ملاك؟

بل كانت لديهم أُلفة حقيقية تعبر عن سعادتُهم بسعادتنا، وكنت أسمع حديث الجيران الأقارب في نهار شهر رمضان عن (عزومة حربي المسيحي) للمسلمين على الإفطار، وكان كثير من الناس يذهب بما فيهم أبي، ليجد هناك صديقه منير الخياط، وهو مسيحي جاء ليقدم العون لابن عمه حربي بخدمة المسلمين الصائمين. ولم تكن صداقة أبي لمنير الخياط تضيع هباءً. فكل الرجال الذين أرسلوا أقمشتهم لمنير الخياط لُيفصل لهم جلبابًا بلديًا فلاحيًا لم يعجبهم صنعته في الحياكة وضبط الجلباب على الجسد بما يتطلبه الجسد لما يليق عليه.

إلا ثياب أبي، لم أدر لماذا منير الخياط يُبدع فيها كل هذا الا بداع؟ كي يشهد الجميع أن منيرًا محترف ماهر بحياكته هذه الأقمشة المتنوعة التي كان يأتي بها أبي من الخارج، لكن ما اكتشفتهُ مؤخرًا أن منيرًا الخياط لم يحك كل ثياب أبي، وكان يخشى ألا يُتقن فيها من جمال خامتها الباهظة، مثل الكشمير والصوف وما بينهما، فيذهب بها إلى من هو أفضل منه في الحياكة بمقاسات أبي التي أخذها منير من على قوامه، فكان

المسيحيون يحبون عمي عبد الله لأنه أخو حبيب على قلوبهم، وأيضًا في معاملاتهم المالية لم يشقوا معه، فكان عمي عبد الله يُتاجر في الخضراوات بشرائه المحاصيل من الفلاحين الذين كان أغلبهم مسيحيين، يزرعون الطماطم، والخيار، والباذنجان. كان عمي عبد الله لديه أيضًا سيارة نصف نقل تنقل له يوميًا الخضراوات والمحاصيل إلى أسواق الجملة، وفقط كل ما عليه شراء المحاصيل التي كان يأتي بها الزُراع إلى ساحته أمام منزله، الذي كان في واجهة الأراضي أو ما تبقى من زمام القرية، ثم يقوم العمال بفرزها وتعبئتها في أقفاص إن كانت طماطم أو كوسة. أو في شكائر بيضاء أو من الخيش، إن كانت بطاطس أو باذنجان، ولقد تعلمت الحنكة منه في أبسط الأشياء حينما كان يضع محاصيل الكوسة في أقفاص مصنوعة من جريد النخيل، بعد أن يضع في جوانبها وأرضيتها ورق سميك، كان من أوراق شكائر الإسمنت الفارغة؛ كي لا تترك سيقان القفص علامة تشوه الكوسة، وأيضًا للمحافظة على نضارة الكوسة وحمايتها من الهواء أو الشمس؛ كي لا تذبل وهي في طريقها سفرًا إلى السوق، وكذلك تغطيتها وربطها بخيط بلاستيك أبيض تم صنعه لذلك، أو تخييط الشكائر الخيش والدقيق التي تتم أيضًا إعادة استخدامها في تعبئة البطاطس. استيقظ عمي عبد الله ذات صباح لقضاء عمله فلم يجد أوراق الأسمنت التي يستخدمها، فغضب ومكث يفكر كثيرًا. وأنا أنتظر في نفسي كيف سيعلم الذي سرقها؟ وهل سيعثر عليها أم لا؟ ولم يغب عمي عبد الله سوى ساعة هو وابنه بدر، إلا ورأيت بدرًا يتأبطها، فقد ذهب

إلى جليل الذي كان يلف نبات البانجو فيها ويبيعه لفائف، فلم يكن أحد يستخدم ورق الإسمنت السميك في التجارة حينها إلا ثلاثة، الجزار الذي يضع فيها اللحم، وعمي عبد الله الذي يستخدمها في أقفاص الكوسة، وجليل الذي كان يبيع فيها لفائف البانجو، كان قد اشتراها جليل بجنيهات حينها، ولم يقل لعمي عبد الله على السارق الذي جاءه بها، لكن والحق يقال أن عمي عبد الله كل مَن عرفه شهد أنه أفضل بكثير في معاملته، على عكس نظرة الناس له بسبب قلة كلامه، إلا في الجد، لا يستطيع إسكاتهُ أحد، كانت تظهر عليه الغلظة والفظاظة. لكن حكمته كانت تُفتت كل القساوات إلى رقة، كانت مشاعره الخارجية جافة، لا يمكن أن يراها أحد. أما مشاعره الداخلية التي تسكنه فقد تذيبه من شدة الرقة. وهذا نفس الأمر الذي فعله أبي من خلال صداقته ب حميد العرب أخو سعيد العرب، وكأن أبي كان يعيش في الحياة يصطفي رجالاً ويُعرِف إخوته وأبناء عمومته عليهم، فيرتاح الجمع لبعضهم، بل وصل الأمر لترك أمر الميراث وتقاسيم التركات بين المسيحين وبعضهم في القرية لعمي عبد الله شيخ البلد، حينما وقع خناق بين إخوة مسيحيين بعد موت أبويهم والاختلاف على تقسيم تركتهما بينهم التي كانت عبارة عن أربعة بيوت قد بناها أبوهم لهم، لكل ذكر من الثلاثة بيت قد تزوج كلٌ منهم فيه، وبقيت بنتين وبيت أبيهم.

وتبقي من الفدان عشرون قيراطًا بعد بناء أربعة قراريط من الفدان، فلم ينجح أحد في إقناعهم بأي قسمة يقسمونها بينهم.

على أخذ أحدهم مع قسمة الأرض للبيت الرابع، فيرفض الجميع. فيتفقوا بعد تقسيم الأرض على أن يُقسم البيت عليهم جميعًا فيختلف البعض بألا تأخذ البنات في البيت الرابع شيئًا، يتفقوا على أن البيت الرابع يُقسم على الذكور، تعترض الأُنثيان، فلم تفلح قسمة حاكم بينهم إلا بالقسمة التي استعان فيها القس (أدمون) لعمي عبد الله شيخ البلد الذي هو أيضًا شيخ المسيحيين. إذا انشغلت الكنيسة عن زيارة كل مشكلاتهم،

فكانت قسمة الشرع أعدل قسمة، حينما اصطحب عمي عبد الله خالي صادق معه، والشيخ خطيب الذي وسع صدره بالقرآن، وكل جلسات الميراث يفتي فيها شرعًا، كان دارسًا لأصول الدين، وعمل بها في وزارة الأوقاف خطيبًا ثم مفتشًا على المساجد.

نادى فيهم عمي عبد الله للاجتماع وتقسيم الميراث بينهم كما طلب منه القس أدمون، وقد علموا ذلك فقط من صدق عمي عبد الله الذي يعلم كل الناس أنه أصدق رجل في القرية، ولا يظلم في حكمه أحدًا حتى وإن كان هو المدين.

لقد خير الشرع الأخوة جميعًا بأحد الأمور ومنها:

- لكل ذكر من الثلاثة بيت وخمسة قراريط. والأُنثيان خمسة قراريط والبيت الرابع مشاركة بينهما، أما بيت أبيهم يتم تقسيمه كما تمت القسمة عليهم جميعًا مالاً قدر قيمته، ويحق لمن يرغب أن يشتري من إخوته جميعًا إذا اتفق نصفهم على البيع لواحد.

أو:

- للبنتان خمسة قراريط مشاركة بينهما، وبيت أبيهما أيضًا مشاركة بينهما، والذكور لدى كل منهم حقه المتمثل في الخمسة قراريط للفرد وبيت له، والبيت الرابع من حق اثنين أن يتشاركا فيه إذا تنازل كل من الآخرَين إلى من يرغب، أو تنازل الجميع بالبيع لواحد...

كانت قسمة بالنسبة لهم غريبة ومريحة وعدلتهم للرضا، ولم تكن القسمة حينها شرعًا بالنص إلا بالتراضي بينهم. فبيت أبيهم في مكان وبيوتهم وما خلفها من أراضي زراعية في أطراف القرية في مكان آخر، فكان من الأرجح لجميع الذكور أن يتركوا بيت أبيهم لأختيهما، كي يفوزوا ببيت رابع على أرضهم ويكون صاحبه منهم. على عكس الأختين التي كانت إحداهما متزوجة في بلد آخر من زوج ليس قريبهم.

وحينما رضى الجميع بالقسمة التي قسمها الشيخ خطيب. تم إحضار أوراق بيضاء ذات سطور كتب فيها إعلان توريث عرفي بينهم، ومعرفة أماكن أراضيهم بالترتيب وبالتراضي، وكتبها لهم خالي صادق، من نسختين بفضل الكربون الشفاف الذي شف النسخة الثانية تحت أختها..

وزادت ثقة المسيحيين بعمي عبد الله أكثر من ثقتهم بأبي الذي لم يكن متواجدًا أغلب العام، لكنه كان بمثابة حبل الوداد الذي ارتبط بأصفياء الرجال، ولم يقطعه حتى مع جليل.

كان جليل منذ شبابه وهو الطيب المجرم. فكان لجليل مواقف جنونية كان يعرفها أبي عنه دون أصدقائه في السريّة التي كانا فيها وهما يقضيان الخدمة العسكرية، وليس إلا لأن جليل من قريته ويعرفه جيدًا، وصل الآمر حين ذهابهِ لقضاء إجازته أن مزح معه حميد يُقايضه على شجاعته في أخذ البندقية معه إلى بيته، فأخذ زوجة بندقية أبي من حميد الذي تركها لجليل، على أنه يمزح، وذهب بها وكل بعُد يتخطاه جليل ابتسامة حميد يصيبها الاصفرار ووجهه بدأ يتقلب كلما بعُد، يُنبه أبي حميد أن جليل لم يمزح وسيذهب بها،

أسرعا خلفه يلحقاه يستوقفاه بإعادتها فيرفض، يُلحان عليه فيأبى، ويُلقيها بعد إطلاق أبي رصاصة من بندقيته الذّكر تحت أقدامه، فيذهب وهو يتأفف، ولم تؤخذ كل هذه المواقف منه إلا أنها مواقف جنونية. تم حبس جليل مرات كثيرة بعد أن انتهى من خدمته العسكرية، إما لحمله سلاح دون ترخيص، أو ضبطه ببعض أنواع المخدرات التي كان يتعاطاها ثم أخذها تجارته، لم يضر جليل أحدًا أبدًا في حياته من قريته أو جيرانه إلا ضرره للناس في بيعه للنباتات المخدرة البانجو، والحشيش. كان جليل مسلمًا ومؤمنًا. لا يترك صلاة الجمعة في المسجد، رغم أن الشرطة تطلبه لكثرة قضاياه، فكان يتمطى حماره من على رحله ويضع بندُقيته أمامه وينطلق حيثما شاء في القرية وأطرافها. فكان يدخل المسجد ببندقيته، ويجلس في آخر المسجد، ويسمع للخطيب، ثم يصلي مع المصلين، ويخرج أولهم، كنت أذهب إلى آخر حقلنا

المزروع الذي ورثته أمي عن أبيها، وضم إليه أبي ورث خالتي.

كان حمار جليل عتيًا عالي الظهر أقوى من كل الحمير، وأضعف من البغل في حجمه، قد جاءه بائع حمير زيع صيته أنه (لص الحمير) فأعجب جليل ودفع ثمنه له يُحذره إن كان قد سرقه، إلا أن الرجل أقسم أنه من تجارته، وبالفعل حدث ما حدَّثت نفس جليل به، حين رأى جليل وهو في خُوصه القصي داخل الأراضي الزراعية، يفصله عن ممشى باقي الأراضي (ترعة) وصلب نخلة كانت طريق العبور لخوصه النائي. والخوص هو زِربية دائما ما تكون وسط الأراضي أو على رأسها، وكثيرًا ما يُصنع من خوص الجريد أو بوص الذرة، أما حماره فكان يقيدهُ أمامه على الضفة الأخرى من الترعة، مما أسهل على صاحبه الأول أن يُعسعس بعد المغرب كي يرى إذا كان هو أم لا، تنبه جليل لحركته يصرخ فيه أن يظهر وإلا أطلق عليه الرصاص.

ظهر الرجل يرتجف منه، وهو الذي زيع صيته بالإجرام عند القرى المجاورة لنا، استقبل جليل الرجل بطمأنينة حينما علم أن قدومه من أجل هذا الحمار الذي سرقه لص الحمير، بعد أن تبين جليل صدق الغريب الذي جاءه من قرية تبعد عن قريتنا ثلاثة آلاف متر، عرض عليه شرائه فوافق الرجل، واشتراه مرة أخرى لحبهِ في ذاك الحمار السريع العتي، ولم يفعل جليل شيئا في لص الحمير إلا أنه أخذ منه ما تبقى حينها، ولم يكن إلا نصف المال، ورضي بأن يشتري الحمار بثمن حمارٍ ونصف.

كانت عادات جليل إذا وجد عُرسًا في القرية جاء لصاحب العرس يُهنئهُ بقضاء واجبه بإطلاق رصاصات الفرح. ولم ينتظر كثيرًا خِيفة القبض عليه من رجال الشرطة، فلم نسمع رصاصات جليل كثيرة إلا وتنبهنا إلى شيء في الأغلب يكون مطاردة الشرطة له، أما باقي طلقاتهِ كانت في خدمة أهل القرية الذين تعودوا على إطلاق طلقته الواحدة في رمضان مع وقت أذان المغرب، حتى إذا انقطعت الكهرباء ولم نسمع المؤذن كنا نُسم ونُفطر على طلقات بندقيته الخارجة على القانون، ظل جليل حياته كلها هكذا، إما سجين أو طريد، إلا في سنواته الأخيرة التي أصابه فيها الكبر وكثرة قضاياه نحو تجارة المخدرات وحمل سلاح بدون ترخيص، فكان يُخير نفسه بين البقاء هاربًا أو الموت دون السجن الذي يعلم أنه لا يليق بلحيتهِ التي أطلقها واختلطت ألوانها من دخان نبات البانجو الذي يشربه، كان جليل قد عرض على أبي أن يُملكه قيراطًا من الأرض الزراعية التي اشتراها أبي من خالتي كي يضمها لميراث أمي الذي ورثته من أبيها، كان أبي يخشى عاقبة جيرته وأبنائه من بعده، وكان أبي صريحًا صادقًا مع جليل الذي لم يغضب من أبي حينها، وكثير من الناس قد نصح جليل في أن يترك ما عليه لأن عاقبته ستؤلم الجميع، حتى رجال الدين في قريتنا ذهبوا إلى جليل يعرضون عليه التوبة، كل من في القرية كان يود الخير لجليل حتى الأطفال، كان الجميع يريد بقاءه ويخشون يومًا لا محالة آتٍ. حينما حدث شيء قد أهان رجال الداخلية من قِبل مجرمين قد أوقفتهم دورية الشرطة، وكان هؤلاء المجرمون مسلحين، فلم يستطيع رجال الأمن

الذين لم يكونوا أكثر من ثلاثة أو أربعة، أن يمسكوا بمجرمين مسلحين ببنادق آلية، ولم يتوقف الأمر على ذلك، وليته توقف، قد سلب المجرمون سلاح الضابط وأمروه بالانبطاح على الأسفلت وإهانته. مما استفز رجال الداخلية ومدرية الأمن التي اتخذت قرارًا بتمشيط وتطهير منطقة جنوب الجيزة، والقبض على المجرمين وغيرهم.

كانت حادثة قد سمعت عنها كل المراكز المجاورة لنا، كانت حملة أمنية قوية تقدمتها القوات الخاصة، في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحًا، جاءت وأيقظتنا أصوات إطلاق النيران الغريبة التي ما تعودنا عليها في هذا الوقت، وإن، فتكن فردية وليست بهذه الكثافة، تم إغلاق القرية على أهلها الذين ذهبوا جميعًا تجاه دائرة المكان الذي يعيش فيه جليل، كنت حينها لم أتجاوز الإثنا عشر عامًا، استيقظت من نومي لكثرة الطلقات النارية وعلى صوت أمي التي كانت متوترة هي وجارتِها، يتناقشان حول عدد الشرطة الكثير وتسليحهم، خرجت من بيتنا دون أن أغسل وجهي أو أفطر، متجهًا إلى بيت عمي عبد الله شيخ البلد الذي كان قريبًا من دائرة الحادثة الخارجية، ورجال الشرطة في الشوارع قد حددوا لأهل القرية موضع توقفهم وعدم الاقتراب.

كان الجميع قد جاء ليسمع خبر هروب جليل إلى مزارع القصب التي خلفه، فلم يكن يومًا سهلا ولا قصيرًا على قريتنا هذا اليوم الذي بدأ فجرًا وانتهى ليلاً بدفن جليل.

كنتُ أشعر أنه مات في تمام الساعة العاشرة صباحًا حينما

رأيت الدموع على جرف مآقي زوج عمتي سعاد شيخ الخفر وهو داخل بيت عمي عبد الله، وبعد همهمات مكتومة بين شيخ الخفر وشيخ البلد عمي عبد الله، وجدت التغير على وجه عمي عبد الله والصمت الذي بدا عليه. فكانت أول من دافعت عن جليل ورفعت السلاح في وجه الشرطة كانت زوجته (صباح)، التي رافقته ثلاثين عامًا.

قَتلَ جليل في صباح هذا اليوم رجل شرطة برتبة نقيب وإصابة جنديين آخرين، قبل أن تسكن رصاصة القناصة رأسه وصدر زوجته صباح، في الوقت الذي هرب فيه أبناؤه جميعًا، ولم يترك أهل القرية جليلاً حتى ذهبوا وراءه إلى مشرحة المركز المجاور لنا الذي وجدت فيه حميد العرب وأخاه سعيد العرب، رأيت الحزن الذي أفحم وجه عمي حميد، صديقه وصديق أبي، لم يكن أبي حينها، متواجدًا في مصر، لكنني كنت متواجدًا لقضاء واجب توديع جليل وزوجته صباح، وكثير من رجال قريتنا يرفضون الرجوع دون جسمان جليل كي يدفنوه.

إن موت جليل ودفنته المهيبة وجسمانه الذي قد تم وضعه في النعش في سيارة عمي عبد الله الذي كان يؤجل كل أعماله وسفر سيارته وقت موت جار أو حبيب في قريتنا، التي كان يقودها العم ناجح، ليحمل المتوفى فيها.

بعد أن وجد المسئولين ما عليه جليل من شعبية، أسرعوا في عمل وإنهاء إجراءات الدفن التي ساعدنا فيها حينها ابن عم مساعد

مدير مديرية أمن الجيزة الذي كان يمثل دائرتنا في مجلس الشعب آن ذاك. والحق أن ظروف موتهِ بهذا الشكل هو وزوجته وهروب أبنائه، جعل كل من في القرية يتعاطف معه ليودعوه، دون وجود أحد من أبنائه الذين خافوا العودة فيُقتلوا، أو يُمسكَ بهم.

والأمر الذي شغل الرأي العام أو الداخلية وأشعرها بالخزي، هي تلك الجنازة الكبيرة التي شملت كل من اتفق مع جليل أو اختلف، فرأيت أيضًا على المقهى الذي بجوار المشرحة، الشيخ خطيب وأيضًا القِس أدمون، الذي كان جالسًا هو وعمي عبد الله وحميد العرب وأخيه سعيد العرب وتم التعارف بين القِس أدمون وسعيد العرب، وكنت أتلصص حولهم حتى رآني عمي عبد الله وأمرني بالجلوس معهم، وطلب لي شايًا، ولم يسألني كيف أتيت أو مع من جئت، فكل أبناء ورجال القرية ينتظرون خروج جليل، كان القِس أدمون يتناوب ذهابًا وإيابًا إلى الكنيسة التي بجوار المشرحة، لكنه كان حريصًا هو والشيخ خطيب على ألا يُطيلوا البقاء مخافة أن ينقدهم أحد وهم رجال دين لتعاطفهم مع تاجر مخدرات مثل جليل، وقد سمعنا هذا نقلا عن مساعد مدير مديرية الأمن حينها الذي كان من عائلة سياسية كبيرة في مركزنا، وهو آسف مما فعلته الداخلية مع جليل، متعجبًا من شعبيته، معترضًا على قتله بين أقربائه، موبخًا رجال الشرطة على قتله دون الإمساك به، حينما علم أن تجارة جليل للمخدرات ليست إلا تجارة ينفق بها على من هم حوله المتمثلين في الفلاحين والشباب

الضالة، كما أنه لم يكن فحلاً في تجارة المخدرات، فكان لا يبيع أكثر من واحد كيلو بانجو في اليوم.

وهن حمار جليل بعد أن فارق ظهرهُ هو وبندقيته، يأبى الطعام، ومكث حزينًا حتى مات بعد عشرة أيام من فراق صديقه الذي صاحبه سنوات.

مات جليل وسبقهُ حماره وقل الأمن الذي كان يُشعرنا به جليل، ويبقى خوف أمي لا زال يترقبني في عدم ذهابي للنيل. فكنا نعلل ذهابنا للنيل والاستحمام في مائه العزب الثقيل، مستشهدين بحديثٍ ضعيف وقيل لنا أيضًا أنه قول عمر رضي الله عنه وأرضاه، الذي كان مكتوبًا على جدران أسوار المدرسة: "علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل".

وما كان خوف أهلينا علينا إلا من آلهة النيل التي ما توقفت عن قربان النجائب في حضنه الذي أرق من حضن الأم، إلا أنه مُغرِق، فكثير من أصدقائنا وجيراننا كبارًا وصغارًا، رجالاً وإناثًا قد اصطفاهم النيل عرائس له بالغرق، وعلى الرغم من كل هذا الحزن الذي أحزاننا النيل به، إلا أننا ما تبنا أبدًا عنه، ونحن صغار للعوم فيه، أو حتى الجلوس على شاطئهِ ونحن كبار، سواءً في حقول بعض الأصدقاء التي تطل على النيل، أو حتى الذهاب للمقاهي البسيطة جدًا الذي أعلى قيمتها هذا الماء الإلهي الذي يجري أمامها، (ما أجمل النيل الذي يمر على شاطئ قريتنا وعتمته اللامعة تشع في عقلي، هذا الهواء البارد يا نيل، يدفئ قلبي حين

نحتسي مع السهراية فنجانا من القهوة سويًا، لا أحد يجعلني أصاب بالزهايمر عن الشقاء إلا أنت يا صديقي. اجعلنا يا صديقي نأنس بالليل الذكوري، الليل الذي ليس فيه أنثى إلا العتمة الخادمة لحضرتنا على شاطئ النسيان). كان موج الماء الثقيل يرتطم في جرف النهر كما يضاجع الرجل زوجته الثمينة.

في كل يومٍ صائف شديد الحرارة كنا نذهب للعوم. لكن الشيء الذي جعلني أتعجب هو كيف كانت أمي تعلم بذهابي للنيل ومعاقبتها إياي وأنا في أشد الحرص في ألا تعلم؟! فكنا بعد أن ننتهي من سباحتنا كنا نرتدي ثيابنا، ونقوم بمسح أيدينا في التراب، ونخلع نعلنا؛ كي تتسخ أقدامنا في التراب؛ كي لا تعلم أمهاتنا.

لكن أمي كانت تعلم. تشُم رائحة النيل في رأسي. نضارة وجهي بعد السباحة ونظافة عنقي. كانت تجعلها تتنبه لما أبدو عليه. غير أنها ابنة أبيها الذي كان يملك أرضًا في باطن البحر، كانت تسمى هكذا لأن النيل كان يجري فيها تحت جسر (طرادي النيل) الذي تم بناؤه قبل بناء السد العالي؛ لحجب ومنع الماء على جانبيه، ولكن بعد بناء السد العالي انحدر الماء إلى مجراه المحدود الذي عليه النيل الآن، فظلت هذه الأراضي رطبة ينشع فيها ماء النيل إذا علا وتجف إذا هبط.

وهذه الأراضي المحسورة بين مجري النيل الحقيقي وجسر طرادي النيل الممتد على طول شاطئ النيل. تُسمى بـ (باطن البحر).

فمياه النيل ليست غريبة الرائحة على أنف أمي، لم أكن طفلاً عاديًا. كانت نفسي شغوفة منذ أن كان عمري ست سنوات أن تجرب أي شيء،

مثل التشبث بالسيارات المارة على الطريق، والركوب على إليتها من الخلف، حتى أخذني السائق ذات مساء وهو لا يدري أن في صندوق السيارة أحدًا متخفيًا. وأبعدني عن القرية مسافة طويلة، أبعد من قريتنا بقرية أخرى. ولا يمكن نسيان سرقة ثمرات المانجو من جنائن الجيران، التي كادت أن تجعل أبي يقتلني بسببها من شدة الضرب الذي كان قاسيًا؛ لأنني سرقت ما هو ليس ملكي وأخذته دون إذن. ولم يكن الأمر متعلقًا أبدًا بوجود الأب مع الأم أو رعاية الأم وحدها لأبنائها، فلم أتب عن أفعالي وإجرامي الذي كنت عليه في وجود حضرتهما. وأكثر المواقف التي واجهت ذاتي وكانت تجربة من أصعب التجارب على طفلٍ بدأها منذ الخامسة إلى أن وصل عمره اثنا عشر عامًا، هي حبي للسرقة.

ما كنت أصدق أن السرقة حرام كما كانوا يقولون لي. ولم أكن أصدق أن السارق سوف يُعذب في النار. وكنت أوقن في نفسي أنهم يُرهبونني كي لا أسرق، ولم أصدق أن أحدًا موجودًا سوف يعاقبني، فقد أخذت دون علم أبي ثلاثة وثلاثين ريالاً سعوديًا، وأبدلتها بثلاثة جنيهات مصرية. كانت قيمة الريال حينها ثمانين قرشًا. فلم ينجُ مني حتى كتاب القراءة الذي أتى به المعلم في نصف العام لزميلي (رأفت)، الذي فقد كتابه الأول، وتم منحه

كتابًا آخر. أعجبتني رائحة ورقاته وصفحاته الجديدة التي تلفت في كتابي.

لكن الموقف الذي غير مجرى أخلاقي، هو ذاك اليوم الذي لا يمكن لي أن أنساه أبدًا وأنا متقدم نحو الصف الثالث الابتدائي، في أول يوم دراسي، حينما أوصت عمتي سعاد ابنها بأن يجلس في جواري بالمقعد ونحن ندرس، إلا أنه اعترض على قول أمه قائلاً لها:

- لا، سوف يسرق مني أغراضي ومستلزماتي.

كانت هذه الكلمات كافية لتصلح هذا اللص المجرم الصغير.

ولم أتب عن السرقة خوفًا من الله الذي ما كنت أصدق أنه موجود حينها، وكنت دائما ما أسأل أين هو؟ فيُشار إلى الأعلى نحو السماء الكبيرة، حتى ظننت أن السماء هي الله، ما كنت أُوقن حينها أن الله أكبر من السموات والكون وما فيه من أجرام.

أيقنت قبل أن يوجب عليا القلم التوبة عن السرقة من أجل هذه الكلمات التي حفرت ثقبًا في كرامتي، وخوف الآخرين من مُقاربتي، لأُقرر في نفسي أن أكون أمينًا، بدعائي إلى الله الذي أيقنت حينها.. أو قررت أن أُجربه في الاستعانة به لنجاتي من هذا العمل. وما أقبل ولا أنجى من دعاء طفل أن يتوب الله عليه! وقد تَمّا أستاذي وخالي صادق توبتي هذه حينما رأى التزامي والتغير الذي بدا على تصرفاتي في القرية كلها وهِدايتي. وقد استطاع خالي صادق أن يحفزني أكثر حينما وقف في طابور الصباح بالمدرسة،

ليأمر كل الطلبة أن يُحيوني بالتصفيق على التزامي وصلاتي التي عكفت على الالتزام فيها. بل ما فعله كان أكبر من ذلك حينما كان ينثر الثقة في روحي بإرسالي ببعض المال لأتسوق له ما يريد أو يطلب مني إحضار بعض الأموال من بعض أدراجه. فكان خالي صادق لديه الفضل حتى في أنه أول من استطاع أن يعلمني القراءة والكتابة، فكان لديه (كُتاب) يُحفظ فيه الأطفال القرآن وحروف الهجاء وكلماتها وأسماء الله الحُسنى. حينما كان يجد درجاتي في فقرة الإملاء ضعيفة لم تزد عن ست درجات من عشر، فقام لي باختبار رأى فيه أنني متفوق وكافأني بأن منحني في الإملاء تسع درجات ونجمة. كانت طريقته التشجيعية لها كبير أثر في بنيتي التعليمية. وقد لاحظ أخيرًا أنني مللت من هذا الكُراس الهجائي حينما كان يقرأ طفل في الكُتاب سورة (ألم نشرح لك صدرك).

وأنا أرددها قبله، بل أخطأ الطفل في الحفظ ولم أخطئ. فأمرني أن آتي غدًا ومعي (جُزء) والجزء هو أحد أجزاء الثلاثين التي هي عدد أجزاء القرآن الكريم، فكان الجزء هو جزء (عمَّ). كنت فرحًا جدًا بأنه قد تمت ترقيتي وحملت جزءًا، لكنني كنت ضعيف الإدراك أو بطيء الحفظ. أذكر أنني مكثت وقتا طويلاً كي أحفظ أصغر سورة في القرآن، لكنها لم تكن أسهل سورة في حفظ القرآن على طفل كان بالأمس القريب قد انتهى من كتابة أسماء الله الحُسنى أكثر من خمس مرات في كُتاب خالي. لم أجد صعوبة في التعليم من قبل المعلمين أو تقصيرًا منهم، إنما أنا من طفولتي وعقلي يثور وينشق الإدراك عني وأستقبل الصوت وآخذ المعرفة دون

إدراك، وأقفل عليها حتى أتمكن من إدراكها غدًا.. أو بعد عام.. أو بعد خمسين. هذا الذي كان يحدث لنا. ولأن الإدراك لا يأتي إلا بالعلم، تأخر الإدراك كثيرًا علينا؛ لأننا لم نتعلم رغم أننا تعلمنا.

كان خالي صادق شغوف القراءة والاطلاع ولديه طريقة إرشادية نفعت أجيالاً قبلي وبعدي، سواء في مدرستنا (مدرسة أحمد عرابي الابتدائية) في قريتنا، أو حتى في إحدى المدارس في دولة الكويت التي سافر إليها إعارة لبضعة أعوام. ولعل حظه السعيد، أو موقفًا حدث معه في مطار القاهرة وهو مسافر إلى الكويت غير مجرى تاريخه بمعاونة أحد كبار دولة الكويت له، حينما وجد طفلاً واقفًا وحيدًا يبكي، إلا أن رباط حذائهِ قد انساب وفُك، فذهب خالي إليه يُطمئنه ويسأله مع من أنت هنا؟ بعد أن ربط لهذا الطفل حذائه، ويراهُ عن بعد أبوه، القنصل الكويتي في مصر.

فكان هذا التلميذ أحد تلاميذ خالي الذي أصر والدهُ على أن يُدرس له هذا الأستاذ الفاضل الذي تدب الرحمة في قلبه، حتى وإن لم يكن هذا التلميذ عندهُ في الصف الدراسي أو من مدرسته.

كان خالي حينما اعتاد هذه البضعة على السفر، قد جاء بهاتف منزلي إلى بيت جدي الذي يسكن فيه هو وجدتي لأمي وزوجته وابنائه وأخيه الأصغر، الذي لم يكن قد تزوج بعد، لم يكن شراؤه للهاتف المنزلي إلا وسيلة تسهيل يطمئن بها على أمه وزوجته وأبنائه وهو في دولة الكويت. لكن سفره هذا قد أفقدني أبًا

آخر كما نقول هنا في هذا المثل الصادق بأن (الخال والد)، بل كان يزودني بأكبر كم من الثقة حينما قرر أن يبني بيتًا جديدًا في أطراف القرية دون هذا البيت العتيق الذي تعدى عمره أكثر من سبعين عام، ولا زال قائمًا بذكريات طفولتي المشاغبة فيه. فكنت متواجدًا مع العمال؛ كي أوفر لهم ما ينقصهم، وأذهب كي آتي به من المؤسسات والمحلات التي تعاقد معها خالي ليُفروا له ما يتطلبه العمال، السباكين والنجارين والنقاشين من مستلزمات التشطيبات.

كانت شقاوتي ورشاقتي في السير واللعب لا تُضاهي أي طفلٍ آخر، فكنت أذهب إلى بيت جدي بعد أن يُصيبني الإرهاق؛ لكي أستريح فيه بين الظهر والعصر في ساعات القيلولة، أيضًا القديسة مرسى جارة جدتي كانت تحبني كثيرًا، وتطلب مني أن تعبث في شعري الانسيابي الذي يشبه شعر أولاد النصارى، كنت أضع رأسي على فخذها وتعبث في شعري، بحجة أن في رأسي شيئًا من الحشرات التي كانت في رءوس كثير من الأطفال، لكني لم أكن كذلك ويرجع الفضل للسوائل التنظيفية التي كان يأتينا بها أبي من الخارج مثل عُلب الشامبو المستوردة وباكتات لصابون اللوكس الذي كان شيئًا يحسدنا على رفاهيته الجيران. كان بيت جدي كبير جدًا قد بني بحجارة الدبش القوية.

كان أول بيتٍ في القرية فيه (مندرة)، كانت عالية عن ما تبقى من البيت. كان أيضًا أول بيتٍ أرضيتهُ من البلاط البني المائل للاحمرار، كانت المندرة كبيره وبها نافذتان طويلتان تشبه نوافذ

القصور والبيوت التراثية، وأنت خارج من المندرة على يمينك تسمع قطرات ماء الزير في وعاء قد شوش عليها زوم الحمام العطش، تجد في الأسفل طرقة تمر منها للباب الوسطاني إلى (الدهليز)، يسمى الباب الوسطاني بهذا الاسم في جميع البيوت الكبيرة؛ لأنه كان يتوسط البيت ويفصله عن المندرة والمدخل، وإذا دخلت من الباب الوسطاني وجدت في وجهك حجرتين، وعن يمينك حوشًا منحدرًا في آخر البيت تنام فيه البهائم ليلها الدافئ. أما الحجرتان فواحدة كانت تجمع كل أغراض البيت، مثل الدقيق وما يحتويه البيت من أطعمة، وكانت هذه مثل المطبخ أو كانت كذلك بالفعل، أما الأخرى فكانت دائمًا مظلمة وكثيرًا ما كنت أرى فيها الأرانب وهي تخرج منها إلى الحوش، وكانت جدتي تصنع فيها الجبن والسمن بعد أن تخُض اللبن لصناعته، في أرضية الدهليز، وأمامه يوجد الدرج الحجري الذي تصعد به إلى الغُرف الكثيرة عن نظيرتها في الأسفل، وكانت واحدة للقمح، وواحدة للتبن الذي هو علف للبهائم، وواحدة لتربية الطيور التي كانت تخرج وتضع بيضها في التِبن.

وكنت أجمعه بعد البحث عنه بعنايه؛ لأنه مخفي ويمكن أن يُكسر إذا وطئته أقدام، وبها غرفتان قد تزوج ودخل فيهما خالي صادق، أما كل هذه الحُجرات فكانت تَطل جميعًا في (الحضير) والحضير هذا هو الذي يأخذك من الأسفل حيثما صعدت أو تتسلق منه على السطوح الأخيرة التي كان لديها سُلم خشبي،

وكانت خزيناً للذرة التي تم حصدها ونشرها في الشمس طول العام، هي والبصل والثوم التي كانت جدتي تُواريهم بأجربة الذرة الجافة؛ كي لا تسلقهم حراره الشمس.

كان في السطوح بلاصان تم صناعة الجبن الحادق بهما، ونسميه الجبن القديم، وهو قديم لأنه من الممكن تخزينه لسنوات،

وكثيرًا ما كنت أرى البلح السيوي منشورًا في الشمس، كان هذا البيت مليء بخيراتٍ كنا نأنفها ولا نعلم قدر خيرها، فمنها صناعة (الكِشك)، وهو عبارة عن قمح يتم تنظيفه من الأتربة بالماء أكثر من خمس مرات، وجدت أمي تفعل ذلك به حينما كانت جدتي تستعين بها لمساعدتها، ثم يتم غليه وطهيه على نار شديدة الحرارة يوضع عليها طشت من الألمنيوم قد تم وضعه على أسافي من الطوب ونسميها بالكانون، وبعد أن يستوي يتم نشره على حصيرة في الشمس كي يجف من الماء ثم يتم عجنه بالمش الأبيض جيدًا (لبن الجميد)، ثم بعد ذلك يتم تقطيعه قطعًا تكبر عن حجم البيضة، فوق حصيرة نظيفه يُحبذ إن كانت جديدة، فحينها لم تصل إليهم مفارش البلاستك الشفاف، ثم يُترك في حرارة الشمس أخيرًا كي يتصلب ويجف، وكانت جدتي تحفزني بأن أجلس جواره طول النهار مقابل أن تعطيني خمسين قرشًا خوفًا من مداعبة القطط والغربان فيه، وكانت هذه الوجبات تُصنع ويتم تخزينها للشتاء كأكلات شتوية، وكان يتم تجهيز أكل الكشك بأسهل الطرق بوضع قرون أو حُبيبات الكِشك في طبق وتضع عليه ماء يجعله

ينساب من جموده ويتفتت، وكان كثير من الناس وأنا من بينهم يشرب هذا الماء الأبيض الذي اختلط بملوحة المش الأبيض الساكن بداخله، ثم يمكنك أكله بطرق متعددة، فمنهم من كان يقلبه على النار بالسمن، ومنهم من كان يضيف إليه البيض مع تقليبه في السمن، ومنهم من كان يأكله كما هو، أما أنا فكنت أقرقشه يابسًا،

وأيضًا جدتي لأبي كان لديها كل هذا الخير، لكنها كانت تُتاجر فيه ونأكل منه، وكان تواجد السمن البلدي في الأرياف له كبير أثر في زيادة أمراض الكبد المتواجدة خمِلة نشطتها الدهون والألبان والجبن واللبن لتواجد نسبة عالية فيه من الكالسيوم الذي يُسبب تجمع الحصى وتصيب الإنسان بحصى الكلى، كذلك مرضى القلب جميعهم أسرف في تناوله الزبدة.

فكل مرضى القلب في قريتنا لم يستخدموا إلا السمن والدهن في طعامهم، الذي برأته الدراسات الطبية مما نُسب إليه من أنه يُصلب الشرايين، وبل تساعد على عدم الإصابة بالسكري، كانت جدتي تطلب من أمي عمل لنا جميعا (فطير مشلتت) بالسمن البلدي على الكانون الذي لم يوقد إلا لعمل الفطير المشلتت أو الرقاق،

والرقاق هو تقريبا من نفس رقائق الفطير لكنه خالي من مس الزبدة عليه، وهو نفس رقائق (الكريب) الآن تقريباً مع اختلاف لون الرقاق في سماره، من رقاق أمي الأبيض ومن أراد تقطيعه

وتقليبه في الزبدة، صح، وصوابٌ إن رششت عليه السُكر في زبدته، كان يُستخدم كخبز أن تأكل به القرنبيط أو تُسخن ما تبقى منه لتُغمسهُ بالطعمية التي كنت أذهب لأشتريها من أم محمد في الصباح زوجة العم سلام، الذي سافر إلى العراق ولم يعد مثله مثل مصطفى العراقي (محمد سلام) كان هو صديق تخت واحد طول الخمس سنوات التي قضيناها في المدرسة الابتدائية، كنا نُحدد أنا وهو التخت المناسب لنا، فكنا نتفق على التخت الثاني أو الثالث في الصف الأوسط الذي على يسارِهِ الفتيات وعن يمينه الصف الأول الذي بجانب الباب، كانت هذه الأوسطية التي كنا نختارها لأنفسنا في التخت هي نفس الأوسطية التي كنا عليها في التعليم، خلف المتفوقين وأمام الخائبين الفشلة، وكان يأتي أولياء أمور التلاميذ تختار موضع جلوس أبنائها فيه؛ اعتقادًا أن الذي يتقدم في التخت الأول سيكون هو أشطر تلميذ في الفصل، وبالفعل أجلسوا التلميذ (عبد الشافي) في المكان الذي اختاره له أبوه، وبعد مرور أسبوع كان هو الوحيد المتفوق في التلاميذ بأنه أفضل تلميذ يمسح السبورة.

كانت البنات في الفصل صفًا واحدًا نصف عدد الأولاد أو أقل قليلاً، وكان جميعنا يعشق ويحب التلميذة المتفوقة حتى وإن كانت ليست جميلة، مثل تلميذة فائقة الجمال لكنها في آخر صف البنات في الجهة المقابلة لعبد الشافي الذي مرت عليه كل الدفعة وهو لا زال في الصف الثالث الابتدائي، لم يتعلم أي كلمة

ولا استطاع أن يكتب او يجيب على أي سؤال سوى كلمة واحدة كان يكتبها ملئ ورقة الإجابة ويكررها حتى ينفد بياض الورقة، وهي كلمة (حمد) حمد، حمد.

كنا نضحك على خيبته، لكننا لم نعي أن حمدهُ عليها خيبنا نحن ذات ظهيرة عن عبد الشافي، بعدما صار يملك مائةً وخمسين فدانًا ومائة بقرة وسيارة نصف نقل، وسيارة خاصة شديدة التحمل قد ورثها عن أبيه الذي ورثها عن أبيه. عبد الشافي ابن أحمد أفندي، لكن الإسراف في القتل حينها قدرَ لأحفاد عبد الشافي أفندي أن يكونوا أغنياء يملكون تبرًا، جهلاء لا يملكون حِبرا.

كان عبد الشافي أفندي الكبير، قد تخرج من كلية الحقوق جامعة الملك فؤاد الأول عام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، وكان خريج كلية الحقوق حينها يعادل المستشار أو من الممكن أن يمنحه الملك البكوية، حتى أن كبار السن في قريتنا كانوا ينظرون إلى عبد الشافي الصغير هو وأبيه ويتعجبون بتقليب أكفهم مما أصبح عليه عبد الشافي الصغير وأبيه أحمد بن عبد الشافي أفندي الذي حمل لقب أبيه هو وابنه عبد الشافي، وتوارث الناس لقب أفندي في عبدالشافي وأبيه أحمد بن عبد الشافي أفندي

كان عبد الشافي أفندي الكبير رجلاً يعلو قدره في زمام بلدتنا، بل وفي المحافظة، هو وأمثاله من حملة شهادات وخريجي كلية الحقوق. تم قتله غليلاً مقابل خادم بسيط قد قتله أحد أقرباء عبد الشافي أفندي، فما كان إلا أنهم ثأروا له بأعظمهم الذي كان عبد

الشافي أفندي، كانت نقطة الشرطة حينها وسط القرية والجميع يمر من أمامها، وأي إنسانٍ يركب دابه كان ينزل من عليها ويترجل السير إلى أن ينتهي بعد نقطة الشرطة احترامًا للمأمور الذي كان يضع مكتبهُ في واجهة الطريق صباح كل يوم، فكان عبد الشافي أفندي، يمتطي حصانه بعد أن عاد من القاهرة، ولم يدرك ما عليه القرية من عادات ليست من عادتها أصلا. لم يتنبه من قدوم مأمور جديد للنقطة.

ركب حصانه رامحًا به على الطريق. لم تتوقف تصافيق حدوات الحصان عن رنتها التي كانت تُجاري رفرفة أجنحة الصقور فوقه. وتُفزِع الأسماك في ماء الترعة، بل كادت أن تُلقح الأشجار رياحه بشرائط من رتبتهِ البهوية، وحينما رأى ذلك المأمور غضب وطلب حضوره من الشاويش الذي نبه المأمور أن هذا عبد الشافي أفندي، يظن الشاويش أن المأمور يعرفه، لكن الشاويش لحِق بعبد الشافي أفندي، ليفهمهُ انزعاج المأمور من ركوبه الخيل هنا، وطلب منه أن المأمور يريد مقابلتك الآن فرجع معه عبد الشافي أفندي، يسحب حصانه يقف أمام المأمور، وقد أخرج من على صدره كارت التخرج الخاص به، ويقدمه للمأمور قائلاً له:

- قد عُرِضَ علي أن أجلس مكانك إلا أنني أبيت، إلا أن أكون فوق ظهر حصاني.

ارتبك المأمور منه بعد أن تأسف له بأنه جديد هنا ولا يعلمه جيدًا.

كان هذا عبد الشافي أفندي الذي قُتل وحيدًا قتلَ إسراف وترك كل هذه التركة لابنه الوحيد الذي أنجب ابنه الوحيد أيضًا عبد الشافي أفندي الصغير. لم يتبقَ من الثلاثمائة فدان سوى ما ورثه عبد الشافي الصغير من أبيه الذي أهدر تركه أبيه في بيعها أو ربما تقسيمها على الفلاحين بعد القضاء على الإقطاعيين قُبيل ثورة الثالث والعشرين من يوليو لمنتصف القرن الماضي. ويبدو أن التركة التي تركها عبد الشافي أفندي يومًا ما ستكون وحيدة مثل الابن والأب والجد

لم نرَ شيئا من مكانة عبد الشافي أفندي الكبير إلا في الصورة التي ملأت حائط حفيده عبد الشافي الصغير، وهو في أوج زهوِهِ فوق حصانه، كأنه مدرب خيول قد شد وثاقه ليبدأ مراوضة خيله.

وكنا إذا تناقشنا مع آبائنا نحو مقتله مقابل خادم وأن هذا إسرافٌ في القتل حيث أن من شروط القصاص الحر بالحر، رد علينا عمي عبد الله شيخ البلد بأن ملوك الخادم أكرموه معللين يتحججون بمَثلهم الذي رواهُ لنا عمي عبد الله، عن أبيه عن جدهِ الذي قال له:

يا بني (أكرم ثلاثا،

المزين (الحلاق)

والمراكبي

وخادمك،

أما إن أكرمت المزين، ظل يثني على كرمك وجودك فوق رؤوس كل من جاءوا ليحلقوا رؤوسهم، تحت يَديه، والمراكبي، لأنك إذا أكرمته ينزل من قاربه تغوص أرجله في الماء يحملك ويُنزلك على الشاطئ كي لا تبتل ثيابك، لأن القارب كان لا يرسو قرب الشاطئ ابتعادا عن الطين الذي يُعرقل القارب.

فقلنا: والخادم يا عماه؟

فقال: وكيف تكون سيدهُ إن لم تكرمه؟

كانت هذه حكمة منهم. لكن المتشددين وجدوا أنها حكمة جاهلية تُعارض ما جاء به الشرع، فكنا لا نبالي وندعو الله ألا يضعنا في مكانة مسلوبٍ أو آخذ،

سيما بعد خروج الناس من هذه المفاجأة التي كانت قيامة صغيرة. التي كانت حديثة عهدٍ بنا أو رآها صغيرنا الذي كنت أحدهم دون إدراك كامل لمجريات الحدث، أو كبير قد أدرك ذلك.

كنت حينها لم أبلغ من العمر خمسة أعوام أتذكر أمام منزلنا في هذه البركة التي شهدت أحداثا تُعد من تاريخ القرية غريبة العادات، رأيت بعدما تم إنقاذي من تحت أنقاض السلم الحجري على يد أبي وأخذني مسرعًا وألقى بي وسط الشارع. دماءٌ تتناثر من صرخات النساء وحشر مهيب وتشرد منتحل في عقول مُتشتتة، وبعد ساعة من تجمع الأشلاء، هدأ بعض الفطناء وذهب من ذهب مسرعًا إلى الوحدة الصحية التي لم تكن حينها على قدر

يتناسب مع استقبال ضحية واحدة صدمتها سيارة، وليست ضحايا زلزال بقوة ٦ ريختر، هذا أفظع مشهدٍ رأيته طيلة عمري القصير، والكل في زهولٍ ولم ينطقوا إلا بصرخاتٍ أسكتتها، لا إله إلا الله، لم يفطن ولم يعي إلا القلائل أمثال أبي أن هذا زلزال، فلم تكن الزلازل مألوفة على أحدهم، كان أبي قد شك في ذلك لكثرة متابعته نشرات الأخبار العالمية التي كانت تطلقها إذاعة الشرق الأوسط، وإذاعة صوت العرب، غير التقدم الفضائي التي كانت عليه المملكة، وما تبثه من قنوات إخبارية وترفيهية لدوامة الطويل فيها، وبعد هدوء الجميع راح من لديه ثقافة يبحث عن راديو داخل منزله بكل حذر ورعب يدخل خطوة ويتراجع مثلها، وبعدما أنجز مهمته بسلام راح يسمع الجميع شيئا يهديهم طريق النجاة في الساعات القادمة.

وها هم رجال الإعلام يرشدون الشعب أن يتوخوا الحذر؛ لأن للزلزال توابع قد تحدث، فذهب الجميع الى الحقول الفسيحة المجاورة لسكنات القرية يفترشون الطمأنينة المذعورة ويتلحفون عند الفجر الندى الساقط من بين عسيب النخيل الحارث لهم، لون السماء مع لون الأرض الخضراء مع عتمة الليل أشبه بليلٍ في قاع المحيط يضاءُ باللؤلؤ والصدف واسماك النور.

ومن الأشياء المضحكة رغم الأسى الذي عاشته القرية حينها أنه كان يوجد في قريتنا موظف يعمل في شركة الغزل والنسيج ذهب ليُصلي العصر وكانت حافلة الشركة تأتي وقت الصلاة، وكان

الموظف مشغولاً بالحافلة، فحين أقاموا الصلاة ودخلوا فيها جميعًا سمع العامل صوت الحافلة خارج المسجد، فقطع صلاته وخرج يجري مسرعًا مخافة أن تتركه الحافلة، وكل من في المسجد يصلون. خرجوا خلفه يتعقبونه يظنون أن هذا زلزال آخر أو حتى توابعه.

قريتنا ليست قرية ريفية الكلية في عاداتها، فالمدنية قد احتلتها من كل جانب عدا الجهة الشمالية الغربية التي يجري النيل عليها، على الشاطئ الغربي تمر القطارات الذاهبة إلى القاهرة أو الآتية إلى الصعيد. القرية صغيرة بيوتاتها مصفوفة على جانبي ممشى اسمه ممشى الكافور. سمي بهذا الاسم لأن موضع البيوت التي تم بناؤها مؤخرًا كانت مزروعة كافورًا لجد القاضي الذي قُضي عليه لأنه إقطاعي. ووزعت أراضيه على الفلاحين، لتمر الأعوام ويبقى حالها هكذا ممشى البيوت المؤدية إلى النيل، وليس ممشى الكافور.

ولعل حادثة الزلزال هذه ما جعلتنا نسمع دائما بعدها بسنوات كثيرة إرشادات المعلمين لنا في المدرسة وكيفية التعامل معها عند حدوثها بأن يختبئ التلاميذ تحت التخت، فكنت دائما أنا وصديق طفولتي محمد ما كنا نجرب ذلك ببيان نستبينهُ بنفسنا حينما كنا ننزل أسفل التختة وننظر للمكان المكشوف ونحدد مواضعنا جيدًا. لكن مع مرور الوقت نسي الجميع تدريجيًا حتى المعلمين علينا، نسوا مثلنا بعد أن أَمِنَ الماكرون مكر الله، كان

صديقي محمد أقصر مني في الطول ظللنا بجوار بعضنا البعض خمس سنوات، حتى ظن أصدقاؤنا أنه أخي الصغير. فكان إذا فعل فيهم محمد شيئا يُضايقهم جاءوا يشكوه إلي بأن أصرف اخي الصغير عنهم. فكانت معنا من الفتيات صفاء ابنة جليل الذي انتهت من دراستها الابتدائية وتزوجت مبكرة، ولم تمل نفسي أو جوارحي إلى صمتها الذي كان يخافه الصغار الغرباء، الذين حُفر في أذهانهم إجرام أبيها جليل صديق أبي المشاغب، لكن روحي مالت ل زينب الفتاة الرائقة الملامح التي عشقت طيبتها، وكانت تُطعمني من وجبتها التي كانت تصرفها لنا وزارة التربية والتعليم، وكانت كثيرًا ما تكون وجبة من البيض والخبز وقطع الجبن المثلثة، أو تكون من البسكوت الحلو الذي كان حشوه الكريمة البيضاء. وما كنت أظن أن ما حدث لصفاء ابنة جليل سوف يلحق بحبيبتي زينب التي تزوجت وأنا في الصف الثاني الإعدادي.

(وأنا صغير أبدًا ما تَلهفت على لُعبة. وفي نفس الوقت أريدها، لكن الصبر كان السبيلُ إلى أن آخُذ كُل اللعب. بعد ملل إخوتي من هذا اللهو.

كانت جميعها تَقع في جلبابي. حتى هِمتُ طِفلة حقيقية بها روح فَعلمتُ أنني لا أُهْدانِيها إلا بالصبر.

فَصبرتْ ولم يَعدل إليها حَظي الصبور.

وكأنَ المعادلة الفرضية تُعاند معي وحين كبرت عِلمت بأنَ حقي لن أَمّتلكهْ بالصبر إلا في اللعبِ فقط).

ولم يكن هذا البعد الذي يُصيبني شيئا فشيئا متوقفا إلى هذا الحد، بل، بُلت طينتي أكثر حينما رحل عني صديقي محمد لفصلٍ آخر نظرًا لبُعد أبجديتهُ عن أبجديتي، ولا يمكنني نسيان نظرة المعلم لي ووجهه المقتظ وهو نافر مني! لأنهم جاءوا يستأذنونه كي أرى أبي الذي وصل حالاً من السفر، مُتهللا أنا، مُتحججًا هو بأن أراه بعد انتهاء اليوم الدراسي، إلا أنني بكيت. وضحكت حينما وافق وتركني أذهب، أسرعت أسأل ابن عمي الكبير بدر الذي جاء ليصحبني، عن الذي جاء به أبي من السعودية. وهو يقول لي حقائب كثيرةٌ وكبيرة جدًا، كان أبي دائم وكثير اصطحاب الحقائب الكثيرة التي مُلئت جميعها هدايا، حتى أنه لم يأتِ مرةً بتاكسي، إنما كان يأتي من الميناء بسيارة نصف نقل لكثرة أغراضه التي كان يوزعها على الأصحاب والأقارب، وكأنه تاجر وليس عامل، كان يتاجر في الخير بهداياه، قد كان يوزع هدايا أكثر من بابا نويل في بداية كل عام، كان يأتي بالشيلان البيضاء التي كانت تُلبس تحت العقال الخليجي، غير أن آخذيها كانوا يتعممون بها دون وضعها حرة على الرأس مثل العرب، وكان يأتي بالأقمشة الخام ويوزعها على أحبابه لُيفصلها كلٌ منهم جلبابًا، كما اعتدنا منه على التفاح الأحمر الذي كان يأتي به في كارتونة كبيرة منظمة لتعبئة التفاح كان وزنها يقارب الخمسين كيلوغرام، والشاي ذي حبات الخرز وصفائح العصائر، وقمر الدين والبهارات، والمكسرات اليامشية لشهر رمضان المبارك.

وقد أثارت الجدل العباءة الخليجية التي اشتراها لأختي (نسرين) حينها التي كان ثمنها مائة ﷼ سعودي، وقتما كانت العشرون جنيهًا تشتري مثلها من مصر، كان كل هذا البزخ الطائي تجربةً لم يوجد هناك جيلا قبل أبي يتعلمون منه كيفية الحفاظ على المال الذي يأتي من بين أحضان اللهب المشتعل تحت شمس الخليج. وتساءلت كثيرًا: لماذا كان يفعل كل هذا ويأتي بهدايا لكل أقربائه بكل المال الذي رزقه الله به؟

ولم يتوقف كرمه هذا هنا حينما يأتي بهداياه، فلم أنسَ بحث (الحاجة وجيدة) عني كي تُعطيني جلبابًا أبيض وطقية بيضاء، جاءت بهما من الحج، وأرادت أن ترد جميل أبي الذي التقى بها هناك عند الكعبة المشرفة، وساعدها في قضاء مناسكها وأسهل عليها قضاء الفرض. دخلت مسرعًا بيتنا كي أرى أبي في الصالة التي كان متجمع فيها رجلان غريبان لم أعرفهما، كانا السائق وتابعه، فتشت في الوجوه:

- أبي، أين أبي؟

فأشارَ لي عمي عبد الله وعمي ناجح سائق سيارة عمي عبد الله النصف نقل، بأنهُ في الداخل يغسل يديه. ألقيت بحقيبتي وأسرعت إلى الداخل وسط النساء اللاتي كانت فيهن أمي وجدتي وعمتي سعاد ليُقابلني أبي قافزًا على صدره متعلقًا في عنقهِ فرحًا وأبي كذلك.

(لن يتذوق المرء لذاذة الأحضان إلا عند احتضان والديه وهو طفلٌ، وأبنائهِ حينما يكبر، أما ما بينهما فهي أحضانٌ مليئة بكل شيء، إلا البراءة والعذرية، فحضن الصديق فيه تقبيلٌ للخد، وحضن الحبيب فيه رائحة الورد، وحضن الغريب حصوله كد، جميعها أحضان قد تكون لذيذة، لكنها ليست خالية من همٍ يُصاحبها، إلا احتضانك لأطفالك، يُجرد منك الهم والغم، ويمنحهم النعيم والرقة).

تبكي جدتي وعمتي سعاد، يُطلقان الدعوات لأبي بألا يغيب عنا ويُطيل عمره.

كانت رائحة بيتنا رائعة من كثرة الحقائب المعبئة بالروائح العبقة، كنت أحب قدوم أبي كي أشتم روائح ما جاء به، ويظل بيتنا ثلاثة أيام يتوافد عليه الصحب والأقارب؛ لزيارة أبي، الذي كان يأتي بهدايا كثيرة، كانت تكفي الجميع، نساءً من أخواته وزوجات أعمامي ورجالاً أيضًا. كانت أمي تُقسم الهدايا أكياسا أكياسا، وتعقدها وترسلني بها واحدة تلو الأخرى إلى نساء أعمامي التي كان بداخلها قمصان مرود سوداء كانت الزي الرسمي للنساء في قريتنا، وأي شيء آخر معها مثل صابونتين ماركة (لوكس)، أو قارورة زيت (أملا) للشعر، أو حتى زيوت حبة البركة التي كانت أمي تضعها على مشروب الحلبة الصفراء.

لتقويه جهاز المناعة، كانت تسمى قميص لكنه جلباب أسود اعتادت كل نساء القرية ارتداءه، كان يُفصل بكرانيش حول القلادة،

واسعًا من تحت الصدر حتى الأقدام، أكمامه تُطرز من عند المعصم بأساور أستيكية مطاطة، سهلة النزع عند الخلع ومُحكمة على المعصم لا تُسحب إلى الأعلى إلا إذا أراد لابسها تشميرها.

كان أبي أيضًا يأتينا بثياب العيد الذي كان قريبًا من موعد قدومه في آخر شهر شعبان. كان دائم الاصطحاب بالتسجيلات التي كنا نستخدمها بتسجيل شريط له، أو سماع شريطهُ المسجل، أو إرسال الرد عليه عبر فرع البريد المصري في قريتنا الذي احتفظ بعنوان إقامة أبي بالخارج، فقط كنا نرسل الخطابات والأظرف لهم ونقول لموظفي البريد إننا نريد إرسالها لأبي،

سافر أبي دول متعددة، منها العراق والأردن والمملكة العربية السعودية ودولة ليبيا، ليس وحده، فكان كثير من رجال بلدتنا قد سافر للعراق، أمثال العم ناجح سائق سيارة عمي عبد الله، ومصطفى العراقي، كثيرًا ما كان يأتي العم ناجح يودع أبي وهو مسافر هو وأصدقاؤه المعماريون أصحاب الطائفة، مثل أيضًا العم عكوش الذي كان يعمل بناء، ومنير الخياط. ويكثرون من المزاح ليلة سفره، يتحدثون عن كل شيء أمام التلفاز الملون الذي لم يكن غيره ملونًا في حَينا، وهم يسمعون ويشاهدون الأخبار العربية التي كان يقدمها المذيع المشهور من رام لله أو القدس (خميس أبو العافية) مراسل التلفزيون المصري، يضحكون على أسلوبه طورًا وطورًا يُبكيهم على رصد طلقات الرصاص ورصد الصور التي ظهر فيها حينها محمد الدرة شهيدًا في حجر أبيه، كانوا يترجمون

الحدث في بيتنا وكنت لا أعي تقارير التليفزيون الثقيلة على عقلي، فكنت لم أتجاوز حينها العاشرة، كانت ديمقراطية الرأي في البيوت سائدة، وكانوا يتكلمون في كل شيء، لم تكن البيوتات وحدها هي التي تتحدث عن بشاعة وإجرام القوات الإسرائيلية، أيضًا في نشرة الإذاعة المدرسية والكلمة والأناشيد التي كانت تُآزر الشعب الفلسطيني، كان جميع الشعب يحب (عمرو موسي) وزير خارجية مصر حينها (وكمال الجنزوري). وظللنا عمرنا ننتظر الحرب التي يتم فيها تحرير بيت المقدس من أيدي مرتزقة أمريكا، كانت هذه الفترات هي من صنعت لنا رأيًا في هذه القضية العربية، ولم يحكر أحد من الحكومة المصرية رأي الشباب في الجامعات حينما كانوا يخرجون في المظاهرات يرفضون التطبيع الذي كان يتم تحديثه كل فترة، حتى وصل الآن إلى ما أسموه بـ (صفقة القرن). كان جميع الشعب يهتم لأمر الفلسطينيين كأنها قطعة مصرية، حتى مسيحيي مصر، كانوا أشد كرهًا لليهود الذين يتسببون لهم في عدم القدرة على الذهاب الى بيت المقدس كي يزوروا محراب مريم العذراء عليها وعلى ابنها السلام، ويقدسوا مثلما يحج المسلمون الكعبة.

رأيت ذلك في عين منير الخياط الذي كان جالسًا معهم، وكأنه يريد البكاء ويمنعه شيء ما.

كانت أمي تُجهز لأبي أطعمة تليق بسفره، وتتحمل الطريق، مثل الخبز اليابس الذي كانت تُلدنه في الفرن، واللحم المحمر بالزبدة وتُحكمه جيدًا، وأيضًا الكشك اليابس الذي يظل شهورًا ولا

يفسد، وأيضًا علبة كانت تضع فيها الجبن الحادق الذي يمكن تخزينه لشهور، وكنت أُودع أبي بُصراخ المفارق، وأتوسل له أن يأخذني معه، كنت أظن الأمر سهلاً فكان يُسكتني بجنيهًا، وينطلق إلى بلاد اللهب، كي يمارس شقاءه الجسدي والقدري الذي أوقعه صدفةً في نوار العاشقة لذهبية شاربه، وخجل وجهه.

لن يكون الليل قصيرًا على أبي وهو في سُكره من أكل اللحم المخلل في خمر نوار، بدا ذلك في ترنحه وهلوسته بأشياء كثيرة، راح ينطقها في الرَبع المسكون بقرائن نوار، ويتذكر صديقه (مصطفي العراقي). لم يكن مصطفى العراقي عراقيًا، ولكن كان مصريًا من قريتنا، طلب منه أبي أن يأتي معه ليذهبا إلى مصر في ظل الحرب الأخوية التي دقت طبولها بين طائفتين عربيتين كانتا العراق والكويت، إلا أن مصطفى العراقي رفض أن يترك استثماراته التي جَهدَ على بنائها سنوات، وأيضًا كان يُهرتل بصوتٍ مرتفع وكأنه يرى شبحًا يُراوده عن نفسه، وأبي يَسبه، ويقول له:

- لن آتي معك وإن أهديتني ما فوق الأُفق،

لن آتي معك حتى مع الله تتفق،

على أن تسجد لآدم يا ابن النار

وتقبل أقدام حواء عند الغسق،

وغط في نومه تراقب نوار ما كان عليه من سُكر، تجلس بعيدًا عنه لا تتركه كأنها ترافقه للعناية بصحته.

تنام نوار على مقعدها نوم الحُراس تُغمض ولا تغط، يفزعها فزع النائم وهو يقول:

- القِرده،

ظنت نوار أنه رأى حلمًا فيه قِرده، وهذا شيء طبيعي على سكان المكان الذين اعتادوا تواجد القرود، ولكن شيئا في صدر نوار قد أقلقها، غير أنها اعتبرت أبي صاحب كرامة كما نقول، نطلق في مصر ذلك على الأتقياء، وتذكرت أيضًا باديس.

وفي الصباح التقت نوار بجبريل الذي استيقظ لتوه، وقصت له ما كان عليه مُصابها، طالبةً منه الاطمئنان عليه ومعرفة ما الذي رآه في منامه، قبل أن يذهب ليصطحب صديق أبي (صبري المنياوي)، الذي يسكن معه في مكان واحد.

وبالفعل حاول جبريل بطريقةِ أن يُخرج ما في جوف أبي، وهل أزعجه شيء في منامه، فقص عليه أنه رأى قرودًا تجلس وتسمع عزف نوار.

ضحك جبريل يؤكد عليه أن نوار يمكنها أن ترقص، لكنها ليست بارعة في العزف، إلا على الآلات النفخية المتواضعة مثل الناي.

خرج جبريل من الرَبع ذاهبًا إلى المقهى كي يأتي بصديق أبي صبري المنياوي، وقبل خروجه التقى بنوار باسمًا يقول لها: إنها أضغاث سَكارى، مضيفًا لها ما قاله له أبي.

سمعت نوار ذلك وأشاحت بكفها في وجه جبريل وأغمضت عينيها كأنها تتجسس من أقطاب السماء. فزع جبريل منها فهو يعلمها جيدًا، فهي لا تفعل ذلك إلا في الأمور العصيبة، فقد فعلتها سابقا لتتنبأ عن مكان باديس لكنها فشلت في ذلك.

فتحت نوار عينيها تُدلك رأسها بإبهامها والوُسطى، تفيقُ مما كانت عليه كأنها مسحورة، والقلق على وجهها. تأمر جبريل أن يأتيها بعدد من العمال مع صديق الرَائي، لم تهدأ نوار بعد خروجها، ومكثت تفكر وهي تتحرك خارج المنزل وتنظر إلى رؤوس الجبال وتُدقق في سهولها وتنظر إلى أشجار البن الخولاني وإلى سُباطة الموز وتجري وسط الحقول تستكشف وتَعسُ بأصابعها أصابع الموز الساجدة صفوفًا، على سُباطتها، وتَدرُ بكفها بزا من بزوز البن، اخذت منه بعدد حصى الرجم أو أقل، رجعت إلى البيت كأنها طفلة كانت تلعب في الشمس، دخلت باسمة تنظر إليه تَرجمهُ باختلاس بحبات البن الخولاني مُحمرة الوجه وقد تحرش غصن بخصلتها، بدا ذلك من قطع الورق الخضراء التي عَلِقت في شعرها متسخا زراعيها وطرف عباءتها.

كان يمسح ساقها من الأتربة العرقة فوق كعبها، فكرت في أن تتحدث معه.

لكنها لم تجرؤ، فتحت التلفاز وجلست على جانبه بعيدًا مقدار زراعين أو أكثر، ولم تهتم بالتلفاز، هي فقط تود الجلوس، حبذا أن تتكلم ويكلمها.

كانت الساعة السادسة صباحًا، وهذا التوقيت ليس باكرًا في بلدٍ شديد الحرارة، حيث أن العمال في جميع الشركات والمؤسسات كان دوام عملهم قد يبدأ من قبل الفجر وينتهي في تمام العاشرة، ثم يأخذون الراحة تحت المكيفات أو في الظل باقي النهار حتى تبرد الشمس في تمام الخامسة، ثم يُكملون عملهم للسابعة مساء، ثم ينتهي يوم عملهم، وكانت هذه شروط قانون العمل لحماية العاملين من أشعة الشمس الحامية على رؤوسهم، عدا من يمارسون أعمالهم في الظل، مثل مهنيي التشطيبات الداخلية.

أما الحدادون والنجارون والبناءون فكثيرا ما يكونون عُرضةً لضربات الشمس التي قد تؤدي بصاحبها للحُمى إن لم يكن الموت.

استيقظت دونكا من نومها وجاءت تُكمله في حضن نوار العَرِق وثوبها المبتل الأطراف من نداوي الشجر.

وراحت تتحدث نوار مع الصامت تأخذ ابنتها دونكا حائلاً في التلقيح والتلميح والاستفهام، مثل الحديث مع دونكا عن صمتها، والمزاح معها..

- يا صمتاء.

لماذا أنت بعيدة؟

لماذا لا تُجيبينني؟

وتضحك وتحضن دونكا بعنفوانٍ رقيق،

وتنظر إلى صَنمها المعبود وتبكي:

- لا تحزني مني فأنا لم أبغض أحدًا على أفعاله معي،

- فأنا فقط لا أحب أن أهان أكثر من ذلك،

- لا أحب الكذب، ولذلك أخشى الأسئلة، أتركها فارغة؛ كي يملأها المشعرون، أعشق الصيام والعزلة، ومن تعود الصوم لا يمل من الانتظار، ومن تعود العزلة لا يؤلمه البعد.

- ولن أمل البحث ما دمت ساعيًا.

تبسمت تستطعم درر الدمع الجارية لشفاهها الجافة، وبماذا تريدُ أن نملأها؟

أفسد عليها بسمتها جبريل الذي دخل بصبري المنياوي وثلاثة عمال معه بالخارج.

قامت من مجلسها فور دخول المنياوي على أبي، يلمح ظهرها عند دخولها للمنزل، تستتر كي ترى رد فعل صديقه الذي أزعج الأثاث بصوته المرتفع باحتضان صديقه المصاب، يسأله عن سبب ما هو عليه، فيطمئنه أبي أنه بخير، وقد صنع له حيلة بأنه لم يتفق مع أحد المواطنين على العمل الذي أراد أن يدفع فيه نصف تكلفته، وفي عودته لقطع الطريق مترجلاً صدمته سيارة رحمته حينما صدمته بجانبها، ولم يتوقف سائقها، ليجدني جبريل السائق الوقور وجاء بي إلى بيت سيدته.

سمع صبري المنياوي كلمة سيدته، وقد بشَ ونش على وجهه ذباب الوهم، فلو كان الأمر من أوله قد حدث مع المنياوي لكان متجهًا في هذا التوقيت إلى المطار بثروته التي عرضتها نوار على أبي.

صبري المنياوي طويل القامة، بشرته قمحية، أسنانه باهتة ومُصفرة من المشروبات الساخنة والتدخين، وأيضًا يشرب نبات الحشيش، ولا يُزمر إن وجد خمرًا، وكان هذا حال كثير الصُناع الذي كان أبي منهم قديمًا قبل زواجه، أو فعلا أنهم كانوا يتعاطون المخدرات، يتوهمون عدم حرمتها في وقتٍ كان البؤس واليأس قد ساد بعد عدوانٍ ثلاثي لم تنهض منه مصر، إلا ولاقت مؤامرة بصفعة جديدة تمثلت في احتلال شبه جزيرة سيناء عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، كان الأطفال يُدخنون السجائر اللف من يأس آبائهم، لم يكن المسجد حاضرًا بأسمى أبهته، كما أصبحت عليه الدولة بعد استرداد الأرض المسلوبة، لم تكن الدولة قبل ذلك قائمة بشكلٍ كلي في كل العلوم والثقافات التي جرت في نيلها، علمًا وأدبًا وديناً إلى كل أرجاء الدولة، وهذا ما يخلفه السلام من أمن كي تعود الدولة بقوتها التي ينبغي أن تكون عليها، حتى أن عمي عبد الله قد تحدث عن ذلك بأنهم كانوا يتعاطون المخدرات بسبب وغير سبب حتى ظنوا أنها حلال، حتى جاءهم الشيخ (لبيب) أبو الشيخ خطيب بعد أن حصل على (العالمية)، وجاء بأصول الدين إليهم التي تحرم قياسيًا ما ينطبق على أم الكبائر الخمر، فيعدلون عنها؛ لأنهم علموا فقط أنها حرام، أو غفلوا وتناسوا، حتى تَذكروا وذُكِروا.

أما نحنُ الآن (فلولا أنهم ليسوا آباءنا، لكُنا مثل أبنائنا).

وراح يُمسك المنياوي (المِحكام) يُقلب في لهفة يتأفف من يوم أمس الذي حدث فيه الكثير في غياب أبي، مضيفًا الذي حدث بأديس أبابا بالأمس من محاولة اغتيال الرئيس مبارك هناك.

اعتدل أبي مهتما له يسأله عن بعض التفاصيل. فهو أمرٌ في بالغ الأهمية للغرباء ومعاناتهم في الرجوع إن كانت البلاد قد أصابتها الفوضى، إلا أن المنياوي قد ترك التلفاز على القناة السعودية الأولى.

ومكث يسرد لأبي أخبار محاولة مقتل الرئيس مبارك حين ذهابه لحضور القمة الإفريقية بأديس أبابا التي جهدت على بناء سد النهضة الأثيوبي منذ سنوات طويلة، كان المشهد السياسي قد ربط ذلك بتلك، إلا أن منفذي العملية حينها قد نفتها جنسياتهم السودانية، وظلت التحريات نحو ذلك لتنتهي مؤخرًا بأن الجماعات الإسلامية من القاعدة هي من كانت وراء ذلك.

وأضاف المنياوي استكمال الأخبار الأمسية التي لم يشهدها أبي في ليلته العصيبة في بيت نوار.

أن الشرطة السعودية قد اقتحمت الحي الذي يسكنون فيه، مما أثار الرعب في جوف المغتربين الذين لم تكن لديهم إقامة حينها، مستكفين بسفر العمرة السياحية، ثم الهرب للعمل وكانوا هؤلاء كُثر حينها، إلا أصحاب الفِيز الحرة من أصحاب المهن المتطلبة آن ذاك.

ولكن الشرطة جاءت للقبض على شاب وفتاة تم الإبلاغ عنهما من صاحب العقار المُؤجِر، هو وصديقته المصرية، واصطحبت الشرطة بعض العاملين الجيران الذي كان منهم المنياوي ليتحروا عن هذا البلاغ الذي كانت جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينها لم تحلله شرعًا في المملكة، إلا أن الفتاة قد أمنت نفسها بقولها:

- أنا راقصة باليه.

ليتعجب الضابط المحقق من قولها.

- وماذا يعني ذلك؟ هل هذا يمنع عرضك على الطب الشرعي لتبين ثبوت عذريتك؟

- لا، ولكن من السهل أن تفقد راقصة الباليه عذريتها لمشقة وممارسة اللعبة، من فتح الحوض والحركات الشاقة التي نُعانيها. كما أنني مع صديقي للنقاش معه، فهو رفيقي في أداء العرض الذي جئنا نتدرب على رقصه أول مرة في المملكة، ثم الذهاب إلى (جدة) معه بعد أن رافقني على زيارة أقاربي المقيمين هنا في جازان.

وتم الإفراج عنهما بعد تبين صدق ما قالته، وأيضًا أنها لا زالت عذراء بكر.

فلكل فن معاناة، راقصة الباليه التي تقدم عرضها الكلاسيك الهادئ لتشعر كل من يراها ورقصها بارتياح الروح، هي نفسها من تتمزق من داخلها بكل حب لتُسعِد كل ناظر ذواق.

سمعت ذلك نوار من المنياوي وشعرت أن هؤلاء في عالمٍ غير عالمها بتجاربهم التي وضعتهم فيها الغربة عنوة.

عدلت نوار من هيئتها ودخلت ترحب بضيفِ الضيفِ. وضيفُ الضيفِ ضيف، جلست معهما تأمر جبريل بإحضار الطعام للجميع حتى العمال المنتظرين بالخارج.

وفي جلستها رأت في التلفاز الأخبار التي لم يبالي لها الصديقان. وسائل الإعلام السعودية تتحدث عن الخراب الذي تتركه القردة خلفها منذ يومين بتخريبها الحقول وخروجها من الغابات تعرقل حركة الطرق، في مدينه جازان، وفي طريقها نحو جبل صهاليل الذي تقطن فيه هذه الملكة الساحرة.

قطعت عليهما الحديث في أمر مبارك وراقصة الباليه، تنظر إلى أبي وهي تنبهه بأن القردة سوف تغزونا ربما في الغد، أو بعد غد، وكأنها تطلب منه العون. ليبادلها غير مبالٍ لها بأن تُطعمهم الموز. لتتبسم وتقوم من جلستها مسرعةً نحو جبريل تأمره بأن يأتيها بعمال آخرين لحصد الموز والبن الخولاني، معارضًا جبريل رأيها بأن المحاصيل لم تنضج، وليس هذا أوان حصادها.

تطلب منه ذلك على أن تخبره السبب حينما يعود. أما العمال الذين جاءوا وانتهوا من فطورهم، قد أمرتهم بحصد ما يستطيعون حصده من ثمار البن، فهي لا تحتاج أكثر من مائة كيلو غرام أو أقل من ذلك لبدء معركتها مع القردة، التي لم تقرر في ذاتها ضررهم؛ احترامًا لباديس التي تأمل أن تتقدمهم إلى بيتها الأول.

كانت القردة كثيرة جدًا، قد يصل عددها حينها ما يتعدى عدد جيش الروم في غزوة مؤتة في صدر الإسلام. بالطبع لم تأت كل هذه الجيوش إلى مملكة نوار التي يحلم بها كل قرد لكثرة خيراتها إلا باديس المفارقة لها، ولكن كان عدد القطعان قد يصل إلى خمسين ألف نحوها.

انتظرت نوار جبريل حينما جاء بالعمال ليحصدوا الموز وطلبت منه الذهاب حيث الجنوب، ولم يأتِها إلا بخبر القردة، وأين وصلوا، وأن يترك دونكا هذا اليوم ولا يصحبها إلى دراستها، وأوضحت له أنها تريد توخي الحذر منهم؛ مخافة قساوة باديس عليها،

كانت باديس هي وجيشها العرمرم من قردة البابون على مقربة أربعين كيلو من جبال صهاليل شرق محافظة هروب، لم يعي ذلك جبريل إلا بعد ساعة قد قادها على الطريق يستكشف خبرهم وعددهم؛ كي يعود بعد ساعة أخرى ليأتيها بالخبر الشؤم الذي هابه كل سكان جازان حينها.

ولعل كثرة القردة وتخريبها للمزارع كان من أهم أسبابه هو انقراض الفهد العربي والنمور البرية التي كنت أراها على ماركات البناطيل الجينز التي كان يشتريها لنا أبي من هناك. اصطحاب النمر أو الفهود للحديقة قد جعل القردة سادة الغابات العربية دون أُسدها.

وعند عودة جبريل بخبره المفزع الذي وتر نوار، جعلها تُسرع

في قضاء حصادها، كان جبريل يظن أنها تحصد حفاظًا على المحاصيل، لتأمره أن يأمر العاملين بعد تقطيعهم لسباطات الموز أن ينقعوها في المساقي التي يجري فيها الماء، ثم يُدخلوها إلى المنزل، ثم تأتي بسكاكين صغيرة تُشرطه بغزها كما يتم تشريط البامية. فعلت ذلك بنفسها هي وجبريل، واستعانت بالمنياوي في ذلك بعد أن حملها العمال بالداخل أكثر بالقرب من العيون الخامرة، تُسقط بيدها كل سُباطة في عين خمر من عيونها في آخر البيت، وتتركه على حاله ربما ساعات أو يوم أو أكثر، فالقردة تختار موعد زحفها إما عند الصباح أو بعد العصر لرطوبة الجو في المملكة. فكانت المسافة للوصول إلى مملكتها قد يستغرق يومًا بليلة، أو يومًا بليلة ونهار، فالقردة لا تسير في الشمس طويلاً، وهذا ما يجعلها تقطع مثل هذه المسافة القصيرة في وقت أطول من المترجل باستمرار دون توقف للراحة. وعند العصر طلبت نوار بأن يصعد العمال حاملين قدر استطاعة كل منهم محصول البن الخولاني في أماكن متفرقة، حبذت نوار أن يعلو قدر المستطاع، ثم ينثروها كما يُنثر القمح عند زرعهِ، وأيضًا قدر المستطاع للأعلى بين الصخور النابتة بالعشب والشجر القصير مثل أعشاب المرمرية، والزعتر لعلاج البرد وتوسيع الشعب الهوائية، وأيضًا الحنظل المتعارف عليه لخشونة العظام، وأن يُحددوا مواضعهم التي نثروا فيها ثمار البن، ثم تُكمل في اليوم التالي صباحًا ما يجب فعله، طلبت من جبريل ذلك، بأن يصحب هؤلاء العمال غدًا إلى هنا، ليُكملوا، وأن يصحب معه أيضًا عاملاً فني كهرباء.

وبعد أن انتهت نوار من نهارها الشاق الذي يُشبه أيام الحصاد في الصيف، طلب المنياوي اصطحاب صديقه للسكن الذي يسكنان فيه، صمتت نوار تنظر إلى جبريل تُمليه بزائغتها، فيُفهم جبريل للمنياوي بأن الوقت لا يُناسب لا حالته أو حالتنا كما ترى، استعدادًا وترقب آتٍ يجب علينا التواجد فيه، وكان يقصد أن لو أحد سألهم عن الحادثة سوف يتعرقل هو ونوار لو أرسلت الشرطة استجوابهم. وطلب جبريل من المنياوي المبيت ومرافقة صديقه، معترضًا المنياوي على هذا التقيد الذي هو فيه. تفهم أبي مقصد صديقه أنه يريد المروجات التي تروج عنه في جلوسه على المقهى.

طلب أبي من جبريل إحضار نارجيلة للمنياوي إن وجدت، تبسم جبريل وفهم كيف يجعله يعدل عن الذهاب بأبي إلى سكنهم.

أحضر جبريل (شيشة) كبيرة وبها كل مستلزماتها وإصبعين من الموز المخمور الذي جعل المنياوي يزم في همسه مع أبي على بخل جبريل الذي جاء بواحدتين ولم يأتِ بطبق.

شرع المنياوي في الحديث وهو يُكركر بالشيشة ويتكلم بكل ثقة، وهو واضع ذراعه على ركبته التي ثُنيت بجوار فخذه كما يُطبق ساق البرجل إلى جانب قرينه، وراح يُحدثه عن مرونة الفتاة المصرية التي تقول إنها راقصة باليه. ومكث يضحك على نحافتها وخفة وزنها، وشكل حذائها.

وإن كانت من الأمور الشاقة على كل سيدة هو ارتداء حذاء ذي كعب عالٍ، فما ترتديه راقصات (الباليرينا) يكون أكثر عناءً

لها فتكون مسطحة، ونعولها رقيقة ويتسبب من خلال هذا الحذاء صعوبة انحناء القدم مما يجعلها تتحمل على الأوتار والأوردة والمفاصل، مما يسبب لها آلام الفقرات وانحناء القدم والركبة. ويزداد الأمر سوء كلما تقدمت بالعمر. وبدا لي أن أفضل الأحذية هو ذاك الحذاء الأخضر الذي كانت تلبسه أمي وكل نساء الأرياف.

شبشب بلاستيكي كامل الهيئة بكل صنعته، نعله من البلاستيك المطاط المضغوط قليلاً حتى يُشعرك بالراحة وانت تدوسه، وجههُ مخروطٌ ذو أربعة سيورٍ عريضة مخلوفة، يسقط على النعل يُكبل تعاشيقه الأربع، في أعلاه زُراران، كان إذا تلف أو هلك، يتم شراء غيره، كان كثيرًا وسهل الشراء.

قضم المنياوي قضمة واحدة من أحدهما وظل يشرب ولا ينطق حتى طفأت النار من النارجيلة، وظل أيضًا يُكركر بها دون أن يتنبه لتعطيلها، وأبي ينظر إليه ويضحك.

- هل تسحب من السحاب.

- لا من قعر جهنم.

صدري مشتعل وكأن نبضاته جمر.

ضحك على حالته أبي الذي طلب من جبريل حبيبات من الثلج، فجاء بها جبريل كي يضعها المنياوي على صدره مازحين جميعًا إلا أن المنياوي كان يبلعها، مما أسمع نوار صوت ضحكاتهم المرتفع التي أسعدتها لانبساطهم، فكل بسمة خرجت من فم أبي

كانت تُشعرها بالأمان. فهي في أشد الحرص على قضاء هذه الفترة بسلام.

لم يدر صبري المنياوي ما الذي رنحهُ هكذا، وظن في ذاته أن جبريل وضع شيئا داخل التبغ الذي يشربه في النارجيلة.

جاء المساء وأعد جبريل فراشًا آخر للمنياوي الذي تسلطن من هذه الساعات، لكن نوار تُسلطن نفسها بشيء آخر داخل حجرتها. بعدما نامت ذئبتها دونكا.

هكذا كانت نوار تدللها،

شرعت نوار في طقوسها الغريبة، وراحت تتأمل وتجلس ثابتة دون حراك، وكل وضع تثبت عليه أكثر من عشر دقائق. كانت طورًا تُشكل بإصبعيها الإبهام والسبابة شكل دائرة في اليدين، ثم تسقط برأسها على الأرض وترفع ساقيها للأعلى وزراعيها مُطبقة على صدرها وظهرها يسندهُ الحائط. وظلت هكذا في ممارسة اليوغا، وأخذت كأسها وسقطت في حمامها البارد تسمع الموسيقى الهادئة، وتتأمل مع كل آلة موسيقية بعزفها وتفصل بينهما كما هي شروط طقوس اليوغا شوريا وهي طقوس هندية تُساعد على الاسترخاء وتقوية جهاز المناعة والتطلع إلى الغيبيات كما يزعم أصحاب اللعبة، أو الطقوس الروحية، وهي ما يطلقون عليه اسم (الجلاء البصري)، في ذاك الوقت كان أبي يلعب يوغا أخرى بفتح كتاب القرآن الكبير الذي قال جبريل إنه منذ زمنٍ هنا ولم يفتحه أحد.

كان كتابًا كبيرًا وضعه أبي على حِجرِهِ يمسك أغلفتهِ السميكة بنفس الإصبعين التي شكلت فيهم نوار دائرتيها وهي تلعب يوغتها. انتهت نوار من طقوسها ونامت لا تُفكر في أمسها ولا غدِها. حتى رأت في منامها القردة يصطفون صفين وهي تكشف نهديها ليرضعوا منها واحدا تلو الآخر.

استيقظت في الصباح يملؤها النشاط، تمارس بعض الرياضات الجسدية التي تُفيق العِظام. خلعت كل ثيابها وأحضرت ثيابًا مُحكمة على أعضائها المبرعمة التي لا تمتلكها فتاة في سن الثامنة عشر، لم يستر سروالها المُحكم سوى جزء بسيط من فخذها، تشد حاملة نهديها بقوه، لملمت شعرها بذاك المنديل الأزرق المشرب بدماء جرح بطلها، ولبست عباءة تشبه قمصان راقصات الباليه مشقوقة من الناحيتين، بهما جيبان كبيران، ونزعت من الحائط سوطين من التُحف التي ليس أكثر منها في بيتها، ومسكت بآلة النفخ (المزمار)، وسحبت مقعدها ناحية النافذة، وراحت تُعطي أوامرها لجبريل الذي سألها عن دونكا، لتخبره بأنها لن تذهب أيضًا لدوام دراستها اليوم، وأمرته استكمال العمل، وإخراج سباطات الموز، وأن يأمر العاملين على تفصيصه من السباطات ويجعلوه متفردًا، وأمرته بمراقبتهم كي لا يأكل أحد منه ويحدث له ما حدث للمنياوي. كانت جالسة تشاهد أوجه الجبال من داخل حجرتها، وأعلمت جبريل بوضع أصابع الموز تحت المدرجات الصخرية، ويتم تخبئتها بالقرب من الأماكن التي تم نثر ثمار البن فيها.

كان أمرًا شاقًا على العمال، وليس بالسهل أن تضع في أكبر كم من كل هذه المدرجات ثمار الموز المخمور بوضعٍ يتماشى مع دائرة المدرجات الصخرية التي بينها ثمار البن.

مكث العاملين في فعل ذلك من الصباح حتى الظهيرة. وطلبت من جبريل أن يذهب لاستكشافه الأخير الذي أصبح عليه قطعان القردة الزاحفة نحو جبل صهاليل. وكان وقتًا مناسبًا لجبريل في هذا الحر؛ ليعلم عددهم في ثُباتهم. لم يغب جبريل سوى ساعة ذهابًا إيابًا حتى جاءها في القيلولة مهرولاً يصرخ:

- اقتربوا، اقتربوا، نوار اقتربوا.

سمعته ولم ترد عليه نوار.

طلبت منه أخذ الجريح وصاحبه إلى الأعلى كي تأمنهما إن حدث شيء ليس متوقعًا حدوثه، كفشلها في مراوضتهم، وطلبت منه توصيل الكهرباء بالماء الذي يجري في المساقي وكل ما حول المساقي بين الحقول والجبل، وهذا أمرٌ ليس من الصعب تنفيذه، فكابلات الكهرباء ممتدة على طول الطريق، وهذا ليس إلا تأمينا مؤقتا أو احتياطيا.

علمت نوار أنهم على بعد أقل من مِيلين، وكان هذا وقتا كافيا لتسلقها أعالي الجبال من داخل مملكتها.

هبطت من خِدرها؛ كي تذهب إلى قدرها، كان جبريل يعلم أن ما تفكر به نوار جنونيًا، لكنه كان يتركها لعقلها. كانت تمسك

سوطين قد عقدت طرفهما ببعضهما عُقد استثنائية. كان جميع العاملين ومن فيهم أبي والمنياوي، قد أصابهم ذهول مما بدت عليه هذه المجنونة. الساعة الثالثة عصرًا، في هذا الجو الساخن وهذه تشُد وثاقها للهلاك.

أسقطت مقبضي سوطيها كُل منهما داخل سروالها المُحكم من جانبيها وجههما للأعلى وأطراف السياط المعقودة مُتدلية فوق رأسها للخلف تسقط خلفها تضرب أسفل ظهرها إذا تحركت، وكأنها بين حارسين عن اليمين وعن الشمال لصيق.

وقفت على حافة المساقي وحقول الموز، تعزف لحن (الحاوي) الذي يَحشدُ الثعابين الصفراء على حواف المملكة الخضراء، حتى أن الثعابين السوداء خرجت من بين الصخور تَصطفُ لسماع عزفها الآمر لهم بالوقوف هنا، ويمنعوا أي مغتصب. عزفت لحنها الذي سَكَّن الأفاعي تجاه الجبل يترقبون. ألقت مزمارها، وعبأت جيوبها بثمار البن. لم تكن ثمار البن التي في جيوبها إلا لزومًا وليس إلزاما، وطلبت من العمال الابتعاد عن المساقي لوجود الثعابين، وتوصيل الكهرباء فيها الذي بدأ جبريل العمل عليها فور انطلاقها فوق أصابع أقدام الجبل تتسلقه من جهة اليسار، حيث أعلى مكان يمكنها أن ترى منه خبرهم. ثم يسقط بها هذا العلو بمنحدرات تسقط بك منتصف الجبل من الداخل، ثم تعلو قدر هذا الهبوط إلى الجهة اليُمنى، فكان الجبل في منحدراته يشبه قرني الطور، أو جبهته المثلثية التي تبدأ من أعلى وجنتهِ علوًا ثم هبوطًا بمنتصف

جبهته، ثم علوًا فوق حاجبيه، ثم نزولاً إلى وجنتهِ الأخرى.

وكانت هذه هي الجهة الغربية القبلية التي يمكن للقردة أن تأتي من ناحيتها. لم تكن هذه المغامرة لنوار حفاظا على مملكتها من التخريب أكثر من استعراضها التي قررت فيه حسم بقائها في الحياة. الكل ينظر كأنهم أمام مسابقة تسلق الجبال ينظرون تحقيق الرقم القياسي الذي سوف تحققه نوار بجنونها.

كانت دونكا ترى بُعد أمها شيئًا فشيئًا وتبكي، إلا أن جبريل كان يربت على أكتافها اللينة. وأبي والمنياوي يَطُلان من النافذة العلوية من بيتها. كانت نوار وكأنها مدربة أسود ومتسلقة جبال في آنٍ واحد. كانت تستخدم السوط الأول في ضرب جذور الأشجار الصخرية إذا تعسر عليها أمر الوصول في منحدرٍ خطر في علوها هذا، لم تجلد الشجر بسوطها بل كانت بضربة يلتف السوط على الجزع لتتشبث وتقفز مارة من مسافة هائلة قد هالت صخورها في مواضع الأقدام، ثم تعبر لتبدأ، ومكثت بكل عناية حتى تمكنت من الوقوف على رأس الجبل، تنزع سوطها الثاني الذي ترك مقبضهُ طبعته على فخذها من الخارج، ووقفت تضعُ ساقيها متجهة إلى الناحية البحرية لترى هذا الزحف الذي بدأ بالفعل في التخريب أسفل الجبل الخارجي. أمسكت سوطيها وضربت بهما بكل قوتها على كتفي الجبل وتصرخ بأعالي الصوت تنادي (باديس) كانت الشمس فوق رأسها، وهي تداعب رأس الجبل بأقدامها الحافية، تنبهت البابون لكائنها الأبيض المتمثل في ثوبها الكاشف لساقيها.

أكملت سيرها انحدارًا تستكشف مواضع أقدامها التي سوف تسحب القردة فيه تجاه ثمار البن المنثور من أعلاه وثمرات الموز التي نضجت مرة ونصف من حرارة الجبل والخمر، وراحت تسير طويلاً في منعرجات الجبل، ثم تعود مكانها لترى القطيع يتسلق وقد اقترب من علوها.

بدأت الشمس بالانزواء بعض الشيء وأصبحت تلقي أشعتها على ظهور القردة وهم يتسلقون الجبل من الخارج.

كانت باديس قد أمرتهم بالتسلق لها إلا أن باديس كانت تصعد الجبل من الجهة البحرية المقابلة لنوار.

استغرق الأمر كثيرًا من الوقت، مما جعل نوار وكأنها تستعد بتمويج سياطها الطويلة في مستوى أرض جو كأنهما ثعبانان في الماء.

أول دفعة كان عددها لا يقل عن خمسين قردًا، تواجهوا بنوار أعلى قمة الجبل وحالهم يُرثى له، ليس من صعوبة التسلق وحسب، إنما من عنفوان وجبروت نوار التي بدأت بكل غل تضرب فيهم وتجلد حتى سقط نصفهم. مما استفز بقية القطيع، وكأنها تريد ذلك ليلحقوا بها كي يقتلوها.

فعلت ذلك ونظرت بحماقة للدفعة التالية من القردة التي تقدمهم واحد ليلتف سوط نوار على خصره وتنزعه فيسقط أمامهم من فوق الجبل.

كان هذا كافيًا ليطاردوها أينما تذهب.

وبالفعل ذهبت مسرعة لم تجرِ، ولكنها تقفز قفزات بعيدة أطول من قفزات القردة، وهم يتعقبونها،

وكانت إذا شعرت بانهم سوف يلحقونها، نثرت من جيبها بعض ثمار البن الخولاني، كي يعرقلهم بالتفتيش عن الحبوب التي القتها عليهم وسقطت بين الصخور النابتة..

كان استدراجًا منها لكي توقعهم في صدر الجبل كثير التدريجات، كانت تجري وتقفز في الهواء أفضل من القردة، وإذا لحقوا بها استدارت لهم جاحظة يرفرف سوطاها أمامهم فيخضعوا واقفين، لكن بعض القطعان انشقت عن عصا إخوانهم بالنزول للأسفل ليموتوا صعقا بالكهرباء، وأمهرهم إن قفز للمساقي تحت أشجار الموز، لدغته الثعابين. لكن ذكاء القردة عَدل وجهتهم نحو نوار، التي تُطعمهم بُنا مُرًا، فما كان عليهم إلا أن يختاروا المُر دون الحتف.

استطاعت نوار مجاراتهم ومراوضتهم التي بدأت شرسة، تواجُههم فيقفوا جميعًا خوفًا منهًا، بعد أن اقتربت من شِراكها المصنوع لهم، تُفضي جيبها بالتقدم ليسيروا خلفها يفتشون عن نثرها الذي نثرته، ترقص أمام جمهرتهم الغفيرة، تجري وخلفها يسيرون كأطفال يمسكون بأطراف جلباب أمهم، كانت ترقص حافية لا تقف بقدميها على أسنان أطفال الصخور التي أدمت رقتها، خفيفة الحركة كأنها تَطأ جمرًا، تُخرج حريتها المكبوتة في

جسمها من أسفل قدميها، كراقصة باليه بارعة الإبداع تُغري القردة برشاقتها وساقها التي داعبته ألوان الصخور، ألقت بسياطها، تنزع ثوبها الأبيض، تتراقص وهي حاضنة له. كرقصة صوفي انتهى من (رقصة التنورة).

(ليس من الضروري أن تحتفظ راقصة الباليه بعذريتها، فالمشاعر الحرة تسيلُ منها كل العُقدْ، وعُقد العاهرة تتقيد من خلف ألف سِتار، فليس من العيب أن تكوني راقصةً حرة، على ألا تكوني عاهرةً مقيدة).

كانت باديس في الجهة المقابلة تشاهد رقص صديقتها، وقد أثارها الغضب المشرف برقصها.

استطاعت نوار أن تُلقي بهم في حضن الجبل المنثور بالبن وثمار الموز المخمور الذي كانت القردة تتشاجر على أكلهِ، حتى أنه كان هناك سبع قردة يتنافسون على ثمرة واحدة فأكلوها حتى بقشرها، تجمعت القردة في فوضى، نسوا ما فعلته نوار بهم منذ دقائق، ونوار لا زلت ترقص على ثباتهم، وباديس في الجهة البحرية من منكب الجبل تنظر إلى الغروب آسفة، تبكي على ابنتها التي صدمتها سيارة أحد المواطنين السعوديين على الطريق منذ أعوام قليلة.

كانت نوار خائفة متلهفة على احتضان باديس، حتى وصلت لها بثوبها الأبيض الملطخ باصفرار الصخور، تحمله بين زراعيها كحنو الأم على رضيعها، تكمل رقصها، وباديس تراها بأذنها ولا

تنظر لها، حتى استدارت نوار في وجه باديس على ركبتيها راكعة، وكأنها تقدم لها كفنها الأبيض بعد أن ابعدته عن صدرها، تقدمه تطلب منها العفو، تبكي أقدامها دماءً وعيونها دموعًا، وصدرها عرقًا، التفت باديس بجانبها تفعل مثلها لتكونا راكعتين تجاه الحقول من فوق الجبل، ليُهلل الجميع بما فيهم أبي والمنياوي من الأسفل ينادونها بالملكة، لتقول وهي آسفة جملتها الشهيرة.

(حتي وأنا ملكة، فلستُ ملكةً إلا على قِردة).

فكانت القردة بعد تناول وجبتهم المسلطنة لجوارحهم التي وقف حِراكها، وكأنهم تماثيل مرصوصة، أو حراس تربص، بل مشاهدين أصابتهم السكينة عند تأخر فريقهم في الدقائق الأخيرة من المباراة.

هبطت نوار وبجانبها باديس تتجرد من ثوبها الذي ألقته على أكتافها؛ لتأخذها وسط الحضور، وتُعرفها على دونكا بعدما ألقت باديس التحية على جبريل الذي تعرفه جيدًا بمداعبة بنطاله واحتضان ساقه، وتأخذ إصبع دونكا في فمها، كانت دونكا خائفة، لكن نوار كانت بجانبها باسمة لها بألا تخف.

صعدت نوار وباديس للطابق العلوي وخلفهما جبريل ودونكا، لتقابل ضيوفها وترحب بهم باديس.

كانت نوار تريد بث الثقة والترحاب في نفس باديس، وألا تشعرها بغربتها في المكان الذي جاءتا إليه معًا منذ زمنٍ طويل،

رأت باديس المنياوي ولم تعِ أي اهتمام. تحققت من أبي وصرخت تجري عليه تحضنه وتنظر إلى نوار وكأنها تسألها من الذي فعل به كل هذا!

تعجبت نوار من تعرف باديس عليه، حتى أبي لم يتذكر باديس لكن نوار أكدت أن باديس تعرفه جيدًا، وتحزن عليه، وبعد أن اعتصر أبي ذاكرته، قال لم أتقابل مع قردة إلا في صباح يومٍ توقف الطريق بسبب غضب القردة من اصطدام سيارة لأخيهم، فحمله أبي ووضعه إلى جانب الطريق وزملهُ بورق الجرائد بعد موته.

كانت قد رأت باديس هذا من أبي ذات صباح.

- حتي القِردة أحبوك يا حسن؟!

كانت هذه أول مره تنطق فيها نوار اسم أبي،

نظر المنياوي لأبي ضاحكًا تغيب عنه بعض الحقائق تجاه حادثته، يتفهم أنها ليست اصطدام سيارة كما أخبره أبي.

لم تكن ملامح أبي غريبة على كل راءٍ له بشاربه الذهبي، ووجهه الأحمر، لدى باديس التي اقتربت منه أكثر من قربها لنوار.

- ليتني علمت أنكم صديقين، ما كنت جاهدتُ لكل ذلك.

فيضحك الجميع ليُكمل الضحكات المنياوي بسؤالهِ جبريل:

- هل بقي شيء من ثمار القردة المخمورة؟

كنت قد رأيت المنياوي وأبي في إجازته. كانت أول مرة أراه وأنا ألعب أمام منزلنا يأتي بولدٍ صغير، يسألني وأنا متعجب منه حينما نطق اسمي وهو يسألني عن أبي. ليُصيبني الذهول من هذا الغريب الذي يعرفني دون أن يراني من قبل، ليتبين لي شيئان: أنه عرفني لوجودي في الصور التي كان يلتقطها لنا جارنا حسين المصوراتي في بيتنا كي نرسلها إلى أبي عبر البريد. والشيء الآخر هو شبهي الذي مشفوفٌ من ملامح أبي.

وكان حسين المصوراتي هو الوحيد الذي يعمل في هذا المجال الفوتوغرافي. كان يطلب منا مفرش كبير كي نضعه خلفية على الحائط المطلي بالأسمنت وكِتابات الطباشير التي كنا ننقشها عليه، كي لا يظهر هذا التراث العريق في الصور. مثل أسمائنا العرجاء على الجدران، فكان حسين المصوراتي يتم تقسيم التصوير لأجزاء.

أنا وجدتي وأخي وأخواتي البنات الصغار يتم تصويرنا، وأختي نسرين الكبرى وأمي تمسكان طرفا المفرش المنقوش برسمة الغزال العربي الذي اعتاد كل المسافرون المجيء به من ضمن ذكرياتنا العريقة التي نُسجت في العراق حينها لتُدفئ جدران منزلنا في دقائق من كل عام.

ولكن الطريف في الأمر. أن حسين المصوراتي جارنا، كان يطلب كل هذا. ثم ننتظر الصور لنراها، وإذا بنا والمفرش وأمي وأختي والحائط في الصورة. ولم ندرِ لماذا كان يطلبها طالما سيفعل كل ذلك فيها.

رغم كل هذه البساطات إلا أن أبي استطاع أن يوفر لأُسرة ريفية حياة أُرستقراطية، فشلنا نحن أن نُحيي أطفالنا فيها، لكن اختيار الطريق لأنفسهم كان موفق حتى مع وجود العراقيل مثل عدولهم عن سفرهم للعراق، والتحول إلى المملكة العربية السعودية، إلا الذين رفضوا العودة ولم يعودوا مثل العم سلام ومصطفى العراقي، فما كان على المصريين العاملين على مساعدة ونهضة العراق التي افتقرت الثروة الشبابية بتجنيدهم في الجيش العراقي لحربهم مع إيران، كان لهُ ثمن دفعه الشعبين؛ العراقي المقيم والمصري المغترب، فأعداد المصريين الذين قتلوا وماتوا وتشردوا في العراق تتقارب من أعداد الذين استشهدوا في الجيش العراقي نفسه أمام الجيش الإيراني حينها، لكن بعد انتهاء حربهم ورجوع العراقيين إلى مستوطناتهم وأهليهم، وجدوا أن ليس لهم مكان في الحياة العملية التي سيطر عليها المواطن المصري، بل وصل الأمر أن العم سلام لم يجد عملا في العراق، ففكر أن يأتي بتسجيلات مُسجل عليها خطابات الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي كان العراقيون يحبونهُ رغم وفاته منذ سنوات طويلة، وتم القبض عليه في قضية سياسية من قبل الحكومات العراقية هو وأصدقاؤه، إلا أنهم خرجوا منها بسلام لتبيُن نيتهم وراء كسب المال للقمة العيش. والعجيب في الأمر أيضًا أن الشعب المصري رغم ثقله على قلب الشعب العراقي آن ذاك، إلا أنه كان يحب الرئيس صدام حسين، ولم ينتهِ العجب المناقض في تبادل الحب بين رئيسٍ لشعب، وبين حب شعب لرئيس، وهذا ما وضح لي

مؤخرًا أن جموع المصريين الذين كانوا هناك في العراق بكوا أكثر على موت الرئيس صدام حسين، ولم يبكوا على مصائب شعبها الذي رأى المسافرون حينها، أنهم أكبر متسبب فيها لما أحدثوه من فوضى وخيانة بعضهم للرئيس والدولة. وآسفٌ أن تكون هذه هي الحقيقة التي وجدتها، بل التي خلفها حب الرئيس صدام حسين للمصرين. لكن المصريين لم يتعلموا الدرس، وتُعاد الكرة بذهابهم مجددًا للعراق بعد الحرب مع إيران ليدق الهون عطرًا منشميًا آخر لكنه كان عطرًا تمت صناعته لطائفتين عربيتين كانتا العراق والكويت، كان سببه عطرا آخر. كان يقتل ثاني أكسيد الكربون، وهو الماء الأسود الذي أسرفت فيه الكويت في تصديره للغرب. مما أخفق تصدير النفط لدي العراق وجعله رخيصًا، في هذه المرة كان الأمر ليس سهلاً على المصريين في وجودهم بالعراق في الوقت الذي وقف فيه الجيش المصري مع اشقائهِ الكويتيين، وقد وضح ذلك كل الوضوح في مؤتمر الجامعة العربية الذي عُقد حينها، التي كان يزعمها حكيم العرب بشكلٍ غير مباشر، ولم يكن ذلك إلا درسًا خلقيًا مليء بالحب منه تجاه الأخوين، أو كما قالت العرب (هي حرب لا ناقة فيها أو جمل لكل الدول العربية الشقيقة. فكان كل المراد هو إقامة العدل بوقف الحرب وعرض القضية الاقتصادية للمناقشة، كما أشار إلى هذه الحنكة التي أصبح عليها الشيخ زايد بن نهيان، مُستعينًا بأخيه الرئيس مبارك وبقيه الأخوة في حل النزاع وخروج العراق من الكويت، في هذه المرة عاد كل المصريين تقريباً لبلادهم بعدما تبين لهم عدم الرغبة في وجودهم

من قبل العراقيين الذين كانوا يجدون أنفسهم أصحاب حق على الكويتيين، ليتحول سفر المصريين بالخارج إلى المملكة العربية السعودية والأردن والإمارات العربية المتحدة، وكنت اشمئز بعد عودة أبي نهائيًا إلى مصر حينما كنت أسمع الصحب على مقهى عبد الحليم الذي سافر أيضًا مع العم ناجح ومصطفي العراقي وأبي وغيرهم من رجال قريتنا وهم يجلسون في المقهى الصغير لعبد الحليم، ويقولون جملةً واحدة، بعد غزو العراق الأخير من قبل الولايات المتحدة الأمريكية:

"العراقيين خربوها على أنفسهم".

كان الشعب المصري ينتظر مشاهدة جلسات محاكمة الرئيس صدام حسين، وهم فخورون به ويضحكون له حتى وهو داخل القفص، بينما بكى الجميع على استشهاده ومن بينهم عمي عبد الله وسعيد العرب الذي جاءنا ليُهنئنا بعيد الأضحى المبارك، وأيضًا ليزور ابنتهِ رشا التي أنجبت ولدين أسمتهما عبد الله وسعيد، فهم أحفاد كبيرين في مواضعهما.

وكانوا في أشد الحزن على أنفسهم مما حدث لرئيسٍ عربي ولم يستطيعوا فعل أي شيء.

كان مقهى عبدالحليم مقهى خاصًا بهؤلاء المتمثلين في نخبة القرية الذين ذاع صيتهم على لسان العم ناجح وهو يسرد الذي حدث معهم في العراق، ويذكرون بالتفصيل تجاربهم مع العراقيين، فمنهم مصطفي العراقي الذي سافر إلى هناك للعمل حتى

أنه في بادئ الأمر عمل مُقلمًا للنخيل في العراق، وكانت مهنة أبائهِ في قريتنا مما فتح له باب الخير والرزق لكثرة نخيل العراق التي أبت أن تنحني.

ويذكر العم ناجح هذا ساخرًا ضاحكًا على مصطفي العراقي حينما ذهب للعراق وقد التقى بصاحب بستان قد طلب منه تقليم بستان النخل الذي يملكه، وقبل أن يذهب صاحب البستان لأعماله هو الآخر قال له:

- معك الحسين وعلي.

فمكث مصطفى العراقي مكانه حتى الظهر ولم يعمل حتى جاءه صاحب البستان الذي تبين بعد ذلك أنه شيعي:

- لماذا جالس حتى الآن ولم تبدأ عملك؟

- قلت لي معك الحسين وعلى وأنا في الانتظار ولم يأتني أحد منهما،

تبسم ضاحكًا، وأخذ العراقي يُفهمهُ أنها دعوة له.

- ولمَ لا تقل الله معك؟

وتركه مصطفي العراقي وذهب ولم يعمل له إحراجًا منه،

والآخر الذي سمع هذه الجملة.

معك الحسين وعلي، ليرد هو الآخر ويقول:

- وأنا.

كان العم ناجح يسرد كل هذه التفاصيل فيضحكوا. ويبكوا لعودة الذكرى التي يرونها على شاشة التلفاز، ومدن العراق تسقط مدينة تلو الأخرى في أيادي الجيش الأمريكي،

كما كنت أتضايق من ثقافتهم في اختيارهم بعض المسلسلات الدرامية إما الخليجية أو البدوية التي كنت لا أفهم منها مثل مسلسل الدرامي (نمر بن عدوان) شاعر الحب والوفاء، فكانوا يسمعون ويترجمون الألفاظ ويبتسمون فقط لأنهم يعلمون لهجة هؤلاء. فظل أبي حينما يريد استعجال أحد في العمل ويريد أن يجامله أيضًا يقول له: "أنجا" التي تعني (مرحب) ولم تُستخدم لفظة مرحب هنا بين الصناع وبعضهم البعض إلا أنه ما أراد أن يقوله له إلا: "انجز" العمل مسرعًا، ولعل ألفاظ الكلمتين واحدة ماعدا استبدال الألف بزاي، وربما يقصد بها هناك (شكرًا لك) كما هي في الفارسية التي ربما دخلت على بعض شعوب الأردن.

لكنها تداولت بينهم بهذا المعنى، فلم تجمعهم إلا الذكريات الجميلة أمام هذه النوافذ الفضائية التي انتشرت مؤخرا في مصر.؟

. وأذكر أن يوم زواج أختي نسرين كان يوم الخميس صباح اليوم الأول لغزو أمريكا العراق في عام ألفين وثلاثة، فكان حديث الأهل والمعازيم والجيران في حِنتها ليلة الخميس وصباحه عن هذه الواقعة التي كان ينظرها كل العالم حينها، وعلى رأسهم أصحاب الذكريات فيها، العمال المصريون في قريتنا ليعود بعد عام واحد منها مصطفى العراقي الذي جاء بحقيبة لا يوجد فيها إلا ثيابه

وجهاز فيديو، ولم يبقَ إلا العم سلام الذي علم الجميع مؤخرًا حكايته بأنه تزوج من عراقية وأنجب منها ثلاثة أبناء ولم يستطع العودة لأنها خيرته بين تركهِ لأولاده والذهاب، أو البقاء معها هي والأولاد، فكان في حيرةٍ من أمره، ترك أولادهُ ليرى أولاده، أم يذهب إلى أولاده بترك أولاده؟

فكان يرسل لأولاده النقود إلى مصر بعد فك الورقة الصفراء التي حُظرت سنوات على الحوالات المصرفية آن ذاك، فكان يظهر هذا البؤس واليأس على صديق طفولتي محمد سلام الذي راح يردد مثله الساخر الباكي: "رضينا بالهم والهم لم يرضَ بنا".

ظل لهب البلاد تحت أقدام كل من يطأها، حتى جاء اليوم الذي ألهب الصدور دون الأرض، وهي مشاجرة سلمية بين محمد صديقي ابن العم سلام و أحمد ابن عمي عبد الله، مات فيها أحمد ابن عمي عبد الله حينما تم الزج به في ماء النيل مزاحًا بعد مشاجرة لم تكن النية فيها القتل من قِبل محمد صديقي ابن العم سلام ابن عم أبي، ولم يخرجنا جميعًا من هذه الكارثة إلا حلم عمي عبد الله حينما رأى أبناءه يريدون قتل ابن عمهم في أخيهم، إلا أنه بعد معانةٍ شديدة معهم استطاع أن يصبر نفسه وابناءه على فقد أخيهم بمقولته الشهيرة في مجلس العرف أمام الجميع.

"شرٌ مُقدرٌ قد وقع بنا جميعا، فكيف تُحيون أخيكم بقتل أخيكم، بل استبدلوه بأخيكم كما استبدلني بأبيه الغائب".

فكان محمد قد قتل من كلمات عمي عبد الله، الذي كان يود

لو أن يُقتل فيستريح، حتى أن نفسهُ أخذته للانتحار لعله يجد راحة ضميرِهِ في حتف نفسه، إلا أن أبناء عمومته هَونوا عليه بعدما هونَّ على الجميع عمي عبد الله بمسامحته، كنت في حيرة حينها مثل عمي عبد الله وأبنائهِ على فقد أخينا ومقاربة صديقي الذي هو ابن عمٍ آخر. وهل أقترب منه فيغضب مني أبناء عمي عبد الله، أم أبتعد عنه بقتل نصفي؟

فقد صدقت العرب حينما قالوا: "رُبَّ صديق خير خلف وواحدٍ خيرٌ من ألف". فكنت في حياتي لا آخذ أصدقاء مقربين مثلما فعلت مع واحدٍ وهو محمد ابن العم سلام. فكنت على خلاف أبي في كثرة الصحب الذي ما خاب في اختيارهم، لكن صديقي كان مثل أبي في ذلك، فكان يصطفي وكنت آخذ أصدقاءه أصدقائي، فجاز التعبير أن يكون صديق خير من ألف، لأنه لو صاحب ألف صديق لصاحبتهم، فكنت مبتلى بالقسوة والتسرع وكان يتميز باللين والحلم، وكنت ارتشف منه ما ورثه عن أمه، وكنت قد ورثت عن أمي قساوتها مثل أخوالي، ولعل تربيتنا في غياب أبي كان يُحتم عليها قساوتها معنا، لكنني كنت أعتبر نفسي انني رجل البيت في غياب أبي، بعد الرؤية التي رأتها أمي وقصتها على خالي صادق أخيها في بيتنا وأنا صغير. وهي تقص عليه رؤيتها بأنها كانت في رؤيتها خائفة، وباب البيت مفتوحٌ وهي في أشد الخوف أن تقوم من مقامها وتُغلقه، إلا أنني مددت ذراعي التي كانت تطول وتطول وأنا بعيد لأُغلق لها بابنا.

فنظر إلي حينها خالي صادق وتبسم وقال لها: - سوف يكون عونا في مصاعب كثيرة.

أخذت ذلك من فمه وأردت تطبيقهُ حينما سمعت جدتي تعيد قسمها على أمي بأنها سوف تزوجه (حفيظة)

كنت أسمع ذلك حينها ولم أعلم لماذا حفيظة دون غيرها، غير أني اهتديت لقصتها التي تُشبه قصة جدتي في وفاة زوجها وتربية أولادها وحدها بتجارتها المتعارف عليها حتى الآن من قِبل النساء الشريفات اللائي لم يكن لديهن بُدّ غير الكسب الحلال لإطعامهم حلالاً خالصًا.

كنا حينها جميعًا نحترم المغترب، ونوفر له الراحة وهو في بلدٍ آخر كي لا ينزعج أو يتأثر بأحداثٍ قد تُصيبه بالاكتئاب إذا علمها. ولكنه كان يعلم الذي يحدث دون أن يخبره أحد، أو لم تعمل على ذلك أمي ، لم تكن هنالك بعد الاتصالات الوفيرة حينها إلا تليفون تجاري كان لدى البقال الذي يسكن في الشارع المجاور لنا. وتليفون خالي صادق الذي جاء به مؤخرًا،

أو بعض التسجيلات التي كنا نلملم أنفسنا جميعًا كي يكتمل الشريط لننتظر رده في شريطهِ القادم.

كان الجيران إذا علموا أننا نُسجل شريطًا لأبي، أو كنا نريد تعبئة الشريط عن آخره، كنا نستعين ببعض الجيران المقربين الذين أوصونا بإرسال سلامهم إلى أبي،

فكان من بين هؤلاء العم ياسين والعم كامل وبعض الجيران من كبار السن،

فكانوا يرسلون له السلام بأصواتهم التي مكثنا مرات نسمعها بعد وفاتهم، وأيضًا يطلبون منه ما يريدون، وكان كثير منهم يعاني من آلام المفاصل، فكانوا يطلبون منهُ دهان (أبو فاس) الذي كان معروفًا حينها، وكان المسافرون يأتون به من الخارج، كان اسمه هكذا، أبو فاس وكأنه قد تم تصنيعه للفلاحين الذين تعبوا وعانوا عمرهم في حرث وزراعة أراضيهم، فكان الناس يطلبون منه كل مطالبهم وكان أبي يلبي لهم جميعًا ويأتيهم بما طلبوا، فقد كان كرم أبي كرمًا غبيًا، ليس فيما يتعلق بالمال فقط، وإنما أيضًا في معاملته معهم، وقد وجدت احترام الناس لي لأنني ابن أبي وليس لذاتي،

كان العم ياسين رجلاً صوفيًا يهتم لأمر الصوفيين واتباع طقوسهم، كلٌ منهم حسب طريقته، فكان العم ياسين يهتم للذهاب إلى الموالد، وكان يحتفل كل عام في بِركتنا الواسعة، في ذكرى مولد السيد البدوي،

لم تكن خاتمة أو عقيقة، بل كنت أحب هذا اليوم وأعشق رؤية طقوسه التي كانت تبدأ من الظهيرة وتنتهي بعد العشاء، كان كل جيران البركة ينظفون الشارع ويتم رشه بالماء وفرش الحُصر في هذه البركة التي كانت تُسمي ب (بركة بحري البلد) لأنها كانت بحري القرية، وكانت تمتاز بالجو اللطيف صيفا والدفء شتاءً إلا آخر البيوت التي منها للخلاء المزروع، فكانت رائعة صيفا وباردة

جدًا في الشتاء، كان العم ياسين قد اعتاد على حشد أصحاب طريقته بعد أن يذبح لهم ما قد نذره من ماعز عكف على تسمينه بعد انتهاء (الحضرة) التي كانت في العام الماضي، ثم يأتي المنشد بصوته القوي يُنشد بعدما يستمر على الذكر وأمر الجلوس بقراءة الفاتحة لسبب ودون سبب على أي شيء. حتى أنني أذكر أنه في عام ما من ذكرى مولد السيد البدوي، الذي كان يحتفل به العم ياسين، أن حمارته قد أصابها ألمٌ في بطنها وتعاني من الإمساك في قضاء حاجتها، قرءوا الفاتحة وأمر قائد الإنشاد أن يدعو لها بالتيسير.

فكانت جدتي تُعطيني خمس جنيهات وتطلب مني إعطاءها للمنشد الذي كان من قريتنا ويعمل في محطة المياه فيها، وأن أبلغه أنها تريد إرسال إنشاد سوف تسجله لأبي الآن من صوته الجميل في الميكرفون المعلق فوق أعلى بيت في المنطقة.

ثم بعد أن ينتهوا من ذكرهم الأول،

يقوم المنشد الديني الشيخ رفعت يقول قصيدة للمسافر

في الوقت الذي أمرت فيه جدتي بإحضار التسجيل بوضع الشريط فيه يُسجل قصيدة المسافر الذي أرادت جدتي أن تشاركه الحدث عن بعد:

يا من بعد ألف ذنبْ سترتني.

وتركتُ أطفالي في رحابكَ تعتني

كنت اللطيف يا كريم برحمتك
وعمَّ سواك في العطا كنتَ الغني.
ويوم جُوعت في الليالي الماطرة.
أطرقت بابي بالثمارِ رجمتني.
ولا زلت يا ربي بجودك منعمًا
ولم تقل لي يا عبدُ عصيتني.
ما أقبحَ الشيطان إذ جاءني!
وما أعظمكَ بالتوبة إذ جئتني!
فما أحلى حبُ العباد لربهم!
وما أعظمكَ ربي لولا أحببتني!
لي في جمالك يا إلهي شيمةٌ
حسنٌ وبتذكير الاسم أسميتني
من بعد تكويني لكونكَ قادرٌ.
على تكوين إنسان من ماءٍ مّني
ولأني يا رب سأكون سالك.
فمن حُمرة الخجلانِ شكلتني.
كنتُ يا رب في الأرحام ساجدًا

فليتك ربي في سجودي نسيتني
فظني فيكَ جميل يا مُحسن.
بأنك من صُحف العصاة حذفتني.

.....

وهم يفقرون على نغماتها، والتفقير هو وقوفهم صفوفًا دائرية ثم ينشد المنشد أناشيد يتطاوحون عليها يمينًا ويسارًا، كانت نغماتها لا تخلو من (اه يا مدد يا مدد يا مدد)، ثم يتحمس المنشد لتزداد التصفيقات التي لم نعلم من أي الأكف تخرج، فيتسارعون أماما حتى تكاد تصل رؤوسهم الأرض ثم الاعتدال مسرعًا للخلف ومنهم من كان يفعل ذلك في الاتجاهات الأربع أكثر من ساعات، وكان منهم من يصرخ ويُغشى عليه، وكنا نقول حينها إنه قد التبسه جن. كنا ننتظر الحضرة ونحن صغار، ونأتم خلف الصفوف ونفعل مثلهم. ويظلون على هذا الحال حتى تُجهز النساء الطعام لمدعوين الحضرة، فكان الطعام ليس فيه شيء مبتكر إلا تسويه الماعز. أما باقي الطعام فكان (الكشك) وليس كشك القمح والمش الأبيض الذي كانت تصنعه جدتي لأمي،

إنما كان هذا كشك بالطماطم المطبوخة على النار والعيش المفتت فيه وعلى وجهه تقلية البصل، يُصنع هذا الكشك بمكونات من دقيق قليل، وملح وزيت ومنهم من كان يضع اللبن، كان طعمه جميلاً، لكن للأسف لم أقبل شكله، كان هذا هو

الطعام الأوحد الذي لا آكله، ولا أرفض أي شيء يأتيني حتى وإن رغيف خبز يابسٍ تم تسخينه وتذوق طعامته مع كوب الشاي، كنت لا أحب تناول الكشك.

ولم أعلم هل اختاروا الزهد حتى في الطعام مع زهد ثيابهم الرثة أم أنها عادة؟

كانت أمي غاضبة من قسم جدتي عليها بأنها سوف تزوجه حفيظة.

وبعد أن هدأ الحال ومرت أيام تجاوزت الأربعين. إذا بالعم فتحي راكبًا دراجته النصر السوداء ويضرب بأجراسه واقفًا أمامي.

فتحي البوسطجي، قصير، قمحي البشرة، شعره كثيف، شاربه يشبه شوارب العراقيين.

وقف أمامي سائلاً إياي عن أمي. أجبته بالانتظار وسوف أسرع لكي أخبرها بقدومك فهي تنتظرك منذ أسبوعين.

دخلت مسرعا صاعدا إلى السطوح العريقة والبيوتات التراثية القديمة التي كان السلم الحجري يقسمها شطرين. ولم تكن مثل البيوتات التي تم تقسيمها حديثا إلى جزءين، جزء للمدخل وحجرة الجلوس ومدخل لباقي المنزل.

كانت جميع البيوتات طابقًا واحدا ومعظمها بالطوب اللبن الذي كان مدفئة الفقراء شتاءً رطبًا باردًا في الصيف. والبيوت التي بُنيت بالطوب الأحمر كان الكم العظيم منها مُسقف بأوراق

الخشب وسيقانه الصفراء التي تُعدُ من لون ملامح ساكنيها. فوق البيوتات تظهر ثقافة أصحاب كل منزل.

فسطوح منزلنا كان عامرا بمجموعة ثقافات بيئية مختلفة، وأيضًا دولية على الصعيد العربي. مثل الشُنط الكبيرة المصنوعة من الجلد التي كان أبي يأتي بها من العراق أو الأردن قبل حرب العراق والكويت. وهدايا متهالكة كنا نظنها هكذا مثل علبه الصور الزنك الموجودة حتى الآن.

أبلغت أمي بأن العم فتحي البوسطجي قد جاء من عند أبي.

كنت أظن هكذا حينها، أن العم فتحي البوسطجي يذهب إلى أبي ليُسلم له الجوابات والصور التي يلتقطها لنا في منزلنا جارنا حسين المصوراتي.

نزلت أمي مسرعة بعدما تعصبت وخنقت شعرها من الخلف وربطت طَرَفي المنديل على منتصف رأسها الأمامي. وتركته معقودا كفراشتين متخاصمتين قد ألقت كل واحدة ظهرها للأخرى.

وسحبت الشاش فوق منديلها.

نعم اسمه شاش وليس شال لأنه كان من النايلون الأسود المثقوب مثل فتحات الغربال.

أقبلت أمي بالعم فتحي تتلهف على الطرد الذي سوف يُخرجه من حقيبته، لكنه بدا عليه أنه يريد البقشيش.

أذكر أنها أعطته حينها جُنيها ونصفه. وأعطتني نصف جنيه

كي اشتري له من البقال زجاجة كوكاكولا.

بخمسه وثلاثين قرشًا، وكنت فرحًا أشد الفرح بالباقي الذي سيكون من نصيبي..

أخذت أمي الجواب والشريط..

وذهبت مسرعة إلى أسفل السرير في أحد الكراتين التي تدُس بها الثياب الزائدة، لتخرج جهاز التسجيل الأحمر ذا العيون السوداء. والفم الحوتي الذي يلتقم الشريط بلهفة عارمة كي يُسمعنا صوت أبي. وبعد أن سمعت أمي أول الكلمات، خرجت أمي تنفر من طلب أبي الذي طلبهُ منها، وهو أن يسمع إخوته وأبناؤهم وجدتي ما أرسله بصوته.

هكذا قالت لي أمي:

- أبوك يطلب منا إحضار أعمامك وعماتك وجدتك ليسمعوا الوجه الأول من الشريط.

اذهب إليهم واحدًا واحدة. ولا تأتِ إلا بهم.

ففعلت ذلك على الفور واستطعت أن أبلغ عمتي سعاد وعمتي فاطمة. لأنهما بجوارنا وقريبتان منا، حتى عمي يسكن معنا في نفس الشارع، إلا أنه كان حينها في العمل فأتت زوجته وأبناؤه عِوضًا عنه.

جلسنا جميعا في (المندرة) ووضعت أمي التسجيل على طاولة التلفاز، وسكت الجميع ليسمع صوت البعيد القريب:

"بسم الله الرحمن الرحيم.

من بلد الحُرمات إلى بلد الأهرامات، السلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

وبعد. أمي وإخوتي وأولادهم، إني تركت نفسي لديكم وذهبت كي أستطيع أن أسقيكم هذا الشاي الفاخر ذا حبات الخرز الثقيل الذي ستشربونهُ الآن..

تعجب الجميع. بالفعل أمي تضع البراد الأصفر الكبير على هذا الوابور.

- لقد تركت في داري بجواركم زوجتي وأولادي فاتقوا النار فيهم، ولا تجعلوها تدعو عليكم بما هي فيه من العناء وغياب قرينها.

وما أود منكم إلا أن أُذكركم الآن من أنا، وإني لأعلم أنكم تعلمون.

فأنا الذي زرع نخلتهُ في محل غربتهِ، ليُطعم أهلهُ منها الرُطب، وأما إن أصبحت ذكرًا لا تطرح، قطعتها وقدمت لهم الجُمار

فلو كان مبتغايَ زوجةً أُخرى لما شق على ما أنا فيه الآن".

وهنا حدث شجار بين الجالسين تجاه أمي التي لم تكن تعرف أن تكتب له خطابًا تشكو معاملة أمه أو حتى رقم هاتف تتصل به عليه تستنجده.

ولم يدر أحد منهم أنني أنا الذي أبلغت أبي دون علم أحد، حينما أبلغت جدتي لأمي، ولا أعرف كيف وصلت هذه الأخبار لأبي عن طريقها، لكنها كانت في أشد الغيظ على ابنتها. وتبين لي بعد ذلك، الهاتف الذي جاء بهِ خالي لبيته، كان هو وسيلة الاتصال بين جدتي لأمي وأبي هناك، ولم يكن لدى أبي هاتفا في غربته نتصل به من خلاله، لكنه هو الذي اتصل بجدتي صدفةً ليطمئن عليها، فأخبرته بمعاملة أمهُ لابنتها.

غضبت جدتي لأبي منا وذهبت لتقيم في بيت عمي عبد الله، فكانت جدتي هكذا، إذا أغضبها شيء تذهب إلى مكان آخر، وكنا نعلم أنها ستعود إلينا مع أول أمر سيغضبها في بيت عمي عبد الله، كانت جدتي تعرف أصدقاء أبي جيدًا، وكانوا يأتون لزيارتها في غياب أبي، وكانت أحداث العائلتين وأخبارهما معلومة بيننا من سعيد العرب وحميد العرب، فكنت أسمع منهما ما حدث في هذا العرس البدوي العظيم الذي حدثت فيه هذه الجريمة السَكرىَ بعد انتهاء العرس الذي كان يُحييه الفنان الشعبي الكبير (بيومي المرجاوي) حينما رحب المرجاوي على المسرح برجال وأسماء قبائل المطير وأولاد علي وغيرهم من العرب البدو ولم يعطِ حق المعازيم الكبار أمثال أبو زين عبده حسان، فكان المرجاوي قد استفزه بأغنيتهِ على المسرح حينما أرسل له صاحبه يحذره بأن يعدل في الترحيب بالناس دون نفاق، فذهب المرجاوي بعدها يغني أغنية يقول فيها (اسكت هوس) التي يقول فيها:

(اسكت هوس، اوعى تجيب سيرة ياللي غرامك هجر وحيرة،

تعالى سلم

وأنا سلم

خلي عزولنا يموت م الغيرة،

كانت مثل هذا السلح كافيًا أن يستفز زين عبده حسان، ويترقبه في نهاية العُرس ويطلق عليه الرصاص بعد أن أوقفه هو والراقصة، إلا أن أبو زين عبده حسان، تركها تذهب وأصاب الفنان، الذي توفاه الله إثر هذه الإصابة في ساقه التي بُترت وفاضت روحه بعدها في شهور قليلة.

كانت الأخبار تأتينا بكل تفاصيلها دون وسائل الإعلام التي لم تعلم شيء عن أي شيء في مثل هذه الحوادث التي تحبكها كيفما شاءت، فمن بين المشكلات التي صدعت رأس العالم كله كانت هذه الواقعة التي حدثت في فترة مصر الانتقالية بعد ثوره يناير، وهي حريق كنيسه الشهيدين القبطية، في وقت كانت كل المؤسسات الحكومية في مصر متهردلة بما فيهم وسائل الإعلام، ولم يكن الأمر أبدًا عندنا في مصر متعلقًا بديانتين سماويتين كما بلع طعم الفتنة حينها أقباط مصر والعالم، وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي حينها، حينما ذكر ذلك في خطابه الشهير عن الأحداث التي تحدث في مصر وبالأخص وذكر القرية التي حدثت فيها الحادثة التابعة لمركزنا الذي ذيع صيته بالإجرام وهذا الأمر له

جوانب مرئية ليست حقيقية، التي عان فيها مليون مُر كبار مركزنا والمركز المجاور لنا وهو مركز الصف الذي كان يترأسه الكبير سياده اللواء سعد الجمال، ولم يستطع لا القضاء ولا الإعلام حينها حل هذه القضية إلا من خلال القضاء العرفي الذي استعانت به القوات المسلحة حينها وكان سندًا لمصائبنا التي تحدث قبل وبعد هذه الفترة.

أما وجود كثرة الأسلحة النارية في مركزنا حينها لم يكن وجودها وجود إجرامي بعدما تركت الداخلية مواضعها الأمنية مما ألجأ المواطنين حينها لحمل السلاح دفاعًا عن الوطن وممتلكاتهم التي كانت على شفا السرقة من قِبل المجرمين واللصوص الذين خرجوا من السجون وقت فتحها أيام ثورة يناير.

فكان مخطط العدوان على مصر في هذه الفترة قائمًا على زراعة الفتن بين مسلميها وأقباطها الذين هم شقائق روحنا ولم نستطع العيش دونهم،

أما ما حدث، ليس إلا عَرَضًا طبيعيا يحدث بين فتاة وشاب من عائلتين، وليسوا مسلمة ومسيحي، وكان يعي ذلك جيدًا كبارنا، أمثال القِس أدمون وسعيد العرب وعمي عبد الله الذين قد خلقهم الله لحل مثل هذه المشكلات العصيبة،

فانتشرت شائعات بأن المسيحين يُقتلوا ويُذبحوا ويُحرقوا بل وزادوا أن المسلمين هناك قد أقاموا مسجدًا حول الكنيسة أو يريدون اتخاذها مسجدًا، مما أثار الغضب في الشارع القبطي

حينها.

ولم يعِ أقباط مصر زرع هذه الفتن إلا بعد أن تم حرق كنيسة إمبابة التي أبلغ المنياوي أبي بها تفصيلا بعد هذه الحادثة التي حدثت في مركزنا، مما جعل الفطناء أن يتنبهوا أنه مخطط لحرب أهلية بين مسلمي مصر وأقباطها،

أما ما قد تم سلبه من كنيسة الشهيدين، أو كان من أسباب حرقها فقيل حينها أنها قصائص من شعر النساء المسلمات وقطع أقمشة من ملابسهم، وقائمة بأسماء فتيات القرية المسلمات، يعمل عليها قِس الكنيسة أعمالا سحرية تضرهم، مما أثار غضب المسلمين من رجال الكنيسة فحرقوها بعد شائعة أن الفتاة والشاب المسيحي بداخل الكنيسة يهيمون في عشقهم الكاذب الذي لم ولن يحدث في مناطقنا، فكانت فتنة محبوكة جيدًا كي تقنع الجميع وتخدعهم، ولولا وجود رجال العرف الذين كانوا يرجحون سلمية عدم الارتباط بين مسيحي ومسلمه أو مسلم ومسيحيه حتى وإن كان ذلك يخالف الشريعة الإسلامية، وكانت دلائلهم منبثقة من حكمتهم قائلين:

"من لم يدخل الإسلام للإسلام فلا إسلام له، ومن تدخُل الإسلام في عشق مسلم فلا إسلام لها، ومن تُرد دخول الإسلام فتذهب لمشيخة الأزهر، لتعتنق الإسلام أولا، ثم يتم معاملتها على انها مثل كل الفتيات في القرية، فقد يأتي مسلم ليطلب مسلمة

ووكيلها يرفض رغم قبول الفتاة زواج الشاب، وإن ما فعله القِس من أعمال إن حدثت، فيُعاقب عليها كما يُعاقب غيره من المصريين المُخطئين، وكما يتم منع المسيحية من اعتناق الإسلام، فيتم منع المسلمة من اعتناق المسيحية، ويتم القضاء في هذه الجريمة التي راح ضحيتها أبو الفتاة قتلا من قِبل مسيحيين قَبلَ أن يتركوا البيوت التي يقطنون فيها".

وهذا هو القضاء العرفي الذي يقضي بين أي طرفين أيًا كانت جنسيتهم أو ديانتهم، وهو من حق الذي له الحق ألا يجاور طليبه، ولا يراه أبد الدهر حفاظًا على ماء الوجه وعلى إراقة الدم، ولم يكن ترك البيت أو ما يسمونه ترك الجيرة، لم تكن غصبا إنما تُباع، وهذا حكم عرفيٌ يوجد في دماء العرب، وليس جاهلية، فالحمية لا شك أنها من الغيرة على العرض والأرض، ولو لم تكن فينا الحَمية لما انتصرنا مثلما انتصرنا كثيرا، وليست هذه الأحكام الصادرة تصدر عن جماعة دون أخرى، إلا بعفو من لديه الحق عن خصمه، وأن تكون دية القتيل مليون جنيه تسقط إذا قبلها وذهب ليقتل من قتله بعد موافقته على الصلح الذي يُقدر له مالاً كدية لأولاده ويكون عن رضا مع تقديم الجاني كفنه وقت الصُلح.

أما القتلة والمخربون فلا يتركهم القانون حتى وإن لم يكن موجود حينها، فلا يتركهم بعد استقرار البلاد من هذه الفوضى التي حلت بالجميع، كما عملت القوات المسلحة حينها على إعادة ترميم

الكنيسة وصيانتها كما كانت، بقياده العظيم المشير محمد حسين طنطاوي القائد الأعلى لوزارة الدفاع والإنتاج الحربي وقتها، وعزل القِس منها واستبداله بآخر،

ترك المسيحيون منازلهم بشكل مؤقت ليس إلا لأنهم خصم، وهذا يحدث مع المسلمين وبعضهم البعض في مثل هذه الحوادث الكبيرة، وهو وقت وقوع القتيل، من الواجب الهرب،

والغريب أن مسلمي قرينتا وأقبطها كانوا يترقبون سويًا غروب هذه الفتنة عنهم بأي شكل غير مخاصمتهم بعض.

كان سعيد العرب وعمي عبد الله والقس ادمون، من رؤوس حل هذه القضية، وتعاون القس أدمون معهم كثيرًا لحلها وكان يُرجح كل الأحكام التي يصدرها المجلس العرفي وقضائه، فلو أن كل معاملات المصريين مع بعضهم البعض مثل معاملة مسلمي قريتنا بمسيحييها لساد السلام دوما.

ولا يعني هذا أن قريتنا هي القرية الفاضلة، إنما وجود قوانين وعادات في قريتنا يمنحها الفضل، فلا أحد يستطيع رفض العرف وأحكامه، ومن يرفض إقامة جلسة القضاء العرفية فهو خاسر حتى وإن كان كل الحق معه، لأن إقامة جلسات العرف تضع حلولا دائمة ولا يشترط أن يكون فيها خاسر أو فائز، فربما أن تكون القضية لا تستحق حكمًا، إنما يُستحق ضبطها للمستقبل في وضع شروط جزائية بين الطرفين كي لا يتعدى أحدهما على الآخر.

في قريتنا يحضر المسيحيون الجنائز والعزاء للمسلمين وهذا أمرٌ طبيعي، إنما مآتمهُم يأتون فيها بمُقرئ يقرأ القرآن الكريم للمسلمين الذين جاءوا ليقضوا واجب العزاء. مسيحيات قريتنا ملتزمات في لباسهن مثل المسلمات، لا توجد مسيحية في قريتنا تترك شعرها دون إشرب وهذا حال الفتيات، أما النساء المسيحيات المتزوجات فهن يلبسن الإشرب وفوقه الشاش أو الحِرام الأسود، وجلبابهن هو نفس القميص الاسود الذي تلبسه كل نساء القرية، إلا أن بعضهن كانت ترتدي ثوبًا آخر غير القميص الأسود واستبداله بأي لون أزرق كان أو أحمر. أفراحهم مؤمنة وحزنهم إثم،

وما عليه المسيحيات المتبرجات ليس إلا ما عليه المتحررات أو العلمانيات المسلمات، فالدين المسيحي لا يقبل التبرج، ولكنه يقبل الحرية الشخصية التي قد يكون فيها مفسدة عن الإسلام، وإن كانت المسكرات حرام في دين الإسلام، فهي أيضًا حرام في المسيحية، ولعل هذا ما ضبط العادات التي يمارسها أصحاب الديانتين، لم يكن الأمر بين الناس في قريتنا محمولاً على العصبية، بل بلغ الود بينهما إلى أن يقولوا في بعضهما نِكات قد تُغضب الكنيسة والجامع، ولكن من باب الأدب أن يبتسم لها شيخ الأزهر وبابا الكنيسة، من مدى الود والثقة التي نبتت بداخلهما تجاه بعضهم البعض، أما باب الدين فكان مُصانًا بينهما، كان بارعًا في هذه النكات المضحكة، العم ناجح وهو يسردها في بيت عمي حربي المسيحي وهم يتسامرون بعد بالإفطار الذي اعتاد المسلمون

تناوله يوما من كل عام في بيته في شهر رمضان،

وبين المغرب والعشاء بعد أن انتهوا من الإفطار وهم يحتسون الشاي شرع يمزح العم ناجح مع منير الخياط والعم حربي وابنائهم،

فقال العم ناجح:

- تقابل شيخ الأزهر والقسيس في مؤتمر الوحدة الوطنية ذات عام، فقال القِس للشيخ

- تعالَ نلعب لعبة يعطي كلٌ منا الآخر كفا على وجهه مع كل عيدٍ يُعد ذكره كلاً منا لديانته،

فتردد شيخ الأزهر، فالأعياد عند المسلمين، عيدين:

عيد الفطر

وعيد الأضحى،

أما أعياد المسيحيين، كثيرة:

عيد القيامة، وشم النسيم والجمعة البيضاء، وعيد السعف، والغطاس، وو.

فبعدما فعلها شيخ الأزهر مع القِس مرتين فقط على وجهه،

فعلها القِس خمس أو ست على وجه شيخ الأزهر،

فصمت شيخ الأزهر وفكر، وتأمل وتذكر،

ثم راح ينتقم من القِس بضربات سريعة وكثيرة ومتتالية.

فوضع القِس زراعه على وجهه وهو يقول له: ما كل هذا يا شيخ؟ لمَ كل هذا يا شيخ ما كل هذه الأعياد؟

فأخذ الشيخ نفسًا وهو متعب من ضربه يقول له،

هذا (مولد النبي).

كانوا يضحكون من أعماقهم ولا تخرج الضحكة إلا من هُنالك إلا لأن العصبية بينهم مقتولة قبل سقوط آخر الممالك النصرانية في الأندلس بآلاف الأعوام، فنحن نعرفهم قبل أن يعرفهم المسلمون والعرب والعالم، أرضهُ أرضي، والبيوت تشاركنا فيها يومًا، لما دخل بعضهم الإسلام، كان أخي قبل أن يولد أبي، مشاجرتي معه أمرٌ بديهي، فأول قتلٍ في الكون بدأ بنصيحة وحدث بتوقع، وانتهى بمسامحة، وشراكة البيوت عادة مصرية، قد لا تكون في بلاد المسلمين جميعا، كما توجد في مصر حتى الآن، حتى الجار مع الجار، لا زال حتى الآن توجد بيوت، الحائط الفاصل بين البيتين هو جدًار واحد مترابط عليه البيتين، يظلا معا، إلى أن يشاء الله، إما بهدمهم البيتين لإقامتهما من جديد، ويكون كل منهما له حائط مستقل لا يشاركه فيه جاره.

أما مشاركة البيوت، فهذه لن تنقطع؛ لأنها في روح جميع المصريين، الأب يبني لأبنائه بيتا بيتا، وكل ولدين لهما بيت من الأربع أبناء، أما إذا جاء الوقت الذي قرروا جميعا أن يكون لكل

واحد منهم بيت خاص به، وجدوا أن الكرة تعيد نفسها مع أبنائهم مثلما حدث مع آبائهم، فكان يقول قائل

(الفقر نعمة) ما كنا نعلم أين النعمة، إلا لما تجمع كل من في البيت على طاولة واحدة، كُثرٌ، نشبع، بأي شيء نقنع، لم تكن ضيقة علينا الدائرة مثلما ضاقت الآن، الجميع يتحدث عن الانفتاح والتقدم والتطور، لكنها جميعًا بالفعل تسقط من الإنسان يوما بعد يوم وجيلا بعد جيل،

كأنهم يصنعون التكنولوجيات من عقولنا لتُجن، ويفتحون الدوائر لتضييق الصدور، ويطلبون التقدم لكن من الخلف، نعم أصبحنا مُستخدمين تقودنا اختراعاتنا. لا شك أنني بالغت، لكنني فقط أشعر أنني انشغلت، بأشياء لم أكن أحب أن تكون موجودة في حياتي، ولا أستطيع بعدها أو إبعادها.

كان لهذه الحادثة حينها تغيرٌ واضح على وجوه المسيحيين الذين غضبوا حينها وشعروا بعدم الأمان، لكن الفوضى حينها كانت على كل المصريين ولم تترك مؤسسة إلا ونخرتها، فحدثت الفوضى حتى في المستشفيات بل وفي المساجد، وما دُمنا شعبًا واحدًا فكان ولا بد أن تشاركها معي في حرق كنيستك،

ومن العجب العُجاب أن زُعر الجيران المسيحيين لكنيسة الشهيدين، جعلهم يلجئون ويستجيرون بالمسلمين، أقصد بالجيران المصريين، وهذا لا يدل إلا على أنهم مُدركون حِلم إخوانهم، مع أنه

كان يوجد مسلم بالفعل يريد قتله، لكنه مسلم مجرم مثل الشاب المسيحي المجرم الذي أغوى الفتاة بالهروب معه، فكثرت الشائعات حتى هزت الأخوة الأقباط في قريتنا، وهم الضعفاء في عقولهم، الذين يظنون أننا فاعلون فيهم شيئا دون سبب. فهربت بعض الأُسر المسيحية في ظل هذه الفوضى إلى أصدقائهم المسلمين للقرى المجاورة، فكان من نصيب عمي عبد الله أسرتان مسيحيتان مكثتا في بيتٍ قد بناه عمي عبد الله لابنه الثاني بعد بدر وهو مصطفي؛ كي يتزوج فيه، لكن الفتنة تظل تبحث عن أرعن يُشرِع فيها، ومهما حللها رجال الدين، تأبى القلوب الصافية لله أن توقدها أو تُلهبها.

حدث ذلك من بعض المغرضين الذين كانوا يلحون على عمي عبد الله، أن يعرض الإسلام على الأسرتين، إلا أن عمي عبد الله قد تعصب وغضب وطرد هؤلاء من بيته دون تبرير، بل بلغ الحد أنه هددهم بالقتل إن جاءوه بمثل هذا ثانيةً، وكان لعمي عبد الله، عقل مُفتٍ قد انعدم من رؤوس هؤلاء.

كان يقول حينما سألناهُ: وما فيها إن عرضته فقط عليهم؟:

- سمعت الشيخ لبيب يقول لنا قديما كلاما عن العرب ووصف الشجاع الكريم بقوله:

"أشجع القوم، العطوف بعد الكر".

أي الذي يحمي المنهزمين. وهؤلاء منهزمون، فكيف أكون أنا

الشجاع إذا خذلتهم في عطفي؟

كما أن هذا حرامٌ يا أبنائي، فلا إكراه في الدين، وعرض الإسلام عليهم في ضعفهم، أكبر إكراه، انظروا كيف فتح الله على المسلمين مصر بالعطف والمؤاخاة؟ وكيف أصبحت مصر بما أصبحت؟

وانظروا كيف تم فتح بلاد الغرب بالسيف؟ وكيف أصبحت؟

فلكل عالم كبير وكل صديق مقرب، وجار محب، أن يعرض الإسلام على المسيحيين، مرة واحدة في حياته، تكون في قوتهم وليس ضعفهم، تقولها بالحسني وبالابتسامة، فإذا رأيت منه ضيقا، فاعتذر ومازحه ويُحبذ أن لا تقولها أو تعرضها عليهم.

في ذلك التوقيت كانت دونكا ابنة نوار تدرس معي في نفس الجامعة بمصر، جاءت إلى قريتنا ذات يومٍ بعد نزول أبي نهائيًا، كان قد صحبها المنياوي إلى قريتنا، كانت القرية قد عرفتها باسم الحاجة نوار، ساهمت في بناء مسجدين قديمين تم هدمهما وإقامتهما من جديد، كان أبي معها وكأنه المنسق العام لشئون القرية التي كانت تمولها نوار، كانت توزع الأطعمة الجافة في شهر رمضان على فقراء القرية، دفعت مالاً في شراء قطعة أرض لمدرسة إعدادية، كانت القرية في حاجة إليها لعدم وجود مدرسة إعدادية في قريتنا، كما أنها اشترت قطعة أرض على النيل وقد بنت فيها بيتًا قام على إشرافهِ أبي، واشترت قطعة أرض على الضفة الأخرى من النيل كانت مزروعة بأشجار الفاكهة مثل الموز والمانجو

والبرقوق والبرتقال.

كانت تقضي صيفها في قريتنا مع دونكا ابنتها التي كان حلم نوار تزويجها إياي، أما أيام دراسة دونكا كانت تقضيها في شقة قد اشترتها في أحد الأبراج السكنية في المعادي، لقربها من جامعتي القاهرة وحلوان، كانت نوار تلحُ على أبي أن يتركني أقطن معهما في سكنهما، إلا أن أبي عارض ذلك بكل شدة، ولم أعِ سبب ذلك، كنت أنظر إلى ضعف نوار المالكة لكل هذا العز وهذه الشخصية الواثقة في ذاتها، وأراها مكسورة وحزينة من رفض أبي لما لا يقبله، كنت أسكن في المدينة الجامعية، أدرس نهارًا وأعمل أيام العطلة، أو عمل استثنائي؛ كي أتمكن من توفير مصروف زائد فوق الذي أعطاه لي أبي، لكن دونكا كانت تنفق كثيرًا من المال، وكانت دائمة العرض على أن تعزمني في أحد مطاعم الوجبات الراقية، لكنني كنت لا أقبل إلا أن أعزمها أنا على نفقتي في مطاعم (الكُشري) التي كانت رخيصة ومُشبعة، استسلمت دونكا من عقلي القاسي بعد أن أحبت الكشري، وكنت أوافقها إن عزمتني مرةً على طبق كشري في أحد المطاعم التي تواجه الجامعة. قد عشقتها عشقًا لم تعشقه نوار لأبي، كانت دونكا جريئة علمت أنها مثل امها، لما علمت أنني مثل أبي.

كانت نوار تود تحقيق حلمها في ابنتها بأن نرتبط، كانت نوار معي قلبًا وقالبًا، وكانت تحبني أكثر من ابنتها، ولم أعِ لماذا كل هذا الاهتمام، وكنت أشك أن هناك أمرًا ما لا أعلمه. حاولت أن

أعرف من دونكا، ولكنها لم تضف لي إلا الذي تعلمه، إنها وهي طفلة كان أبي مُصاب في بيتهم، وحكت لي عن ملكهم في جازان وطبيعة الصحراء والجبال، وأيضًا الحيوانات، وقصت لي قصة قطعان القردة، ولكنني ظننت أنها تبالغ. لكن دونكا أحبت بيئتنا في مصر المدنية التي كانت تفتقرها دونكا وأمها بين أحضان الجبال، كانت دونكا تحب النيل جدًا، كانت ترتدي حجابًا صغيرًا مثل فتيات الجامعات المصرية، ولكنها كانت تنزعه وهي معي على شاطئ النيل في قريتنا، طلبت مني أن أعلمها السباحة، لكنني رفضت، إحراجًا وخجلاً من أهل قريتنا وعاداتنا. كانت تغضب وهي معي على الشاطئ، وكنت أصالحها بدفع الماء عليها كي تتمتع به وهي مكانها دون النزول إليه.

كما أن نوار قد اشترت قاربًا كهربائيًا صغيرًا، يحمل أكثر من عشرة أفراد، كانت تذهب به إلى الجزيرة التي امتلكتها من فاكهة، قد تكون فاكهة الموز هي في شكلها ونوعها في مصر والسعودية، لكن شتان بين البيئتين النيليه والصخر رملية، إلا أن ماء عذبًا واحدًا سقاهما ، أما ما نستشعره من اختلاف المذاق بينهما، فهذا يرجع للتربة المزروع فيها شجر الموز مثلا، نعم، صنوانٌ وغير صنون يُسقى بماء واحد، لكن ماء النيل كثير ورحلته إلى أن يأتي أمام قريتنا تُهدي المزرعات إما ماءً نقيًا لمباشرة الري من النيل للحقول مباشرةً، وهذه تكون أرض الجُزر مثل جزيرة الوراق وجزيرة المنيب وجزيره محمد والجزيرة الشقراء، أما الري غير المباشر،

فيكون من النيل صبًا للتُرع ثم للحقول البعيدة عن النيل، فطعم الفاكهة المزروعة على شاطئ النيل كالمانجو مثلا ، تكون ثقيلة وأكبر حجمًا، وكل أعضائها غنية بالدهون والنضارة،

أما بعيدًا عن النيل فهي أروع في كل شيء في حجمها الذي مثل وزن المرأة الرشيقة، طعمها لا يصدك، جلد ثمرتها مشدود على لحمها، يمكنك أن تُقطعه مثل مكعبات الثلج، وأفضل هذه الأنواع مانجا الزبدية، ولعل اسمها قد لخص كل شيء عنها، تقريبا هذا النوع هو أسهل ثمرة مانجو يمكنك تناولها بأي طريقةٍ تريد، إذا قشرتها يمكنك أن تأكل منها بالقضم، وإن قطعتها في طبق كانت أسهل، ولا تحب النساء أن تعصرها إلا لأن الثمرات كبيرة وقليلة وعدد الأفراد كثير، وهنا آنفا عنهن يعصرونها، ما عدا ذلك فالنساء تستخدم أنواع السكري، والبلدي في العصر لأنها صغيرة وليست يابسة، أما مانجو العويسي، فهي مرصوصة عند الفكهاني وكأنها تماثيل تحف تُباع أمام الكعبة في الجاهلية، مُنحنية كجنين يشعر بالبرد في بطن أمه، شبابها طويل، صفارها قشورٌ من ذهب، في العذب أو المالح طعمها عجب، سُكرٌ حلال، مُقاومتها مُحال، يا للجمال! من ترابط قلبها بجلدها بشعرها الذهبي الجني، شُعبُها كثيرة وكذلك الأصيلة بنت الأصيلة.

أما على الشجر، فكأنها مصابيح منيرة، رؤيتها مثيرة، تتدلى كأتراب كواعب تأبى النظر إلى الأسفل، لها منقارٌ كمنقار حورس، في حجم فرخ النورس، إذا حصدتها بقيت حية شهرًا، تعجز ولا

يذبل لها خصر،

أما فاكهة الصحراء، فتعطيك حلوها قبل أن تطيب، وتجد ذلك في التين البرشومي، فقلة الماء فيه عدلت طعمه، وينقصه جريان الماء أكثر في أغصانه، فتكون هذه الفاكهة فاكهة صحية أكثر من العزبة التي يوجد فيها نسب كبيرة صالحة للإنسان، ومع كثرة تناولها تضره إن كان مريضًا بمرض يتعارض ويتزامن مع فاكهه مثل المانجو إن كان مريض كُلي أو مريض ضغط، لكن قد لا تضره إن كانت هذه الفاكهة صحراوية رويت بماء المطر في كل العام مرة أو مرتين فقط، هذه الثمار افتقرت عناصر التربة العذبة، لكنها اكتسبت عناصر أخرى من تربتها، ومن أجل ذلك، الحفاظ على التربة هو من يُشكل ثقافة الإنسان على وجه الأرض. الإنسان هو من يستطيع أن يحافظ على صحته بعدم تلوثه لسطح البيئة، عذوبة الماء تطغى إن تلوثت البيئة. لكنني إن ألقيت فيه مواد سائلة كربونية فكل جُزيء يتسلل ويجري في نمو ثمرة، تكون هذه الثمرة سامة مائة بالمائة من هذا الجزيء السام، ليس لقتل العناصر المفيدة في الثمرة فقط، إنما أيضًا بسماح دخول جزء سام بداخلنا كنا في غنًى عنه، هذه الكربونات المتنوعة في السوائل والروائح تؤثر على الإنسان داخليًا وباطنيًا، أمراض المناعة والفشل الكلوي، والسرطان والالتهاب الرئوي، وحساسيات الصدر والالتهابات الجلدية السطحية منها كانت أو الناتجة عن ضعف جهاز المناعة.

حتي أنني أرى أن كل شعب يُشبه الفاكهة المزروعة في تربته،

إن كانت سليمة سلم وإن كانت ضارة ضُر. فالانبعاثات الحرارية هذه كل ضررها يقع على الإنسان، سواء بشكل مباشر في ضررها المباشر، أو في ضررها المُتمحور في الكائنات التي تخدم الإنسان،

مثل الماء والزرع والهواء وحتي مقمورات الأرض. ولا شك أننا بدأنا نعمل حاليًا على ذلك في حماية البيئة الشرق أوسطية. وأول المبتدئين سعيًا وراء تنقية البيئة كانت دولة الإمارات، منذ سنوات عملت فيها الإمارات العربية على تخضير الرمال، ولحقتها أختها المملكة العربية السعودية في مبادرة حملت عنوان (الشرق الأوسط الأخضر) أو المبادرة الخضراء وكانت الخطة قد استهدفت الفروع الأساسية التي من خلالها يمكنهم المساعدة في حماية البيئة بالتشجير؛ لنثر الأكسجين، واستخلاص الكربون وجمعه بمقدار مائتين وثمانية وسبعين طن من الكربون سنويًا، كما بدأت المبادرة الخضراء بتخصيص عشرة مليارات شجرة تم زرعها في الأراضي الصحراوية. كما عاهدت المملكة باستصلاح ثمانية مليون هكتار من الأراضي الغير صالحة. على عكس المحمية التي كانت تملكها نوار، واستطاعت حمايتها من القردة المخربين، قبل حدوث أو الشعور بالتلوث البيئي الذي أصبحنا عليه.

لم ينتهِ الشهر حتى تمكن المصاب باستعادة جزء كبير من طاقته وقوته التي كان عليها قبل محاولة انتحاره أو نجاته من المكيدة التي يَصعب إلا على اليوسفيين الوقوع فيها.

ذهب أبي والمنياوي إلى محل سكنهما بعد محاولات عديدة

طلبت فيها نوار من أبي العمل معها، فرفض. استعانت بالمنياوي يقنعه فلم يستجب، كانت نوار تذهب يوميًا لتبدأ صباحها برؤيته، سواء كانت في حاجة للعمال أو لا.

باديس أيضًا لم تمكث كثيرًا، ولم تستطع نوار إقناعها بالبقاء، فذهبت مع جيشها تُكمل مسيرتها داخل الغابات وخارجها.

لم يمكث أبي كثيرًا في السعودية بعد هذه الواقعة النفسية التي مر بها، عاد قبل أن يعود المنياوي، كنت حينها قد انتهيت من دراسة الإعدادية، وكان كل ما في عقل أبي أن أصبح مهندسًا؛ لأن الهندسة والمعمار هما شغفه في حياته العملية التي أهدر عمره من أجلنا بها.

وبعد عودة أبي نهائيًا بثلاث سنوات فقط كانت نوار قد سمعت خبر عجوزها في السجن، وانتُحب، جاءت نوار إلى قريتنا يصحبها المنياوي إلى بيتنا كي تنفق كل هذه الأموال للأعمال الخيرية للفقراء في قريتنا والقرى المجاورة بالاستعانة بأبي في ذلك، ويبدو أن قريتنا قد أعجبت نوار التي اعتادت أن تؤدي صيفها في منزلها المُطل على النيل، كثرت الشائعات أنها تحب أبي، وكذلك أبي يحبها. كانت أمي امرأة فلاحة، تفهم ولا تهتم، طالما هي أكثر إنسانة تعرف جيدًا ما يدور برأس أبي، كانت أمي معجبة بشخصية الحاجة نوار ومظهرها المختلف عن كل نساء المركز وليست القرية فقط. كان أبي رغم كل الأموال التي تُكب في حجره من نوار إلا أنه لم توسوس له نفسه بأخذ جنيه واحد منها، ولعل إدراك نوار لهذا

ما جعلها تعتبرنا أنا وأخي من فقراء القرية، فساهمت في بناء بيتين لي ولأخي على أرضنا الزراعية التي ضمها أبي لميراث أمي الذي ورثته عن أبيها. رضي أبي بذلك من باب جبر الخواطر، رغم أنه الآخذ وليس المعطي، كان أبي متواضعًا جدًا ولا يشوبه كبر، يقبل الصدقة والمساعدة طالما شرعها الله على كل من مثله، ولا يقبل جنيهًا لا تقتنع نفسه له. وقد تركت معاملته هذه أثرًا في نفسي حينما أخذت دونكا ذات جمعة إلى مسجد الحسين رضي الله عنه وعن أبويه وجده، كنت أرى مجموعات من الناس في المسجد وحوله يوزعون الأطعمة على المصلين والسيارة خارج المسجد، وكنت أرى رجالاً بحالة متعففة وليسوا بحاجة لهذه الصدقة وكانوا يقبلونها، وأيضًا تعجبت حينما تركت دونكا في مصلى النساء، ودخلت أسمع القرآن الكريم، الذي كانت تبثه الإذاعة لطبيب القلوب المقرئ الشيخ أحمد نعينع، كان صوته نغم يطرب كل أركان المسجد، وجدت رجلاً زاهدًا من أصحاب محلات العطور، يفتح زجاجة عطر رائحتها تُسكر أرواح السامعين، حينما سكبها ونثرها على المصلين، وبعد أن انتهى، جاء بجوار الشيخ وهو يقرأ ووضع يده في جيبه، وأخرج مالاً قليلاً جدًا، حدقت فيه بعناية فكانت خمسة جنيهات، وأعطاها للشيخ نعينع، تبسم الشيخ وأخذها منه وأكمل قراءته، كان هذا الجبر أيضًا من الآخذ، وليس المعطي، كانت هذه الأمثلة كفيلة أن تعلمني أن هناك فرقًا كبيرًا بين التسول والتلطع، وبين أن دوام النعمة من قبولها.

كنت حينها في فرقتي الأولي من كلية الهندسة التي حلمت

أن يرفضني التنسيق ولا أذهب إليها، ولا أدرِ لماذا طالما اجتهدت وانفقت تقريباً كل أموال أبي كي أحصل عليها. كنت أفعل ذلك من أجل فقط حبي لأبي، وأن أحقق له شيئًا يريده، حتى وإن كان على حساب مستقبلي. بل وصل بي الحد حينما رأيته يعاني من فقرات ظهره التي ربما تأثرت من وثوبه بالطابق الثالث عند بيت نوار في أحضان الجبل أو من عنائه وعمله القاسي، كنت أتمني أن يعطيني الله شيبًا ويبدله لأبي شبابًا، كنت مدركًا كم عانى وشقيَ من أجلنا، كنت قد رافقته في أعماله التي جاء وبدأ بها سنين، حتى في إجازتي بعد انتهاء الدراسة، تعلمت منه الهندسة عمليًا ولم ينقصني إلا تطبيقها نظريًا، ولقد حدثني عن عملٍ لم أعمله ولا أراه حينها في مصر، وكيفية التسليح المعماري فيه، كانت هذه قد أخذتها منه نظريا لأراها في مدينة الشيخ زايد بالسادس من اكتوبر وأنا تحت التدريب حينما كنت طالبًا في كليه الهندسة. كان التكليف حينها تدريب ذهبنا لممارسته، لمسجد قد بناه فضيله الشيخ على جمعه، أطال الله عمره وأحسن عمله ونفعنا به، كان أبي يتحدث معي حينما رأيت له صورة فوتوغرافية قد تم التقاطها في جازان وهو يصنع وينفذ إحدى الفيلات لمواطن سعودي، كان السقف منظم ومرصوص عليه بلوكات إسمنتية مفرغة من الداخل، كانت مجاري عرضها لا يزيد عن الخمسة عشر سنتيمترًا، قال لي حينها وأنا صغير أن هذه تسمي (مجاديل)، أو يقولون عليها ضفائر، كان يتم مخالفة المجاري التي عددها أربعة عشر أفقيًا ومثلها رأسيًا، يتم تسليحها على عكس الطبيعي المتعارف

عليه برص الأفقي ثم الرأسي أو العكس، إنما يتم تنفيذها برص سبعة أفقيًا بوضع التسليح في مجرى وترك مجرى، ثم يفعل ذلك رأسيًا بتسليح مجرى وترك مجرى من السبع، ثم تسليح ووضع السبع المتبقية رأسيًا بوضعها فوق الأفقي ثم وضع النهاية وهم السبعة الأخيرة، ووضعها فوق الرأسي، كانت هذه طريقة كان يُسميها المصريون (تسليح هوردي)، ومنهم من يقول عليها أشناب، لأن تسليحها يسقط في المجاري يحمل الأسياخ ثم تخرج منه طرفين تتجه يمينًا ويسارًا مثل الأشناب، فوق المكعبات المرصوصة.
كنت قد حصلت على درجة الامتياز فقط لأنني كنت مع أصدقائي الطلبة، ووجدت التنفيذ خطأ غير الذي حدثني عنه أبي، ولم أدرِ لماذا صدقت أبي غير أنني أثق في عقله المهني تجاه هذه الصناعة، كان كل من في القرية يثقون في أبي مهنيًا، وجدت العمال والمهنيين يضعون التسليح بالطريقة العادية دون مراعاة عملية التجديل، يعني يرصون الأربعة عشر رأسيًا ومثلها أفقيًا، وكانت هذه طريقة صحيحة، لكنها تتم في البحور القصيرة على خلاف المساحات الواسعة التي يتطلب هندسيًا فيها مراعاة التجديل أو التضفير، لتقليل الضغط المباشر على البحور الطويلة المسافة. فكان التجديل هذا يقسم الضغط نصفين، وكأن كلاهما يحمل عن الآخر فيكون الوزن خفيفًا عليهما.

وقفت عليها وعارضتها بشدة رغم أن اللوحات جاءت بالطريقة العادية المتعارف عليها، وتم وقف العمل وقد أصابني الشك أن ما أفعله هذا قد يجعلني أرسب في هذه المادة، حتى تم

الاتصال بالاستشاري الذي كان عميد كليتنا. وتعطل العمل يومين. مما أحدث الفوضى لدي المهندسين المنفذين والمقاول حينها، وفي اليوم الثالث تم استدعائي لمكتب الدكتور عميد كلية الهندسة، وهو متعجب كيف عرفت عن هذا العمل الذي يتم إنجازه للمرات الأولي في مصر؟ فلم أجبه بأن أبي نصحني به وعلمني إياه، خوفًا أن يكون ما قاله أبي خطأ، فكانت حجتي هي أن البحور بين الأعمدة طويلة المسافة، ولا بد من تقليل الضغط في المنتصف بحمل واحدة رأسيًا لواحدة أفقيًا، كي تحدث الموازنة الهندسية في طريقة الأحمال، كانت هذه أيضًا إجابة أبي، تم ترشيحي على إثر ذلك أن أكون معيدًا في كلية الهندسة. كنت فقط عبقريًا بفضل عمل يدي مع يد أبي منذ الإعدادية في مجال طائفة المعمار، التي ذهبت معه حينها أيضًا لبناء كلية كبيرة داخل جامعات العلوم الحديثة والآداب. كانت الجامعة تعمل على تزويد عدد الكليات التي تنقصها وكان الفضل لخبرة أبي في بناء عقلي الفلسفي في طرق البناء.

لم يعتد أبي أبدًا على كنز الأموال، كان مسرفًا في الخير، في تزويج أختي نسرين والإنفاق على تعليمي، حتى إذا قل الاستثمار وهدأ الحال الإنشائي رأيته يعمل وهو قد جاوز الخمسين عند عمي عبد الله في تعبئة الخضراوات، كان هذا الشيء يؤلمني كثيرًا وأنا في مقتبل العلم، حتى أنني رفضت أن أذهب للمدرسة دون إخوتي حينما رأيت الحالة المادية هكذا، إلا أنه كان يعنفني، وما كنت أستطيع أن أقول له: "لماذا فعلت في نفسك كل هذا وكنت

تستطيع أن تبني شركة بأموالك التي أهدرتها على الهدايا". ولم أدرِ أنه أهداني أكثر من الذي أهداه الناس آلاف المرات، أهداني من عمره مقدار عمري طالما حي. علمني أن أصول المهنة ليست لها عقد، بل لها ضمير. علمني أن الشيء التافه يمكنه أن يُعلي قدرك، أو يشينك، بمسمار أخذته بعد انتهاء العمل، ربما لتُعلق عليه قميصك، او تُثبت به ساق سريرك، ويُكشف أمرك الذي ما توقعت أنها تكون جريمة، لكنها ستكون للأسف جريمة تُخزيك، وتُكثر الكلام عليك، وتكتب عند الحكومة لصًا. في الحقيقة هذه الأمثلة البسيطة التي كانوا حريصين على تعليمنا إياها، نفعت نفعًا كبيرًا في الأشياء أو التجارب الكبيرة التي مررنا بها، كل قوانين العمل مأخوذة من أخلاقيات العامل. قانون العمل يقول بأن عدد ساعات العمل ثمانية لموظفي الشركات الخاصة، كان العمال الأحرار أصحاب العمالة غير المنتظمة، يطبقونها قبل أن تكتب في القانون ويعملون من الثامنة صباحًا حتى الرابعة عصرًا، وفي شهر رمضان، قانون العمل يحذف من ساعات العمل الثمانية، ساعة، أما في العمالة غير المنتظمة يحذفون ساعتين، لكنهم ليسوا مقيدين بميعاد بدء العمل، فكان بدلاً أن يبدءوا العمل في الثامنة أو ربما التاسعة مثل القطاع الحكومي والخاص، تجدهم يبدءون عملهم من الخامسة وينتهي في العاشرة أو الحادية عشر صباحًا.

كان وجود دونكا مع نوار في مصر قد أنساني كل هذا. كانت تدرس الثانوية بمدرسة حدائق المعادي بينما كنت أدرسها أنا في مركزنا. كانت تأتي نهاية الدراسة هي ونوار وكنت أنا الوحيد الذي

أدخل بيت نوار، حتى أبي لم يدخله بعد الانتهاء من إنشائه لها، كانت نوار تحبني جدًا، كنت أرى ذلك في عينها، كانت تقربني من دونكا وتتركها تذهب معي إلى الضفة الأخرى حيث جنائن الفاكهة التي أخذتها نوار كتجارة وقت الحصاد؛ كي تنشغل بأي شيء هنا وقت الإجازة الصيفية لحصاد المانجو أو البرقوق، أو حتى الموز. كانت دونكا جريئة في حديثها معي، وكانت تحب لمسي، وكنت أبتعد عنها وأخجل من ذلك. وكنت أكره هذا الخجل، لكن نوار كانت تؤلف بيننا، صارحت دونكا بحبي لها، وسعدت نوار بذلك حتى أنها أقسمت عليّ أنها ستزوجني دونكا رغمًا عن أنف أبي وهي تضحك.

كان الناس في القرية قد أحبت نوار لأعمالها الخيرية، وكان الجميع بما فيهم أبي يقولون إنها سعودية، ولا أحد يتكلم على إنها غجرية أو من نوَر بلاد الشام.

مرض عمي عبد الله مرضًا شديدًا بعد معرفته أنه مريض كُلى، وكان هذا المرض لا يعرفه أحد إلا حينما يتمكن منه، ولطبيعة بيئتنا الزراعية لوجود بلهارسيا في مياه التُرع، وأيضًا ساعد على تمكين هذا المرض كثرة أكل الألبان التي تسبب حصى الكلى. حزن كل الناس على مرض عمي عبد الله. ولعل زيارة كل الناس له هذه قد وثقت حالته الصحية في نفسه واستسلم لها. فكان عمي عبد الله مؤمنًا بالموت ولا يهاب إلا من جبروت الله. اشتد المرض عليه، وزاد مرضه باكتشاف مرض آخر كان غريبًا حينها على

مجتمعنا وهو مرض السرطان، الذي أخفاه ابنه بدر عنه؛ كي لا يتوهم أكثر،

وكان قد أوصى نفسه وأبناؤه في وصيته الأخيرة، بأقوال كان غريبًا علينا سماعها منه وهو الصَلب القاسي.

"حينما تَجدُ الإنسان راقٍ في كلماتهِ، قاسيًا في نُطقهِ معك. فاعلم أنه مؤدبٌ لا شك. لكنكَ أنت الذي أسأت إخراج صالحهِ. فاللهُ كاتب. وهل أعظم من كتاب الله؟ وهل هناك عقابٌ أشد من عِقابه؟ فالقول حسن والفِعلُ قاسٍ..

وحاشا أن نُشبهَ أنفسنا بالإله.

يابنيَ،

دائما فتشوا عن محاسن الناس التي ترونها سيئة.

فلقد خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليقتل النبي ﷺ. وانتهى ليُدافع عنه وعن رسالته.

ومكث عمر ابن أبي ربيعة يتشبث بالنساء ويُغازلهُن في بيت الله الحرام طِيلة عمره. وبالرغم من ذلك مات شهيدًا محروقًا فوقَ سفينةٍ غزت تفتحُ في سبيل الله.

يا بني، اعدلوا في رد الحقوقِ مخافةَ أنْ يعدِلَ الله دونكم. فلو أنهُ رد حق مظلومٍ ظلمتموه، فلن يغْفِرَ اللهُ لكم حتى يرضى المظلوم عليكم.

وإياكم والكِبر فإنهُ يؤدي إلى الفقر، وما أبغضُ من فقيرٍ متكبر عند الله.

أيها الناس لا تُدافعوا عن النبي ﷺ. وأنتم تعصون أوامره

فإنَ معصيةٍ يفعلها العبدُ ويعلمُها خيرٌ من طاعةٍ ممزوجةٍ برياء.

وإني والله حدثني عن الدين شيخان أحدهما أُمّيٌّ، والآخرُ ملأ القريةَ عِلمًا. فما لِمس فؤادي إلا الذي لا يُجيد الكتابة والقراءة.

فتشوا في قلوب الناس عن خيرها. فلربما تكسبون رجالاً لن تجدوها أبد الدهر.

وتبسموا بثناياكم فإنْ لم تُجيدوا فبأعيُنكم. فإن لم تُجيدوا فبقلوبكم. فإن البسماتْ أزهدَ الصدقاتِ وأعظمُها".

لعل عمي عبد الله هو الرجل الوحيد الذي ظل كل رجال القرية يتوافدون على زيارته، حتى وهو في أنفاسه الأخيرة، وكان هذا امر طبيعي فقد اعتاد كل الناس دخول بيته، حتى الأعداء الذين كانوا يبغضونه ويحقدون على كرمه وحب الناس له، وكان هؤلاء من عائلتنا أيضا، لكنهم أرادوا أن يكونوا أبناء وهم في الأصل أعمام، مقابل ألا يقولون لك يا أبي. لقد عانى عمي عبد الله كثيرًا من تصرفاتهم وهزليتهم في اتباع الحق، حتى عمي عبد الله قالها لهم صريحة: "إن كنت ابنكم سأقول لكم يا أبي، وإن كنتم أبنائي قولوا لي يا أخي وقولوا للناس إنه أبي".

كانت هذه الخلافات دائمًا ما تحدث حتى الآن في ريف مصر على (اسم العائلة من الابن ومن الأب ومن الجد. ومعنى هذه الأسماء لا يقصد بها اسم الأشخاص الأحياء، فكلٌ ابن واب وجد، إنما هي أسماء رؤوس البيوت، فإذا قلت لك مثلا، مضر بن ربيعة، فمضر اسم وربيعة اسم، لكن لمضر جماعة كبيرة، ولربيعة جماعة أخرى كبيرة، فإذا جاء ربيعة وقال لأبناء جماعته: "مُضر أبونا"، وضعوا في نهاية كتابة أسمائهم بعد ربيعة مُضر الذي هو بذرتهم الأولى، وكانت هذه هي نقطة الخلاف بين العائلات وبعضها في معظم أرياف مصر، ترى جماعة من العائلة حاقدة على أخلاق أصحابها ومكانتهم المورثة والمعلومة لدى الجميع بإثباتات إما شفوية، اعترف بها لهم آباؤهم وأجدادهم، أو موثقة في شجرة العائلة المثبتة في أسماء العائلات والقبائل المصرية وأصولها ومن أين جاءت. فما كانت العائلات تهتم لنسبهم القبلي القديم وإنما يهتمون بالأسماء القريبة التي لا تتجاوز الخمسمائة عام، على خلاف القبائل المنحدرة الأصول لشبه الجزيرة العربية، أو حتى عرب الأندلس. فكانت مشيخة البلد تُعطى لفرد من العائلة بالانتخابات على أن يكون كبير كل الحصة، ولا يُشترط أن يكون الشيخ من أكبر بيوت العائلة في عصرنا الحالي، فقد يتنازل صاحب الحق عن المشيخة بشرط الاعتراف بكبيره، حتى وإن نُصبَ عليهم عمدة أو شيخ بلد. والحصة لها مسميان: حصة قروية، وحصة عائلية. أما الحصة العائلية هي التي تشمل كل أفراد

العائلة المسجلين تحت اسم شيخ بلدهم أو شيخ عائلتهم. والحصة القروية هي التي تشمل عدد من الحصص العائلية تحت اسمين أو ثلاثة حسب عدد الحصص ومشايخهم. وتكون هذه القوائم كثيرًا ما تُنظم لإدلاء الحصص بأصواتهم الانتخابية في مجلس النواب أو الشعب. تُسهل هذه القوائم على الناس معرفة المكان واللجان والغُرف الانتخابية التابعة لها ولأفراد حِصتها.

فكان هؤلاء لا يعرفون عمي عبد الله إلا في حل مشكلاتهم المعقدة التي عجزوا عن حلها طالما النزاع بين بعضهم البعض. فكانوا لا يقتربون إلا للمصلحة. يذكرون اسمك إذا أرادوا شيئين:

الأولى: كانت كيف يتخلصون ويتبرؤون من كربُهم وإجرامهم الذي ارتكبوه ويريدون مُخلِّص فيلجئون لعمي عبد الله، يحل لهم دون أن يخسروا. وكانت هذه في المسائل الأسرية بين بعضهم البعض أو بينهم وبين أحد من عائلة أخرى. وكانت هذه المُشكلات لا يحلها لهم عمي عبد الله بهتانًا وكذبًا لهم على صاحب الحق، فكان يتوسط لهم قبول اعتذار الخصيم الذي اختصم معه، وإذا كان معهم الحق لم يقضِ لهم بالحق إلا حينما ينظر لتاريخ الخِصام الذي ساد بينهم كيف كان، فلربما قد سبقت لهم مساوئ قد سامحهم فيها من قبل خصمهم، فإن كان كذلك، أقنعهم بقبول الاعتذار منهم. والاعتذار ليس قليلاً على الكِرام وللكِرام، فقد صدقت العرب حينما قالتها:

"الديةُ عند الكِرام، الاعتذار".

أما إن كان خصمهم اعتاد الغلط معهم، حسم لهم ذلك بحل إن كان هو المُراد منهم، بإقامة مجلس عرفي بعد إرسال شرط قضاء بمبلغ من المال قد يتفق الخصمان عليه قدر المشكلة التي هم بصددها، أو اعتراض أحدهم على قلته ويريد تزويده، لكن هذه إن لم يتفقوا عليها معًا، يحكم فيها أطراف غريبة، في الأغلب تكون بين بين، فإذا أراد أحدهم وضع قيمة الشرط مائة ألف جنيه، وأراد الآخر وضع ثلاثمائة، ينتهي كتابته على مائتين.

أما الثانية، لم يذكر اسمك إلا إذا احتاج له عند من يعلمون عزتك، وإذا أصابك درنٌ عابر، تَبرؤوا منك، كانت تصرفاتهم تصرفات جاهلية إلا أنهم يصلون لله.

فلم تعجبنا نحن شباب العائلة هذه التلوينية التي يتشكلون بها علينا، فكنا نطلب أن ننقسم عنهم، ولا يعنينا شأنهم أيا كان، وظللنا نضغط على عمي عبد الله كي ننشق عنهم. والعجيب أنه وافقنا على ذلك قبل موته بعامين. وافقنا وظل يحل مشكلاتهم. وافقنا وظل يعتز لفائزهم، ويحزن ويشعر بالخزي إن قتلوا. وكنا خلفه كذلك لا نريد مقاربتهم ولا نتمنى زِلتهم، فلم يكن عمي عبد الله إلا حُر، ولديه كرامة سبقتهم بألف عام.

كانت جدتي في أشد الحزن على عمي عبد الله كانت تبكيه على طريقتها التي كانت بها تُبكي الجميع برثائها المُعدد. لم تفعل ذلك إلا في أيام مرضه الأخيرة حينما أيقنت أنه في آخر أيامه، حينما راح يلقنها الطبيب الصبر وأن تحتسبه عند الله من الكرماء.

كانت تنوح وحدها وكنا ننسى جاهلية الفعلة فنبكي، وهي تُعدد:

"الدار مليانه يابني وبعد ما تمشي ماحد هيسأل.

استنى يابني أشوف الحاضر عن يميني وعن الشمأل".

وفي يوم وفاته، سمعتها تقول تعديد لم تكن قد نظمته إنما كانت تقوله ارتجالاً، ولم يسمح أحد من أبنائه وأبي أن يحدث ذلك من المُعددات اللائي جئن بنظمهن كي يرثين به عمي عبد الله.

لكن جدتي لا أحد يستطيع أن يمنعها وهي قعيدة وأم قلبها ملتهب على فراق ابنها:

"مات الكرم بعدك يا عبد الله.

وعاشت فيا طول العمر قولت آه.

حولك يابني اتجمعت رجال أبطال.

نصارى يابني نصروك كأنهم أنصار.

سامحتك يابني من كبدي وقلبي.

ولا عمر لسانك يابني قل بي.

كسرت يابني بعد موتك صُلبي.

ولا حد في حياتك قدر يصل بي".

كانت نبراتها تحمل حزن استطاع أن يبكي المتجلدين.

كانت عمتي سعاد أيضا مريضة حساسية صدرية، رأيتها وهي تدخل شارعنا وأنا خارج. وتسألني سؤالاً ليست له إجابة غير البكاء.

تمشي رويدًا، تتسند على الحائط، تسألني: هل مات؟

كانت دموع الجميع ومن بينهم النساء تجيب. تم الغسل وحملناه إلى المسجد كي نصلي عليه الجنازة، ونحن نحمله في الخشبة. والخشبة هي النعش المصنوع من الخشب، ولها أربع حمالات وأربعة أذرع كي يتم حمل الخشبة للمسجد. كان الفلاحين يقولون عليها (خشبة)، كانت النساء تبكين على أطراف الطريق ومن النوافذ ومن فوق الأسطح، يودعنه وهن يقلن له وهن يلقين الشاش من على رؤوسهن، يعقدنه على أناملهن و يمسكن به ويرمينه في الهواء، لكن يبقى طرفه في أيديهن ويقلن له والدمع في أعينهن، (مع السلامة، مع السلامة، مع السلامة). كانت النساء تشلي وتلوح برمي اللاشيء بأيديهن تجاهه، ولكنهن فيها يُرسلن له الدعوات والسلام والوداع والسماح والقضاء عنه ما عليه وهذا هو المعنى المادي الذي حققته حركة اليد. التلويح باليد للميت أو نزع الشاش من على الرأس عادة مصرية لا تفعلها النساء المصرية إلا لكل عظيم، وكأنها فقط الآن نزعت التكليف الذي بينها وبينه، في الوقت الذي لم تستطع أن تكون بلا شاش أو غطاء رأس أمامه وهو حي، وهذا هو المعنى الروحي.

كان أبي يبكي ولا يقول إلا: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

حضر الجنازة القِس أدمون وسعيد العرب وحميد أخوه.

وبعد قضاء صلاة الجنازة، كانت السيارات النصف نقل يتزاحمون كي يحملوه، ورفض جميعهم أن توضع الخشبة في سيارته التي كان يقودها العم ناجح ويعمل عليها بذهابه إلى أسواق الجملة،

رفض كل من لديه سيارة أن يوضع النعش في سيارته احترامًا له، وأنه واجبٌ عليهم حمله، فقد عطل عمي عبد الله أعماله كثيرًا من أجل حمل هذه الخشبة في جنازات كثيرة في القرية، ووجدوا أنها إهانة كبيرة لهم إن تركوا ذلك يحدث، كي يردوا له بعضًا من كرمه على الناس.

بعد دفن عمي عبد الله، رجعنا وجدنا كل المنطقة مزدحمة، وأصواتًا عالية، من النساء التي تحمل الطعام فوق رأسها لتذهب به لـ (ديوان العائلة) كانت الصواني كثيرة جدًا، وكانت تحمل اسم (طبلية) وجمعها (طبالي)، وهذا ما بدأت عليه قريتنا قديمًا، وقد شاهدته في طفولتي. كانت النساء تحمل الطبالي الدائرية المصنوعة من الخشب، لكن حديثا تم تبديل الطاولة لثقلها وضعف النساء الجديدة أو الجيل الأصغر من النساء العفيات، بصينية دائرية من الألومنيوم تكون أخف وزنًا من الطبلية، يوضع عليها الأكل المطبوخ طازجًا، بدلاً من الطبلية. كانت هذه عادة مشرفة قد حافظت عليها قريتنا دون القرى المجاورة لنا، لكن عدد النساء

وصوانيهن كان لا يوجد لهن مكان من كثرتهن، حتى أن أبي قد أمر النساء بوضع الصواني على الأرض وأمر أبي كل الواقفين أن يجلسوا على هذه الصواني كي تعود النساء بها لبيوتها، حتى الجدة مرسى صاحبة جدتي لأمي، رأيتها هي وزوجة ابنها في الشارع تريد الدخول. لكن الشارع قد مُلئ بالناس والنساء، فلم يكن هناك سبيل إلا إرضاء الجميع من الذين جاءوا بطعامهم.

جلست على طعام العمة مرسى كي أجبر بخاطرها وأنا ليست لدي رغبة الأكل. كانت النساء حريصة على أن يجلس أحد من أهل عمي عبد الله على طعامهن مثل أبنائه وأبي وأنا وأخي. فنحن أقرب الناس إليه.

يتم إحضار الطعام يومين على الأقل في الغداء والعشاء، وليس الأمر متوقفًا على وجبة واحدة تأتي بعد الدفن. إن توفى المتوفة صباحًا، فيكون في مأتمه غداء وعشاء ثم مثلهما في اليوم الآخر.

وإن توفي بعد الغداء ودفن عصرًا يكون له عشاء ثم في اليوم التالي غداء وعشاء. أما أكثر الصواني فتكون في اليوم الأول للمتوفى دون يومه الثاني.

هذه الأطعمة أبدًا لا يطلبها أحد من أحد، إنما هي تأتي هكذا، عادة حسنة، من الجيران وبيوت العائلات المقيمة معنا في القرية.

حتي أن هناك قُرى يذبحون الذبائح في المآتم، وهذا أمرٌ ترفضه قريتنا تمامًا، ومن أهم أسباب الرفض، هو أنك اليوم تستطيع أن

تذبح لأبيك عجلاً، وغدًا لا يستطيع غيرك إن مات أبوه فعل ذلك. فكان من الأصلح والأرجح ولا بديل سواه، هو أن نحافظ على هذه العادة التي تحافظ على كرامة الفقير قبل الغني.

رأت جدتي موت ابنها عبد الله في حياة عينها، ولحقته عمتي فاطمة وعمتي سعاد.

كانت جدتي صامتة تبكي بداخلها بكاءً كاد أن يُقطع أحشاءها وهي تنتحب أبناءها واحدًا تلو الآخر. حتى أنني سمعتها تدعو الله بأن تموت قبل وفاة أبي في حياتها، كان هذا قدرًا موجعًا لها.

وكنت قد نسيت جملتها التي اعتادت قولها لأمي بأنها سوف تزوجه حفيظة.

إلا حينما فعلها شيخ الخفر زوج عمتي سعاد بزواجه من حفيظة بعد قضاء أشهر قليلة من وفاة عمتي سعاد. كنت قد تذكرت هنا مقولتها لأمي التي عَكفتْ على خدمتها كل سنين مرضها وحزنها على أبنائها في بيتنا. كانت أمي مِثالاً للرحمة، وهي تعتني بها كما لو أنها تعتني بأطفالها. كانت تفعل كل ذلك لله؛ لأنها ابنة أصل، أبوها كبير عائلتنا، عم أبي، مات وقد ترك مسئولية العائلة لعمي عبد الله. كانت جدتي آسفة لأمي، وهي ترى حفيظة التي أقسمت على أمي تزويجها لأبي، يتزوجها زوج ابنتها شيخ الخفر السيد أحمد سالم بدلاً من أبي.

ضعُفَ بصر جدتي وثَقُلَ سمعها. وهاتان الحاستان يُعاني

تعبهما المرافقين أو المقيمين مع المريض، لكنه يكون خارجًا عن إرادة الأبناء أو الأخوة أو حتى الآباء، إلا مع أمي، فلم أرها أبدًا قد علا صوتها على جدتي، قد كان يفعلها أبي ولا تفعلها أمي، كانت طويلة البال على جدتي، تتعامل معها كما تتعامل مع طفلٍ من أطفالها قد أصابته الحُمى، وصدق من قال: "مرافق المريض، مريض". فقد ينام المريض ولا ينام مُرافقه، ولعل أصحاب الصدور الواسعة في عائلتنا رجالٌ تَعدهم في ثلاثة عُقل من إصبعك، لم يتبين لي هؤلاء الثلاثة إلا حينما مرض عبد الهادي ابن عمتي فاطمة.

كان عبد الهادي من سلالة المنغوليين، أو ما هم معروفين بمتلازمة (داون). كان لعبد الهادي عالمه الخاص، لا يستطيع أي أحد أن يقيد حريته في فعل أي شيء يريده، كان تقريبا عمره من عمر كل شباب العائلة أمثالي وأمثال أبناء عمومته، تربى معنا وتربى على الدين، فكان لا يترك فرضًا من فروض الصلاة، وكان يتوضأ جيدًا، لكنه أبدًا ما سلم بعد الإمام. يفعل كل شيء صحيح في الصلاة، لكنه كان يحب أن يُنهي صلاته قبل الجميع. أحبه كل الناس لفطرته وصراحته. فكان يعلم أسرار الناس، أسماءهم وشهراتهم، وكان ينادي من اعتاد المزاح معهم بأسماء أمهاتهم، إلا في أيامه الأخيرة، كان يناديهم بأسماء زوجاتهم، تلميحًا لنا بخضوعنا لهن، وأنهن يسيطرن على الرجال. فكان وكأنه يعايرنا لخيبتنا، كانت له شعبية وتاريخ لم يصنعه عضو مجلس شعب لنفسه في مركزنا. كان يعرف

كل الناس وكل الناس تُحبه. كان أيضا طويل اللسان، لكنك إن أسكتهُ سكت. ومن اظرف مواقفه:

أن مأمور قسم الشرطة في مركزنا قد أمر بجمع كل المتخلفين عقليًا بجميع أنواع مرضهم، بعد الإشارة التي جاءته أن المحافظ سوف يأتي يفتتح المدرسة الثانوية، فكان قبلها حادث إصابة الرئيس مبارك في ذراعه من قِبل مواطن في بور سعيد قيل حينها أنه مختل عقليًا.

وبناءً عليه كانت الإجراءات الاحتياطية لتجنب تكرار ذلك مع كل المسئولين في الدولة، فكانوا يحتجزون أمثال عبد الهادي، لحين انتهاء الزيارة.

وقد كان بالفعل، وانتهت الزيارة، وتفاجأ مأمور القسم أنه بحاجة لمن يضمن هؤلاء المختلين، فقد تم جمعهم من الشارع. وبعد جمعهم. قال المأمور للمعاون:

- نريد أحدًا يضمن هؤلاء كي يخرجوا.

خرج عبد الهادي برأسه من الطابور وقال:

- أضمنهم أنا يا باشا.

مما أضحك المأمور والمعاون وكل الواقفين من رجال قسم الشرطة.

فكان عبد الهادي أعقل المجانين. كانت الناس تستبشر به

الخير، حتى أن صاحب مطعم مشويات، اعتاد عبد الهادي الذهاب إليه يوميًا كي يأكل في مطعمه، يقسم صاحب المطعم أن اليوم الذي لا يأتي فيه عبد الهادي ليأكل، يكون رزقه أقل من الأيام التي يأتيني فيها.

حتي أن صاحب مطعم المشويات (حسام) قد جاءه عبد الهادي ذات مساء مُتأخرًا وكان حسام صاحب المطعم يُغلق مطعمه، ولم يكن عنده طعام.

فقال له عبد الهادي سوف آتي معك لبيتك كي اتناول معك أنت وزوجتك العشاء، تبسم الرجل وصَحِبهُ معه إلى منزله، وأمر زوجته بإحضار الطعام، إلا أنها كانت نافرة من عبد الهادي، وتكلمت بأسلوب لا يليق مع عبد الهادي، فأقسم عليها ألا تجلس في بيته، وأن تذهب إلى بيت أبيها، وأطلق من فمه طلاقًا أن لا أحد سوف يُعيدكِ إلى هذا البيت مرةً ثانية إلا عبد الهادي.

ذهبت المرأة غاضبة إلى بيت أبيها، وذهب عبد الهادي إلى بيته، وبعد أسبوع جاء أحد أقارب صاحب المطعم، لمحمود أخو عبد الهادي الأكبر الوصي والمقيم على رعايته، يستأذنه بأن يصحب عبد الهادي معه ليُرجع زوجة حسام صاحب المطعم؛ لأنها غاضبة في بيت أبيها وقد حلف زوجها طلاقًا بأنها لن تعود إلا مع عبد الهادي، ذهب عبد الهادي على رأسهم ليُعيدها من بيت أبيها إلى بيت زوجها، لتُحضر له الطعام آنِفاً وهو يقول لها سلمت يداك يا (عروسة) مما أضحكها، وصفيت له سريرتها الآنفة.

فكان محمود ابن عمتي فاطمة أخو عبد الهادي واحدًا من الثلاثة ذوي الصدور الرحبة في المعاملات مع الحالات الخاصة، هو ومحمد صديقي وابن عمه (عصب)، كان عبد الهادي ترتاح نفسه أكثر لهذين الشخصين: محمود أخي ومحمد ابن عمه وصديق طفولتي، كانا يلبيان كل رغباته، حتى رغباته المملة والمتعبة في آخر سنوات مرضه، الذي قال عنه الطبيب إنه مرض مؤلم في العظام والأعصاب، أو ضمور في الأعصاب، أو العضلات، وتختلف حالات الداونيين في المرض، في حين أن جميع المنغوليين يولدون بخلل في الدماغ وثقب في القلب، وهذان هما العضوان الرئيسان في تكوين أو مساعدة وخدمة ما تبقى من الجسد. والمريضُ كأنه هو وحظه، يموت بضمور في الأعصاب، أو ضعف عضلة القلب. ولا يعني الحظ بالموت. إنما حظه في مرضه الذي أنجاهُ الله من كل ما اقترفناه ونُحاسب عليه. إلا إذا وجبت شفاعة عبد الهادي في كثير من أهله، تموت خلاياه العصبية كل يوم دون اليوم الذي قبله. فكانا يقومان على رعايته ومتطلباته الكثيرة من معاناة وضع جسده على أي وضعية. كان يأمرهم بالنزول من سريره طورًا، وبعد دقائق يطلب الجلوس، ثم الصعود إلى سريره، ثم طلب النزول، لم يرتح جسده في أواخر شهوره إلا بقضاء أجله. بل وصل الأمر أن محمودًا أخا عبد الهادي، قد بَطن المقعد خصيصًا له كي يرتاح في جلسته. وذهب إلى النجار كي يصنع له منحدرًا في موضع الساقين وهو جالس على المقعد، لأنه يعاني من رفع ساقه.

والغريب العجيب أن شعبيته حتى في دفنتهِ ومأتمه كانت أكثر عددًا من المشيعين بكثير في جنازة وعزاء الأستاذ سيد الذي مات في نفس أسبوعه، وكان يعمل فنيًا في وزارة الكهرباء، وتوفى بعد قضاء خدمة عمله بعام. فأصحاب هذا البال الطويل والصدر الرحب، يمكنهم التعامل مع الشياطين دون أن يخسروا شيئًا، محظوظون في الحياة الاجتماعية على عكس الغَضْبىَ والعصبيين أمثالي وأمثال أبي، ولكن العصبي هذا لديه قوه تحمل وصبر أضعاف الهادئين، لكن غضْبته تترك أثرًا كبيرًا يُنسي كل من حوله صبره وحلمه، لأن من أسباب عصبية العصبي المفرطة هي تصرفات من حوله. فالعصبي هذا عقله يختلف كل الاختلاف عن الهادئين. ولعل عكسية التفكير أو مقابلة الحِمية بالبرودة هي ما تجعله يتحول من مجرد عصبي إلى مريض عصبي، فأكثر ما يعاني منه العصبيون هو تعاملهم الفرضي مع الهادئين، لكن حبذا إن أحببت فيهم قدوة أو اتخذت منهم محبًا أو صديقًا، مثل صديق طفولتي محمد ابن عمي، نعم ستعاني، لكنه سيتحملك. وما عليك إلا أن تأخذ منه حلمه البارد هذا أو شيئا منه، بالطبع لن تصبح مثله، لكن سوف تكتسب منه مهارات التعامل مع الآخر حتى وإن كانت مُبالِغة أو بها نفاق، لكنهم خبئوها في أظرف جبر الخواطر.

كان أبي شديد الاهتمام بجدتي وحريصًا كل الحرص على إرضائها، وعلمنا وأمي كيف تكون المعاملات الأخلاقية. لكن هذا لا يعني أننا كنا مُقيدين بروتوكوليًا أو نحافظ على ما يحافظ عليه

المتحضرون أمام بعضهم البعض، فكان جميعنا عصبيًا ونقاشنا مع بعضنا الذي تعودت عليه الجيران بصوت يُدعى أنها مشاجرة وليست مناقشة، رغم أن أمي من بني جنس أبي ودمه، إلا أن الخلاف والعصبية بينهما كانت من الطبيعي حدوثها. فأمي امرأة فلاحة، ولدت في عز أبيها فقيرة، فإخوتها من أبيها أحد عشر. منهم من أمها خمسة، نشأتها وثقافتها ريفية صِرف في عادتها وتقاليدها. في نفس الوقت زوجها الذي من بيئتها لديه ثقافة مكتسبة، وتجارب كثيرة، وعقل واسع، وعادات مغايرة، تمنحه دكتوراه في التنمية البشرية، رغم أنه لم يحصل على الابتدائية.

كان أبي وكأنه يبدع في تقمص الأدوار. لكنه لم يكن فنانًا يمثل مشاعره، التي تجهش بالبكاء لو أثر فيه عالم دين بحديث، أو راوي عن عِظة. طيبٌ يُصدق الذي يمكن تصديقه.

إنسان آخر في الفرح ضحوك الوجه، لا تظهر عليه الصُفرة أبدًا، وإن أمكنه الرقص يفعلها إذا كانت العروس أختي نسرين مثلا.

كان أبي بالنسبة للمتدينين والمتمدينين محل نقض ونقد، رجلٌ يحافظ على صلاة الفجر، ويمكنه أن يشاهد في التلفاز أي شيء يعجبه، حتى وإن كانت أغنية شعبية. (يعيشها كما قُدرت)، طبيعي، باعه طويل في معرفة الناس، يصل رحم أصدقائه في مراكز ومحافظات أخرى.

لديه عزيمة لا يملكها غني. حينما كان فقيرًا الخير في بيتهِ موجود، والود ممدود. بيتنا ليس له مفتاح، مثله مثل بيوت كثير من قريتنا، وهذا لوجود الأمان، ولتواجد النساء في بيوتها بشكل دائم، إلا في العقد الأخير المتلاحم في ثورات الربيع العربي، الذي تراجعت فيه أمور كثيرة عن طبيعتها التي كان يجب أن تسير عليها، مثل تأخر تعييني معيدًا في كلية الهندسة، وفراق دونكا عن روحي.

كانت دونكا تدرس علم النفس، أقسام الروحانيات وعلوم السند والهند، أو كانوا يسمونها علوم الغيبيات، وكانت هذه تقريبا ليست متاحة إلا في جامعات العلوم الحديثة والآداب. وأحيانا كان يتم الزج بأساتذة هذه العلوم التي كان أعلم دارسيها أو متخصصيها إلى السجن، يمارسون السحر لتحقيق الغاية الرئيسة لإبليس الأول والثاني ووزرائهما إلا قليلا منهم، وكانت هذه المدارس أو أصحاب هذه المدارس ينقسمون إلى قسمين، قسم يدرس علم الروحانيات بطريقة مشروعة، يُحصِل منها العلم والمعرفة فقط.

وقسمٌ يدرس العلم ذاته وينمي هذه النظرية إلى عملية بممارسة السحر. ومن أشهر ممارسي هذه العلوم الذي شيع عنه ذلك، السيد الحسيني مواليد حي بولاق الدكرور في أول منتصف القرن العشرين.

علي عكس الجامعات الحكومية التي كانت إقبالات التنسيق الطلابية من تحقيق الرغبات بعلوم الطب والحقوق والرياضيات

والعلوم الإنسانية، والتعتيم أو عدم الاهتمام أو قلة العباقرة إن قالوا على طلاب كليات العلوم التي تُدرس الفيزياء وعلوم الأرض.

وتتبقى علوم الهندسة المدنية وهندسة المعدات والإصلاح والصيانة، وأيضًا هندسة الحاسبات، وعلوم الطاقة المتجددة والمستدامة. وكانت هذه معتمدة على التطور التكنولوجي الذي وصل له العالم في الخمسين عام الأخيرة.

دائما ما كنت ألتقي بدونكا في آخر اليوم حتى تنتهي من دراستها بعد الساعة الثانية، أو ربما بعد الرابعة عصرًا.

كانت دونكا جيناتها الوراثية غريبة جدًا في ملامحها. فكانت شفتيها كفصين من البرتقال، كانتا تستفزان خجلي وعادتي، وأيضا عشرتي لها ولأمها التي كانت تعلم أن أمنها وأمانتها وأُمنيتها معي.

شعرها أسود ينتحل الأصفر طورًا وطورًا البني، لون جلدها ثلاثة ألوان تم مزجهم سمره لا تُرى إلا في الشتاء وحُمرة في الصيف، والبياض يطغى في الفصلين على حُمرتها وسُمرتها، أنيابها كانت حادة، رأيت ذلك حين سرقت لها قصبًا من الحقول المجاورة، ويبدو أن الزمار فعلا يموتُ وأنامله تلعب، لكنني لست زمارًا أو سارقًا، إنما كانت دونكا بالنسبة لي كطفلة لأبٍ فقير يسعد إذا طلبت منه شيئًا في مَقدوره مثل القصب الرخيص الثمن، عسير العقاب إن كُتب. لم يمكث العود بين يدها دقيقتين، كانت ترشف ماء القصب وكأنها، معصرة قصب، كان ذلك غرب النيل قرب الجنائن التي اشترتها نوار، كنت أذهب مع دونكا في القارب

الكهربائي، أختلس منها نظرات الجن الهائمة في عشيقها، بعدما انتهت من قصبتها بهذا العنفوان الرقيق، سقط كثيرًا من وبر القصب على صدرها وداخله. كنت حينها انتظر نتيجة آخر العام للسنة الأخيرة، وكذلك دونكا، ولم يتبقي غير إقناع أبي أن أتزوجها.

تحدثت معي دونكا عن حبها لي، وأرادت إخباري بشيء أو أشياء لم تقل جميعها، كان هذا واضحًا من توترها أمامي، تجرأت بوضع كفي أعلى صدرها أزيحُ العِهن الأبيض الذي على ثيابها، قبضت كفي برفق وأثبته في منتصف صدرها.

وقالت إن في جسدي شيئًا مغايرًا ليس متواجدًا عند كل النساء، ظننت أنها تقصد (وحمة) أو بؤشة أو علامات بُنية أو حمراء أو خلاف ذلك، لكنها أوضحت لي أنه ليس كذلك. وسحبت يدي تجري بي لوسط الحقول الزهرية نضرة الزرقة، وتُري سوداء في الظل، لين التربة ألين من عشب الملاعب الخضراء.

كان شجر البرقوق في نهاية فصل الشتاء يُزهر الزهور البيضاء على أغصان عارية تمامًا كشجر الكريسماس المُضاء بالنور. غير أن زهر البرقوق أشبه بدراهم الثلج الساقطة من السماء، كنت قد اعتدت أن اصطاد لها بأناملي فراشة (فرسة النبي) التي كانت ترسو على أغصان البرقوق العارية، وكانت فرسة النبي بأربعة أجنحة وذيل طويل، كنا نترقب بهدوء خلف هذه الطائرات الحشرية الجميلة ونقبضها من ذيلها أو أحد أجنحتها، كان ذيلها بلونيًا منتفخًا يعلو ويهبط بين أناملي غير أنه طويل ويشبه ظهر الفرس،

كانت وكأنها فرسة بأربعة أجنحة.

توقفت بي وهربت واختفت مني وضحكت. فوجدت رأسها متدلية من فوق شجرة المانجو العتيقة، وساقاها ملتفة على غصنها، فأصبحت مثل الجن المُقيد من قِبل مشايخ وعلماء الدين الذين يعملون على محاربة العفاريت بالقرآن.

- دونكا، ما هذا؟ لمَ معلقة هكذا؟

- أود أن أُريك شيئًا في جسدي.

- ولمَ تودين أن أراه وأنت هكذا؟

- لا أود أن تراه على حقيقته.

كان شعرها يثيرني مع كشف عنقها. كنت واقفًا على الأرض وهي معلقة، وجهها في منتصف رأسي.

- أحبكَ وأخاف

- أحبكِ ولا أخاف.

سرقت فمي في فمها الصغير، ولا أدري كيف تمطت واقتربت بهذه الانسيابية والقوة العصبية في اتزان جسدها. أسكرتني كأنها نبُتت من شجرتها العتيقة هذه.

- ما الشيء الذي في جسدك تودين أن أراه؟

- اقترب.

- أين أكثر من ذلك؟

- تحت نهدي وانظر.

أسقطت ثوبها وكشفت لي توأمين متماثلين يُغريان ويُفزعان في آنٍ واحد.

لن أستطيع الحديث، شعرها الساقط حِرامُ صدري، وانا أمام عنقودين ليس لهما مثيل في خلق النساء.

قلت: سبحان الله.

- مولودة هكذا، بثديين وأربع حلمات.

تنشق كل حلمة عن أختها المنتصفة مثل إصبع سادس نزل به جنينٌ من بطن أمهِ هكذا، ليكون بإثني عشر إصبعًا في قدميه، بدلاً من عشرة أصابع مثل كل البشر.

- وماذا قال لكم الطبيب؟

- سمعته يقول لأمي إنها جينات نادرة قد تكون متعلقة بالبيئة التي ولد فيها الطفل.

أي أن السبب هو البيئة التي دخلتها نوار وهي طفلة. وبالنسبة لدونكا فالشيئين معا، ولادتها في البيئة وأيضا خرجت من بطن نوار التي نكحها الإنس والجن، ولعل ما يُنسب للإنسان من البيئة هي العادات والتقاليد واللون أكثر من هذا الشذوذ، فألوان الطبيعة في جمال وجوه ساكنيها، كما أن المناخ له عامل

كبير على استخراج اللون أو التفاعل مع اللون الأول، وهذه أمور ليست مرتبطة بتشكل الإنسان في بطن أمه كيفما شاء الصانع الأعظم، وإنما يرث الإنسان أشياء من المناخ مثل اللون من درجه الحرارة، التي ستجد سكانها سود بالقرب من خط الاستواء، أما الأبعد عنه مثل شمال إفريقيا ستجدهم بين القمحية المائلة للسمار أو الفاتحة للبياض، وستجد سكان القطبين لونهم مثل لون ثلجهم الأبيض وعيونهم مثل اخضرار النباتات أو زُرقة الفراشات، ويمكننا فقط قبول ذلك إذا خيرنا بينها وبين أن الإنسان كان أصله قرد، ولم يعترض المجتمع الإنساني على نتيجة الأبحاث في وصولها إلى إن الإنسان من أصل قرد، إلا لأننا نرفض أن نكون أبناء قِردة وليس لثبوت حقيقية الإنسان التي وصلتنا نحن دون الغرب مبكرًا، حينما فصلها لنا ربنا في كتابه القران الكريم، في قوله

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ) [المؤمنون]

بالطبع لن يكون المناخ له تأثير مباشر على الابن أو الأب أو حتى الجد، إنما الأمر مرتبط منذ بدء الخليقة، قبل أن يسيحوا أبناء آدم في الأرض، فمن الطبيعي أن أبناء آدم عليه السلام أن تكون ألوانهم واحدة إلا اختلاف بسيط، لكن عمارة الأرض بالبشر نمت مع بعضها البعض في التفاعل مع البيئة باكتشاف الزرع

والنار واستخداماتها، غير أن كل جماعة اصبح لهم لغة هم اول من نطقوا بها. ثم زادت مع زيادة المكتشفات التي اختاروا لها أسماء غير التي نطق بها آدم؛ لأنه بالطبع آدم عليه السلام، كان يعلم كل الأسماء لكنه لم ينطق بجميعها، إنما نادى بها الأشياء الحاضرة هو وأبناؤه من بعده حتى اكتشاف جسم جديد يتطلب إلى اسم جديد، ولأن اللغة إرث أيضا فنطقنا مثلما نطق الأولون، وكل جماعة لها مناخها الذي تطلب منها التفكير على كيفية العيش فيه ومعه. فمن يجوع لن يترك نفسه حتى يأكل، لكنه كان لا زال يتذوق ومن الطبيعي أنه سيأكل أي شيء في البداية، لكنه حينما تتعدد تجاربه في الطعام يكون من الأسهل عليه الاختيار، وفي الاختيار اجتهاد، فورق الشجر الذي في وسط الأرض لا يتطلب في أكل ورقة سوى الصعود إلى الشجرة، أما أكل السمك يحتاج لشبكة أو آلة، ويتطلب النزول للماء والمحاولات المتكررة لاصطياد السمكة، فما بالك إذا جاءته فكرة الشواء؟ بالطبع سيحتاج لحطب.

فالإنسان الذي استذوق الشواء واخترع النار من الصخر في الأغصان، ليس أقل عبقرية من الذي صنع سيارة في ظل توافر المخارط والمكابس والخامات وآلة التشكيل، هو أمرٌ يشبه من جاد عن حاله في مسائل الكرم والجود.

نوار كانت تمارس حياتها وكأنها ماسونية لا تفعل إلا المحرمات

الأخلاقية والشرعية، كثيرةُ التُحف ولكل مومياء حارسها، كان ذلك له كبير أثر على القديمين: قديم الحضارة، وقديمُ أبي.

قديم الحضارة في التمثال الفرعوني المتورك، وكأنه ينتهي من الصلاة في تشهده الأخير، كان يتهربُ ملاك حضارتنا من نوار بشروعه في الصلاة.

وأبي أكمل نهاية صلاته بالتسليم لله وسَبحَ تسابيح الصلاة فعصمته ونجا.

أما أنا أصبحت أتعلم الدين ولا أكثر من عمله أو العمل به.

فلولا أن الدين اتباع لهلكنا.

مددت يدي أخنقهما فلم أجدها، إلا وهي تحتضنني من الخلف. استفزتني طريقتها الباردة السحرية هذه، وكنت قد حذرتها من عملها هذا كثيرًا، أو استفزني برودي الدائم تجاهها، وكانت أول مرة أقترب من دونكا هكذا. سحبتها من خلفي. احتضنها بقوة المكبوت والمتوتر. بقوة الحب. بل أكثر. مالحٌ ريقي منذ ولادتي.

"وترياقُ دونكا أبدل أجاجتي سُكرْ".

قاومتني، تجري وسط الأشجار وتُسقط قطعةً قطعةً من ثوبها كلما توغلت أكثر.

كانت مجنونة عشقٍ في عشقي.

أمسكت بها عارية خلف شجر الموز، أنسل أحزمةً من الشجرة وألفها حولها، وأجذبها على صدري، فتدفعني وتقع للخلف وأنا أقبض على شريط شجرة الموز المنسول، فتقع بظهرها عليه، ثم أسحبها لتقع في صدري.

نظرت في عيني تتلعثم، تود قول شيء، تضع معصميها على نهديها.

"إذا كنتِ تخافين أن أقتلك، حينما تقولين لي أُحبكَ، فقوليها واختبئي في صدري، سيدافع عنكِ بشراسة".

لم يكن هذا الجمال الذي بدت عليه دونكا جمالاً عاديًا على حواسي العذرية. كانت الشياطين تحفنا من كل جانب فرحين بعروسين جديدين.

"أحيانا يتحول ذلك الشيطان إلى وحي وهو لا يدري".

حينما يؤثر على قلبك بحب امرأةٍ كونية، كي يوقعنا في بعضنا عشقًا، فنتوب عن البعد، فينصرف عنا وهو لا يدري أننا أطعنا الله بهذا الحب، فكلما أردنا بُعدهُ عنا اقتربنا أكثر.

همست دونكا في أُذني:

- أريدهُ شبهك.

- لكنني أريدها شبهك إلا نهديكِ.

- ألم يُعجبكَ؟

أجابتها حماقة يديَّ لهما، تسرف مشاعرنا في الالتفاف ببعضها، بنهم المجانين قضيت منها وقضت على ثِقل أعمالي الصالحة. انتهينا نبحث عن ثيابنا المنشورة على رؤوس العشب العذب.

كانت دونكا تلبس في إصبعها خاتمًا رجاليًا. سألتها كثيرًا عنه، وكانت تجيب أنه هدية من أبيها، ولم تقل من أبي. حملتها إلى القارب وانطلقت بها إلى الضفة الشرقية، حيث بيت نوار الذي يطل على النيل، لأجد مفاجأة لم أتوقعها. أبي جالس على أريكة بجانب نوار ينتظرانا، والبسمة على وجه نوار، والصمت الذي خلفه أحاديث كثيرة على وجه أبي. دنونا منهما مُتَوترين فقط لفعلتنا التي انتهت من دقائق.

جلسنا جميعا، وطلبت نوار يدي لدونكا من أبي، وهذا أمرٌ لم يفعله أحد إلا نوار. صمت أبي وحاولت نوار إقناعه بأنها لا تأمن عليها إلا معنا، فدونكا ليس لها أحد بعد نوار إلا نحن، هكذا كان حديث نوار أمامنا. نظر أبي إليّ وكأنه يريد أن يقول لي انسحب من هذه العائلة أفضل لك. لكنني بعيني رفضت دون أن أتحدث. لكن يبدو أن أبي قد استسلم ولا يستطيع فعل شيء بهذا القدر. فوافق أخيرًا. لكن نوار فعلت شيئًا لم أتوقعه؛ جثت أمام أبي تبكي لموافقته وتقبل يده. وأبي يسحب كفه مثلما يسحبها البابا من تقبيل أبنائه عند لقائهم إياه.

كان كل سكان القرية فرحين من هذه المُصاهرة التي تؤنسهم بالخير الذي تضخه نوار عليهم.

كان ذلك في العشر الأوائل من شهر أغسطس حينما كنا ننتظر الحصول على شهادتنا أنا ودونكا التي تخصصت في علم النفس.

حتي جاء اليوم الذي أفسد كل حياتنا، أو بالأخص أنا ونوار.

في صباح الخامس عشر من أغسطس ركبت دونكا قاربها تبحث عني في حقول الشاطئ الشرقي. فكثيرًا ما كنت أذهب إلى الشاطئ الغربي إما بالقارب الخشبي أو عومًا. وهذا فعلٌ اعتدنا عليه حين كنا نُراهن بعضنا ونحن صغار على قَطعه عومًا ذهابًا ثم إيابًا. لم يكن سِيَاقًا أكثر من تحقيق الذهاب والعودة، يحق فيه لكل العائمين الراحة والتوقف عن العوم وقتما شاءوا، لكننا لم نفعلها إلا بعد قطعه ذهابًا، كنا نستريح على الشاطئ الغربي دقائق، ثم نعود إلى الشاطئ الشرقي. لم أكن هناك حينما ظنت وجودي هناك. لكنني أتيت متأخرًا وأنا أرى منسوب النيل قد طفح وفاض، كما يحدث له هذا كل عام في هذا التوقيت، لعيد (وفاء النيل) الذي كان يحتفل به المصريون القدماء في مصر، اعتقادًا أن فيضانهِ هذا يمنحهم الخير الأخضر الوفير، فكانوا يهدونهُ الهدايا الثمينة، وكان يُطلق عليه الإله (حابي) وكانوا أيضا يشبهونه بالإله أوزيريس بزواجه من إيزيس التي أنجبت لمصر الإله الصغير (حورس) واعتبروا أن النيل في عطائه يشبه عطاء أو إنجاب حورس للمصريين.

لكن النيل المُحب على قلبي وروحي لم يكن وفيًا معي كما كنت وفيًا معه، وأنا أجلس بجواره بصمتي الهادئ الذي يشبهه،

كان موجه الشجاع الجبان الذي كان يكر ويفر إذا اصطدم في الجُرف.

رأيت في ذلك اليوم وأنا على الشاطئ الشرقي، دونكا وهي تغرق في منتصف النيل، لم يكن لدي سبيل أو وسيلة سريعة لإنقاذها إلا إسراعي لها، أسبح أشق مجرى النيل المتدفق من الجنوب؛ كي ألحقها قبل أن تغرق كما يشق الخيل عكس الرياح. كان الماء ثقيل وسريع وكثير. خمس دقائق سباحه كانت كثيرة كي أنقذها، كان جريان ماء النيل سريعًا في هذا اليوم دون أي وقت آخر في العام. (هاج يسرق بنت الشامِ والعربي، حقا إنها أفضل عروسٍ للنيل، أحسنت الاختيار يا صديقي، ما كنتُ أظن أن الغدر يأتيني منك يا صديقي. لا تقبل إلا الثمين. لكنها يا صديقي (دونكا) التي لا تُقدر بثمن).

فلم يكن الألم في موتها أكثر من العثور عليها، فتشت تحت القارب وفي منتصف النهر أصرخ بها وعليها وعلى النيل، لم يجبني أحد. خرجت نوار مسرعة تصرخ ولا تقول إلا كلمة واحدة ظلت ترددها شهرًا: (ذهبت، ذهبت). ولا أحد يعلم ماذا تقصد بالذهاب إلا ذهابها للعالم الآخر.

ظل أهل القرية يبحثون عن جثتها أكثر من ثلاثة أشهر، حتى وصلوا إلى رشيد. وأخبروا كل الصيادين على شواطئ النيل من قريتنا لرشيد.

ظلت نوار تبكي على حظها وبؤسها تنتظر جثة دونكا.

قضيتُ عامي مثل المجنون على شاطئ النيل. يأتيني أبي بالأطعمة ويطلب مني العودة، لكني أرفض إلا أن أعود بها.

حتي شهادتي التي حصلت عليها بتقدير ممتاز لم أعِ الاهتمام للنظر فيها، ولا جواب تعييني معيدًا في كلية الهندسة. أهملته.

عكفت على النيل بعيدًا مثل المجاذيب. لولا أنه يُخرج الطاقة السلبية من الجالسين أمامه لأشربته إلا قليلاً منه للعابرين. مر عام ولم تستطع نوار العيش في المكان الذي فقدت فيه ابنتها دونكا.

ذهبت نوار إلى جازان وقد ظهر عليها الشحوب والحزن والأسى.

أردت البعد وأنا على أمل العثور عليها أدعو الله فيها ما دمت حيا، كان كل الشعب في وادٍ وأنا في وادٍ آخر. فمصيبتي أكبر منهم بكثير، فالكل يحتفل بالثورة بإصابة الوطن فقط. أما أنا فلي وطنٌ فقدته. بالفعل كانت أخبار لا يُبالي لها الشعب، لأنه منشغلا بالثورة ومطالبها. وكانت الأحداث كل يوم يوجد بها الجديد. اذكر أن المظاهرات في ثورة يناير كانت تحدث في أي مكان وأي وقت وأي شخص من الممكن أن يحشد لمظاهرة، كانت طاقة مكبوتة لأجيال كثيرة، وكانت تجربة استفاد منها ليس الشعب المصري فقط، إنما كل الشعوب التي حدثت فيها ثورات، كانت خطوه موفقة وإن لم تكن مقصودة، فقدرة كل شعب وثقافة كل شعب وصبر كل شعب ظهرت من خلال تجربة الشعوب لثورات استطاعوا فيها تقييم الذات، وكثير من دول الربيع العربي وقعت وانهارت بعد الثورات. وبدأ الحديث عن بناء سد النهضة الإثيوبي،

فلم تكن هنالك حينها دولة كاملة الأركان تمنع أو توقف على الأقل هذا العمل للبت فيه.

لكن مصر وإن لم تستطع منع البناء حينها فقد تجهزت لصدهُ عنها، وهذا ما بدا حينها من الأنباء التي ذكرت والتقارير التي نُشرت بأن التربة التي سوف يقام عليها بناء هذا السد معرضة للزلازل وأنها تربة ليست آمنة. فكانت هذه مثل الحجة التي يأخذها الخصم على الخصم في الكلام.

كان هذا كافيًا لتُرسل مصر بعثة جيولوجية متخصصة في دراسة هذه التربة، وكانت البعثة تضم عددًا من أساتذة العلوم البيئية، وما يخص علم الأرض من زلازل وبراكين، وأيضا متخصصين مهندسين في اختبار التربة التي سيقام عليها السد. ومع تعطيل جواب تعييني مُعيدًا، تحول إلى بعثة لم ترَ فيها كلية الهندسة إلا الأكفاء أمثالي لترسلهم، كانوا قد اخطأوا وأصابوا.

أخطأوا إذ أن المتميز الحاصل على الدرجات أمامهم أصبح أشعث، قد يكون فقد عقله وهو لا يدري.

وأصابوا في أنني كنت في أشد الحاجة أن أترك بطن النيل وأذهب إلى فمه بعيدًا إلى هناك، حتى ولو لعامين فقط. كان أبي على اتصال بنوار حينها، أو إنها في حالٍ يُرثى لها، لكنها بالنسبة لأبي كان يتخذها عِظة، ولا كنت أشعر أبدًا أنه مُشفقٌ عليها. لم تبدُ عليه أي ملامح إعجاب لنوار أبدًا، بل كان الظاهر عكس ذلك تمامًا، كانا وكأنهما خصمان، كنت أحس بهذا.

في ذلك الحين كان أبي مُطلعًا على مجريات الحدث العمراني التوسعي للحرم المكي. كانت متابعته ليست من وسائل إعلام أو قراءته لصحف المملكة، إنما لوجود جيل خَلّفه بعده، أو قد يكون أحدهم صديقه مثل الأوسطى حنفي الحداد الذي كان مثل كل المسافرين أصحاب الحظوظ الشؤم، وقتما نزل المملكة كانت أعمال التوسعات قد أوشكت على الانتهاء، وعمل وقتًا قليلاً في بناء الفنادق التي تُشكل نصف دائرة في الشمال القبلي من الكعبة، مما يجعل مقيمي هذه الشطور أو الطوابق الفندقية يرون الكعبة كلما كان الطابق أعلى.

لم يمكث كثيرًا فسافر إلى ليبيا فقامت الثورة الشعبية والحرب الأهلية، مما أدى إلى نزح العمالة المصرية عبر معبر السلوم الدولي، حيثُ أولاد علي المصريين، أولاد علي في موطنهم هذا يُعد حالة اجتماعية نادره الوجود، مثل التي في قريتنا من قضاء عرفي وقانوني، لكن أولاد علي كانوا أيضا يحترمون العرف والقضاء لكن بشكل أوسع يمكننا أن نُسميه دولي، وهو تعاطفهم من داخل الحدود المصرية مع قائد الثورة الليبية العقيد معمر القذافي، أو كانوا على علم بالبزخ الذي كان يعيش فيه الشعب الليبي، ومثل هذا الدلال الخشن لا يُعجب المصريون، فهم نعم أقرب في المكان للحدود الليبية، فالمسافة من معبر السلوم لطُبرق مائة وخمسون كيلو متر، فكان الحدث في طُبرق يراه أولاد علي أوضح من الذي كان يقام مثله في القاهرة والإسكندرية، كان هذا أمرًا عرضيًا حينها في فترات الفوضى المنصرمة، ولا يغفل أحد تواجد أولاد علي

قد أقام سوق حرة بين البلدين، وكانت هذه تجارة تبادليه بين الشعبين عن طريق أولاد علي، يعني يمكن لشعب مطروح أن يتذوق طعم زيت الزيتون الليبي ويمكن لبدو ليبيا أن يتذوقوا زيت الزيتون المصري، لم يكن أبدًا تهريبا إنما يمكننا أن نُسميه توفيرًا، سيما أن هذه الأشياء المتبادلة لم تكن كميات كبيرة وكان جميعها أطعمة، مثل فاكهة مصر من عنب أو موز أو مانجو، لكن سرعان اعتدالهم عرفًا وقانونًا تجاه فكرتهم في غلق المعبر على الليبيين حينها للإمدادات كما ذكرت وسائل الإعلام في شهر مايو من عام الثورات، لم يسمع أحد عن بدو مطروح عامةً في ظل ثورة يناير على خلاف جميع البدو والعربان في الجمهورية، فكانت محافظة مرسى مطروح تتمتع بالسكينة والهدوء التام، كأن لم يكن هناك شيء قد حدث، إلا حينما وقعت الثورة الليبية والحرب الشعبية التي أدخلت عليهم حزب شمال الأطلسي الذي يمكنك أن تعده في القواعد العسكرية في ليبيا لفض النزاع الشعبي للحرب بين الشعب والشعب، والشعب والحكومة، ووقف إطلاق النار الذي دعت إليه الأمم المتحدة وجَرّت معها فرنسا والدنمارك وكندا وإيطاليا وبريطانيا، ولا أدري لماذا كانت معهم قطر، فلعلها كانت شاهدًا عربيًا لما يحدث، وفي ظل السكون الذي هدأ بتنحي الرئيس مبارك قامت ثورة أخرى لكنها كانت تجهيزية استقبال الوافدين النازحين المصريين، والرباط والترقب لأخي الذي ينام في بيته أكثر من عشرة أغراب. وفقط شعب مطروح كانوا حينها قد انتهوا من صلاة الاستسقاء التي كانت تقام في منطقة سيدي براني بعد استدعاء

مشايخ القبائل من قِبل رجال القوات المسلحة، يتعاونون ويجتمعون ليُصلوا. كانت الأمطار قد انقطعت في العام الذي قبل عام الثورات حتى اجتمعوا على هذه الصلاة في نهاية العام من شهر ديسمبر، بعد أن نثر بدو مطروح قمحهم الذي تركوه في عناية الله، كان هذا العام من أكثر الأعوام التي أنتجت فيه مصر هذا الكم الهائل من الحبوب، تيقنت حينها كم كان إخلاص هذا الشعب مع ربه. وكم كان الله رحيمًا بهم حينما سقطت الأمطار الغزيرة سقوطًا اشمأز من عدم انقطاعه الكثير من الذين لا يعرفون كرمه. فثلاثة أيام متواصلة ليست قليلة في أن تتحول الصحراء لمستنقعات لترى جنة الله في الأرض متواجدة في هذا الاخضرار، وكأنه ألف ملعب في شهر مارس وإبريل، وكان لأولاد علي دور كبير لا شك في معاونة القوات المسلحة، ولا يمكنهم إلا فعل ذلك كما اعتادوا. وهو تسهيل دخول المصريين الذين يعملون في ليبيا حينها من معبر السلوم، الذي كان من بينهم الأوسطى حنفي الحداد صاحب الحظ الفقر كما كان الكثير يناديه بذلك. ليذهب ليعمل آخر سنوات من عمره لينال كل الحظ بشهادته في سبيل العمل في الحرم المكي تحت رافعة كانت الأرحم على كل من استشهدوا تحتها، لم ينظر كل العالم أو المسلمين إلى الإهمال في التأمين والأمان مثل نظرتنا إلى القدر، إيماننا بالقدر قد أسقط أحكامًا كثيرة جدًا عن مسئولين من يوم أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا. وهذه قيمة القمم الأخلاقية في التجلد من فقدان الذين فقدانهم في صد عدو أو غدره، أو في سبيل العمل وأجره، وليس أشد إيمانًا بالقدر والتوكل

على الله أكثر من الذين يسعون عليه، ويعلمون رزقهم، وإنْ مُنعَ انتظروا عطاءه عطاءات.

حزن أبي حُزنًا شديدًا على حنفي الحداد، وفي ذات الوقت كانت موتته يراها الجميع مشرفة، ويتمناها أيٌّ من المؤمنين.

انتهيت من بحثي الماجستيري حول تحمل الإنشاءات لضغط الزلازل أو مقدار حجم الكوارث الذي يصل لعشر درجات بمقياس ريختر، وهو الزلزال الذي لم يحدث حتى الآن في تاريخ البشرية. استطعت من خلال رسالتي الوصول إلى أن قوة المنشأة بالضوابط الهندسية المسلحة لا بد أن تكون مكتملة الأركان؛ لتحمل كارثة بهذا الحجم، حيثُ أن الضوابط الإنشائية في التسليح الذي يمكنه تحمل هذه الكارثة ليس متوقفًا على قوة المنشأة وحسب أيًا كانت، مثل سد النهضة العملاق، أو حتى إنشاء أكبر الأبراج في العالم، حيث كانت رسالتي مترابطة بين قوة الإنشاء الذي يتحمل، وقدرة التربة التي تحمِل. ولعل هذا أمرٌ يراه الكثير أنه ليس جديدًا أو موضع بحث، حيث أن جميع المهندسين يعلمون وتعلموا هذه في أوائل سنين تخرجهم وعملهم. إلا أن اختلاف الأمر عن طبيعية الرسالة كان جديدًا في التجربة الكبرى التي لم يعمل بها أو عليها أحد حتى الآن، نعم نُفذت، لكن حسابها كان خطأ، حيث أن قوة الزلزال كلما كانت عالية نصف درجة كانت الخسائر الواقعة لا تمثل قيمة النصف درجة إذا قسمتها مثلا على خسائر زلزال بقوة سبع درجات بمقياس ريختر، فلو اعتبرنا أن خسائر السبع درجات هلاك

مائة ألف إنسان وتدمير ألفين بناية سكنية، فإن زيادة النصف درجة على السبع درجات قد تساوي ضعف خسائر الزلزال الذي كان مقداره سبع درجات، فما بالكم إذا وصل إلى عشر درجات؟

بالطبع ستكون الخسائر عشر أضعاف خسائر السبع وليست ثلاثون بالمائة منه فقط كما يعتقد البعض، كانت هذه النتائج نتائج كارثية فقط لعلم الجيولوجيين أن بيئة الأرض المقام عليها سد النهضة الإثيوبي لا تحتمل زلزالاً بقوة خمس درجات بمقياس ريختر وكانت هذه نفس التقارير تقريبا التي انتهت عليها البعثة الجيولوجية حينها الذي كان من بينهم في نفس المستوى أو الظرف العلمي والبحثي صديقي المتخرج من كلية العلوم الدكتور عبد المنعم البعطيطي المولود و المقيم بمدينة (الضبعة) بمحافظة مرسى مطروح، قد استفدت منه وربطت رسالتي من خلال مفتاح العلوم الجيولوجية التي مهدت لي طريق البحث الترابطي بين الجيولوجيا والهندسة، في الاستشهاد بعناوين الدراسات المعلومة لدي الأساتذة قبل التفتيش فيها.

حيثُ يمكن البرهنة على ذلك بما قاله حديثًا الخبير الجيولوجي عباس شراقي بين وقوع زلزالين بقوة تبدأ من أربع درجات ونصف حتى خمس درجات ونصف قد وقع على بعد ستمائة كيلو متر من سد النهضة الأثيوبي، مؤكدًا على التخوف من شيئين:

الأول: هو ضغط قوة المياه في البحيرة المملوءة على السد وهذه تُشكل له ضعفًا معلومًا.

والثاني: هو تأثر السد بمثل هذه الهزات إن تكررت أو اقتربت، وهنا يمكننا أن نُشير إلى مدى أهمية حماية دول المصب، ليس من الجفاف وحسب، إنما في تجنب الخطر الأعظم من انهياره بإطلاق هذه القنبلة المائية التي يمكنها أن تؤثر فيضانيًا على ساحل فلسطين ولبنان واختفاء جزيرة قبرص، لزيادة منسوب ماء البحر المتوسط لأكثر من مائتين مليار متر مكعب في أقل من يومين فقط، إذا كانت البحيرة قد مُلئت عن آخرها، مع التخزينة التي في بحيرة ناصر التي تستوعب سعة تخزينية هائلة قد تصل لمائة وسبعين مليار متر مكعب يزيد عليهم الأربعة وسبعون مليار خزينة بحيرة ما وراء السد. أمرٌ مرعب، لكننا مع افتراضيتنا الخاطئة لهذا الكم الكبير من الماء إن حذفنا عنه خزينة الماء التي في بحيرة ناصر فلا نأمل إلا غرق العشرين كيلو متر المطلة على النيل من جانبيه، ولا نأمل تحطيم السد العالي من هذا النسف القوي، (فالماء لن تُمنع إلا من عند الله، والنسفُ لا يأتينا إلا من عند البشر، فيا ساقطًا خيرهُ لنا طول الأبد، أمسك بكفكَ شرهُ ولو بالجمد، يا رب منها أم الحَبِّي، يا رب فيها ابنُ عليّ، يا رب صلي على مصر جميعها فجميعُ مصر يُصلي على النبي).

كما أن عدد نسمات السكان المُطلين على ضفاف نهر النيل يتجاوز المائة مليون ليس فيهم عدد سكان مدينة الإسكندرية ومحافظة مرسى مطروح، وهذا لا يعني إلا أن أكبر المدن المهددة بالنسف بعد مدن شمال الصعيد ليست الإسكندرية، فالإسكندرية

لها الله يحميها من الهلاكين، هلاك البحر الذي أُنبئ عنه أنه في تزايد مستمر نسبة للذوبان الجليدي الذي يزيد من منسوب مياه البحر الأبيض المتوسط، وأيضًا الزيادة العذبة المنصبة من الماءين، وهما الماء المخزون خلف السد والماء الكسول في نهر النيل، إن وصل ولم تنجح في بلعه بحيرة ناصر، النقطة الدفاعية الحصينة لهذه الكارثة القدرية التي لا نأمل حدوثها بإذن الله هي بحيرة ناصر وهنا يمكننا أن نحول المحنة إلى منحة، ببحيرة معاونة معها بينها وبين السودان إن كانت الأولى لا تقدر وحدها، فلا بد أن تتخذ مصر احتياطاتها في ظل التغيُر البيئي الذي يشهده العالم من الكوارث الزلزالية والمائية في مناخ الأرض، وعجيبٌ أن أعذب مكان في الأرض مُهدد بالعطش أو الشرب المميت.

في رحلتي السمراء هذه استطعت ان التقي بشخصية لها حكايات إبليسية مع الشيخ (سامر حاتم) السوداني، ونحن في عودتنا إلى مصر عن طريق السودان، ما كنت أعرفه ولا أسمع عنه حتى بعدما ألهبني بسؤاله، والتصريح لي بحوادثي.

التقيت به في (ولاية النيل) في شمال البلاد حينما شرع سائق الحافلة بالوقوف لحدوث خلل في الحافلة جعله يبحث ويعمل على إصلاحه لساعات قليلة، كان ذلك وقت صلاة الظهر، في زاوية للمصلين العابرين على الطريق وجدناها الأنسب لراحتنا من عناء السفر والترويح والترويح لمن أراد ذلك بإشعال سيجارة في ظل الزاوية، نعم ذهبنا عبر الطائرة، لكننا خُيرنا فاخترنا أول عودة عبر

البر لنرى شكل البلاد على ضفاف النيل العكر عندهم المُقطر عندنا، مياه نيل السودان أسرع في جريانها لعلوها، ولعل هذا الجريان المصاحب للطمي الأسود هو من يجعلها هكذا على خلاف الترسيب الحاصل في نيل أم الدنيا، وكنا نرى هذا التكدير يحدث ليوم أو يومين أمام قريتنا حينما كانت تحدث سيول في مدينتي أسوان وقنا، ولعل المسافات متقاربة بين أسوان وقريتنا، وموضع سقوط الأمطار أو السيول من الحبشة إلى شمال السودان، وهذا لا يُشكلُ فارقًا كبيرًا حيث أن الترسيب سيحدث بعد يوم أو يومين حتى وإن سقط المطر في محافظة بني سويف أو جنوب الجيزة.

كان الشيخ يُصلي بنا إمامًا وكنت خلفه في الصف الأول الذي لم يكن إلا هو وواحد خلفه، كان خلفي أحد أعمدة الزاوية، وبعد الانتهاء من الصلاة، التفت في تربيعة جلسته يُردد تسابيح الصلاة وأنا مُنهك جسدي مغمضة عيني لوهلة من سكوني، لأفتحهما ولا أجد إلا عينيّ الشيخ مقابلة لعيني بالرغم من بعده ذراعين أو أكثر بقليل، كان المتواجد في الزاوية وقتها الأغلبية منهم هم الأصدقاء الطلاب والعاملين على الحافلة وبعض السودانيين منهم الطلاب الذين يدرسون في مصر أو العاملين فيها، كان كل هؤلاء في استرخاء مثلي تمامًا.

شيء ما أوقفني وأجلسني أمامه دون سبب، إنما وجدت نفسي أفعل ذلك، ولا أعلم بماذا سوف أتحدث معه. ولعل بشاشة وجهه هي ما فعلت بي هكذا، أو أمر قريني بالنهوض إليه وقريني ساقني

لذلك، لكنه لم يُعسر عليّ أمري حينما سألني عن أبي وعن أحواله، أجبته أنه بخير من باب أنه يسأل سؤال المسلمين عن بعضهم البعض، لكنهُ صدمني حينما قال لي:

- اتبع ما عليه أبوك تنجُ.

- وهل تعرف أبي؟

- علمت بذكائه الذي أفلته من جِنية (حضر موت). فقط حينما تراه قل له شيخ العفاريت يُرسل لك السلام يا ابن الجِنية وضحك.

كانت الرحلة ستُكمل طريقها بعد ساعة أو أقل بعدما تم إصلاحها.

قال: أوصيك في دينك قبل الذي تسكنك وقلبك.

وأخرج ورقة بيضاء وطلب قلمي سررت لمّا تركته له لما عرفته بعد.

كتب لي عناوين آيات كثيرة وأسماء سور من القران الكريم، وأوصاني بأن أتقرب إلى الله بالدعاء والذكر وأن أعرف حقيقه دونكا.

مِتُ سُكرا ودار الشيخ في عيني وهو يُكمل:

- إنها فيك منذ جِماعكم الأول وهي تسكن فوق خصيتكَ اليُسرى، هي ليست منك، ولا من لها لك، حتى وإن كان لك منها

ابن، إذا أردت رؤيتها فلا بد أن تتحصن ليس بالقراءة إنما بصدقٍ وخشوع، لا من أجل غايتك، إنما من أجل عبادته، على كُلٍ حينما تراها هذا يعني أنك استطعت إخراجها بعبوديتك لله وحده ولا تشرك به شيئًا، إذا وجدتها ستجدني.

وانتُشلت تائهًا من أذرُع أصدقائي الذين معي في الحافلة، حينها لا أرى للشيخ أثرًا، لأنني لم أكن أشعر بوجودي أو تخديري كنت في حالٍ لا شبيه له إلا هو، لم أفق إلا بعد خمسين كيلو متر سيرًا بالحافلة كأنني مسحور. أفقت واقفًا أجري إلى آخر الحافلة أتوهم أنني سأجده في الخلف.

تذكرت الورقة المكتوبة في سترتي، أنظر في تفاصيلها التي فصلها لي، وكانت متمثله في آيات رقميه من القرآن الكريم، علمت بعد تجميعها أنها تُبطل السحر والحسد وتُحصن الإنسان من مكر الشيطان الرجيم. وكان معظمها عدد مرات القراءة لها يكون سبعة، ومنها ثلاثة ومنها القراءة مرة واحدة وكانت كالآتي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ * الرّحْمنِ الرّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدّينِ * إِيّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضّآلّينَ » آيات سورة الفاتحة.

• « الَمَ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لّلْمُتّقِين * الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاةَ وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * والّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالاَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *

أُوْلَئِكَ عَلَىَ هُدًى مّن رّبّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الآيات الأولى من سورة البقرة.

• «اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيّ الْقَيّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مّنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيّ الْعَظِيمُ * لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَد تّبَيّنَ الرّشْدُ مِنَ الْغَيّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللّهُ وَلِيّ الّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مّنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوَاْ أولياَؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مّنَ النّورِ إِلَى الظّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » [البقرة: ٢٥٥- ٢٥٨].

• «يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

«وَاتّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشّيَاطِينُ عَلَىَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنّ الشّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ النّاسَ السّحْرَ وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّىَ يَقُولاَ إِنّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلّمُونَ مَا يَضُرّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ» [البقرة:١٠٢].

• « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىَ مُوسَىَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوَاْ آمَنّا بِرَبّ الْعَالَمِينَ * رَبّ مُوسَى وَهَارُونَ » [الأعراف:١١٧ –١٢٢].

• « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمّا جَآءَ السّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مّوسَىَ أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مّلْقُونَ * فَلَمّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىَ مَا جِئْتُمْ بِهِ السّحْرُ إِنّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقّ اللّهُ الْحَقّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » [يونس:٧٩- ٨١]

• « قَالُواْ يَمُوسَى إِمّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمّآ أَن نّكُونَ أَوّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيّهُمْ يُخَيّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنّهَا تَسْعَىَ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مّوسَىَ* قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنّكَ أَنتَ الأعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوَاْ إِنّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أَتَىَ» [طه:٦٥- ٦٩].« قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ * اللّهُ الصّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » سورة الإخلاص.

• «قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ الْفَلَقِ * مِن شَرّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» سورة الفلق.

• «قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ النّاسِ * مَلِكِ النّاسِ * إِلَهِ النّاسِ * مِن شَرّ الْوَسْوَاسِ الْخَنّاسِ * الّذِى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ* مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ» سورة الناس.

• «مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

• «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

• «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ».

• «وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ*إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

• «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ*لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

• «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

.....

تلهفت بعد عودتي كي ألتقي بأبي وأقص عليه ما حدث بكل حذر كي أستطيع أن آخذ منه كل الحقائق المخفية التي لم أعلم عنها شيئًا. وما قصد الشيخ فيما قصه عليّ بـ (بجنية حضر موت) وكيف دونكا تسكنني وكيف أخرجها وما معنى أنها ليست مني ولا حتى لي؟

كان قد مر على فراق دونكا أكثر من أربع سنوات ولم أستطع نسيانها. أو لم تغب حتى من أحلامي وأنا نائم، من كثرة انشغالي بها.

نويت التريث على أمري حتى سألني أبي عن رحلتي ودراستي وفور ما سألني أبي عن أبرز المواقف التي واجهتها أو واجهتني لم أتوقف عن الحديث، وكلما أخذتني العصبية والسرعة هدأت نفسي.

فأنا أعلم أبي جيدًا، إن لم يرَ في وجهي الحِلم والفطنة لن يزودني بشيء.

نزعت غطاء رأس الحديث أُبلغه برسالة الشيخ وسلامهُ

وذكرُه بابن الجنية، ضحك أبي وكأنه أمام التلفزيون يشاهد الفنان عادل امام في مسرحياته:

- من قال لك هذا؟

وصفت له الشيخ وذكرت له اسمه، فتغير وجه أبي وراح يسبه ويلعنه.

وقص لي أنه ذات مساء كان في أُمسية بدوية دعاه رجل سعودي قد صادقه منذ عامين وأبي ينفذ له بيته بين نجران وجازان قرب قرية بالقرب من(حضر موت) اليمنية، كانت نجران تحدها من الشمال، وكانت الليلة باردة وساكنة ومُظلمة، ما كنت أقبل النوم في بيته وأنا أعلم أن مسافة العودة ليست كبيرة، لكنني تعرقلت في افتقار الدابة التي ستحملني بعد أن نقلني بعضهم إلى خارج الطريق العمومي الذي يمكنني أن أركب منه أي ناقلة تسير من على الطريق.

كانت تحيي الحفل الفنانة القديرة سميرة توفيق في إحدى السهرات البدوية التي كان يتزوج فيها أخو أكبر كفيل مقاولات بجازان حينها (أبو فهد سعفان بن زبعان) وغنت أغنية رائعة تقول فيها:

(قهوة نشامي وهيل

تسكب على الفنجان

والخيل عز الليل

مسروجه للفرسان

والسيف حنا السيف

والضيف للصيوان).

وكانت السهرة مزدحمة بالضيوف وأبناء القبائل، فكانوا منشغلين بيومهم وسهرتهم وتقديم الواجب لمن دعوهم إليهم مشاركة عُرسهم. فلم يكن إصراري على الذهاب وحدي ليس إلا لتخفيف الثقل الذي عليه صاحب السهرة أو الأمسية الزفافية البدوية.

كان على بعد رؤيتي الظلامية مرور الطريق بين جبلين صغيرين والهواء يخور على الرصيف لا تدري أم من رُكنيّ الجبلين، كان جبلاً مشقوقًا خصيصًا لمرور الطريق منه مثل النفق.

جاءتني منه تمشي بأنوثة الجن العاشقة لحبيبها الإنسي، طلت من الظلمة تلمع في ظُلمتها.

من بعيد كانت امرأة وقورة الثياب الفضفاضة والثقيلة الطويلة كأنها زوجة شيخ عرب، في كبارتها وكبرها الوقور، علمت أنها جِنية حينما كان سيرها تجاهي أسرع من خُطىَ عَدَّاء مُتعجل في سيره، وأيضا رأيت ثيابها تخف وتقل على جسدها عما رأيتها من رؤيتي الأولى.

كان أسلم شيء من النجاة منها هو الثبات واستنشاق أسماء الله في روحي، أُغمض عيني أتنفس يا الله لتدُق روح الله في صدري،

أفتح عيني أبتسم وهي أمامي بأبهى جمال الخديعة، غازلتها، فأعلم سذاجتها فكل نساء الإنس والجن كذلك، تأسرهم المغازلة.

كانت كلاسيكية النظرات، بريئة، كِدت أصدقها من فتنة وجنتيها المضاءة بكوكبي عينيها.

قالت: هيا معي لن أتركك. اشترطت عليها شرطًا وأنا مُغمضً أراها من خلف يقيني بالمُطلع على أمري، وافقت على شرطي بأن أرضع من نهديها قبل أن تصحبني إلى عالم الجن، نظرتُ إلى السماء وفي بلعومي حرف الألف يذوب من عيني.

انحنيت على نهدها أوشوش أُذنَ مَبسمها، أقرأ فيها: (بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

فتخنست وذابت كما لم تكن، بفضل قدرة الله التي كانت معي فقط ليقيني بوجوده، أما كونها من حضر موت، فهذا قد يكون صحيحًا أو لا يكون كذلك، فقط لأن حضر موت قد اشتهرت بكثرة الجن فيها، وزاد فضل الله عليّ حينما رأيت شاحنة ثقيلة، وقفت أمامها كما لو أتمنى أن تضربني، توقف السائق وتابعه وأنا أشيحُ لهما في ضوء الشاحنة بذراعيّ أخلفهما للأعلى كعلامة الضرب، إلا أن قفزاتي للأعلى كانت ترمز للاستغاثة وطلب العون من هذا السائق السوري، الذي أعلمني أنه من دمشق، بعدما سألني عن مصر ومن أي المحافظات أنا، لم يكن الطريق طويلاً أكثر من الوقت الذي أُجيبُ فيه عليه بما أوقفني هنا، وأين كنت،

ولمَ لم أبقَ للصباح؟ في حين انتهائي من أسئلته الاعتباطية.

لكنني كنت أرى دائمًا كوابيس في منامي من فتيات تبكي لي وتتوسل بأن أذهب إلى أمي التي أرضعتني، وعلمت بعدها حينما سألت أحد الصالحين العارفين بأمور الجن ولؤم السحرة، وقال لي: إن هذه تكون استعانة الجن بالسحرة وليست استعانة السحرة بالجن، والمقصود بالاستعانة من قبل الجن للساحر الإنسي، ليست إلا لتميز طالب السحر أو الساحر وحبه له، وتنفيذ كل أوامر الجن كي يُصبح واليًا من أولياء الله الصالحين، وتكون له كرامات، وهذا ما وقع فيه هذا الفاسق الذي التقيت به في زاوية السودان وهو يصلي بكم، وهناك فرق بين الأتقياء إلى الله والكافرين بوجود الله وكتابه وقدره، وهذا هو اللبس الذي يقع فيه العوام للتبرك بمشايخ الصوفية، وهذه مفسدة تفسد أخلاق العباد وتحيل بينهم وبين الله الواحد الأحد. حتى وإن لم يكونوا سحرة، على خلاف الصوفية الحقيقة التي يحرص بطلها كل الحرص على عدم الظهور أو فشي أسراره الخيرة مع الله، التي قد يُحرم من نظر الله إليه إن باح بها، وبالرغم من كل ذلك إلا أنك ستلاقي بعضًا من رجال المبتدعة صادقين مع الله لله، لكنهم جاهلون بأصول الدين، علماء كبار في الفلسفة! رأيتُ من بين هؤلاء، العم ياسين في آخر أيامه وآخر حضراتهِ التي يحتفل بها في مولد السيد البدوي.

قلت له وأنا أبتسم وأنا أحدثه باللغة الدارجة عن رجلٍ اسمه الحلاج كان يقول إنه رأى الله وكلَمّه.

فرد عليّ ردًا بسيطًا جدًا لا أحد يستطيع أن يطعن فيه.

وقال لي:

- هل كان أحد معه حين رأى أو لم يرى ويتكلم؟

- هل تُصدق أن الله كلمّه؟

- الله أعلم.

وانسحب من الحديث، ولعل الاختصارات والصمت كان أوجز وأبلغ في هذه الحالات أكثر من إبداء الرأي كما فعل العم ياسين. ولا ينبغي لأحد نفي وجود الصوفية، كما أنه لا ينبغي لأحد أن يأخذ إمامًا صوفيًا ويلتفون حوله على أنه والي، لأن الولاية لله، يمنحها من يشاء ويستنتج كرامتها الناس بعد حدوثها. وكثيرًا منها يحدث للزاهد نتيجة ورعه ويقينه بالله، وما أكثر من أمثلة المتوكلين على الله بصدق ليرزقهم أو يُنجيهم أو حتى يُغير الله قدرًا كان مفعولاً، ويفك كربهم فقط بالتوكل الصادق، والدعاء الخاشع لذاتهِ على أنه القادر وحده على تلبية كل الحاجات التي لم يستطع لا السحر ولا الطب ولا حتى العلم تلبيتها إلا إذا أراد الله.

اتخذت مثل هذه الجنية الساحر الذي نبأك أني (ابن جنية)، في أن أكفر كي أذهب إليهم أتزوجها وأنجب منها، وإما أن أعود بكرامات السحر على الناس كي يتخذوني وليًا أو أظل معهم جنديًا من جنود السحرة المسخرين أو أكون ساحرًا في إغواء العباد لنشر الفسق والفجور الذي يبتغيه إبليس الأول ووزيره الدجال.

قاطعت حديث أبي أُخرج له ما رقمّه لي الشيخ، لينظر فيها أبي وهو يُكبر ويُصلي على النبي فرحًا، وهو يقول (اعتدل والله، رُد إلى دينه).

كانت آيات فك السحر وإبعاد الشيطان وأحاديث وأدعية مرموزة كتبها الشيخ مُسرعًا لضيق الوقت ينصحني باتباعها كفيلاً بأن يُصدق أبي عودة ذلك الرجل إلى دينه وصدقه مع الله.

سألته وكيف يريد إخراج دونكا وما الذي يقصده إن رأيتها سأجده؟

نظر أبي إلي وهو غاضب بعض الشيء يسألني بكل هدوء هل حدث شيء غير شرعي بينك وبين دونكا؟

خضوع بصري كان قد أجاب.

ليُنبأني أبي بقصد الشيخ أن دونكا ذهبت إليهم وتسكن فيك وتريدك حتى وأنت مكانك، وإنها في جسدك تذهب معك أينما ذهبت.

- قال الشيخ لي في المسجد إنها تسكن أعلي خصيتي اليُسرى.

نظر أبي إليّ في غضب وهو نافر وهو يلمح لي بأشياء يفعلها الشباب العزاب الذين لم يتزوجوا، وكان يقصد ممارسة العادة السرية. في الحقيقة أخجلني لكنه كان ذكيًا جدًا وهو يُفهمني وأنا حاصل على الماجستير تقريبًا وهو يقول لي أن هناك فرق بين الفعل والإسراف فيه، لكن تبين لي أن غضب أبي الحقيقي هو في ضعفي

الذي سلمت به نفسي لعشيقتي دونكا التي أصابت جسدي بالكسل والتكاسل عن الصلاة ونسيان الأذكار التي تُحصن المسلمين من خبث الشيطان الرجيم.

قال لي: اتقِ الله قبل أن تهلك، واختر عروسًا نزوجك إياها.

صدمني بذلك لأتخذ قرار البعد عن المحرمات التي أسرفت فيها واتبعت إغواء دونكا بها وتكاسلت بسببها. لكن فكرة أن أتزوج هذه كنت أراها خيانة لدونكا، رغم حبها لي الذي تبين من سكنها جسدي وهي في عالم الجن.

هذه التفاصيل الداخلية لدى الشاب، يفضحها قرينه من الجن بسائل جاء يتجسس عليه أو يأخذ المعلومات الحياتية لدى الشخص.

فما أدراكم بالعلاقات الافتراضية على الشبكة العنكبوتية؟!

هذه العلاقات يُحقق الشيطان فيها غايته من كل سكان المجموعة الإباحية بنسبة مائة بالمائة. فكل عضو في هذه المجموعة الحميمية يتلبسه عشيق من الجن يستدرجه رويدًا رويدًا من أول زائرٍ لهم في يومه الأول، يدخل فيلسوفًا ورويبضة إذا ردت أو تفاعلت معه بنت الشام وقالت له في تعليق:

- (تُبرني)

غير الكم الهائل من المعلومات المخزنة على الأجهزة الكُبرى التي يمكنهم الرجوع إليها عن طريق حسابك الشخصي الذي لا

يفتح ولا تعمل الأجهزة الحديثة إلا به، وهو الإيميل الإلكتروني أو الجِيميل، هذه المعلومات المتمثلة في بياناتك الشخصية تمثل لديهم ما يشبه الغيب لدى الله. فإبليس لن يستطيع تجنيد نصف الأرض على نصفها الأخر، وتأتي التقابلية أيضًا في الشيء مقابل الشيء، الجن يزود الإنس المسئولين بالتكنولوجيا التي تمكّنهم أيضا سهولة التجسس بطريقة أصبحت لا ينكرها أحد، ولا يستبعدها أحد من رجال الكوكب.

والتزويد التكنولوجي هذا ليس من صناعة الجن مائة بالمائة، إنما لسرقة الجن له عن طريق عبدة الجن، إما بسرقة تراث الحضارات التي كانت متقدمة قديمًا، أو طمسها وإخفاء حقائق حضارية وتحريفها بأمور يتم تصديقها جيل أو جيلين. وحين يتم معرفة الحقيقة يكون البشر جميعهم قد صدق ما قيل لهم وتعودوا على ما ذيع.

قد لا تكون بداية هذه المجموعات بدأت لهذه الغاية الشيطانية بشكل مباشر، لكن تطورها في فروعها جعلها فيما بعد وكأنها حقيقة، بل تم ممارسة الحقائق من خلال التعارفات التي حدثت افتراضيًا بينهم من الجنسين. لكن ما تفعله هذه الصفحات هي أخطر من ممارسة الجنس عامة.

فأصبح يتدرج الفحش في الظهور بعلانية التديس. كان هذا يحدث في ذات الوقت الذي شرعوا فيه على بث قنوات إعلانية ربحية يمكن لأي شخص يحمل هاتفًا أن يستخدمها، كما يمكن له

أن يفعل عليها أي شيء ويقول كيفما شاء.

كانت النتائج فضائح، غير أنه يُنشئ الجيل القادم على سوء عمله، ولست أدري ما ذنب مثلي الجنس ولد ليجد أمه تتحدث مع أي أحد ويراها مع أحد غريب، تُكبر ابنها على ذلك، وإن غيره نجا من مثليته لن تنجو طبيعته التي صورت له أنه من العادي أن تتحدث زوجته في الهاتف مع شخص غريب ولا يبالي، بل وصل الأمر إلى أن الفتاة وأمها يَسِلون سترهما على بعضهم البعض في أن تترك البنت أمها تتحدث مع غريب في مقابل أن تتحدث الفتاة مع ولد بمعرفة أمها، ويؤخذ الأمر على أن البنت وأمها أصدقاء، لهما أسرار تمارسانها بعيدًا عن معرفة الرب، هذه الماركسية تركت كل الفلسفات واعتنت بحق ممارسة المرأة مثلما يفعل الرجل، وليست هناك امرأة في الكون اتخذت مكانة عظيمة في مجتمعها مثل المرأة المصرية من قديم الزمان. فلو تكلمنا عن الرفاهية فليس هناك أثمن من عُقد كيلوا باترا، التي شاركت أخاها بطليموس الثالث عشر العرش بعد موت أبيها بطليموس الثاني عشر، فلو نظرت سترى مشاركة وعلي المُلك، أن تكون المرأة صاحبة سلطة، كانت هذه تشاركها المرأة المصرية زوجها أو أخاها، وبالطبع ما يفعله الملوك إرث يرثه الشعب بعد الملوك أو من الملوك، لأنهم أولياء أمور، إلا في وجود نبي أو رسول، وكانت رسالتهم ليست عمومية مثل ما انتهى إليه الإسلام من إرسال الله خير الأنام، فما كان يوسف عليه السلام ينهى الملوك عن حياة الرفاهية والبذخ أكثر من رسالته للناس بوجود الله وتعديل منهج الكهنة والعبرة

من الظلم الذي لحق به من إخوته.

ولو نظرت لحق المرأة في عقيدتها وحرية اختيارها ورأيها فيما تقنع له، ستجد على رأسهن زوجة فرعون، ولم تكن مجرد زوجة لرجل عادي، فكان قد تجهز للألوهية وقال: "أنا ربكم الأعلى"، فعليك أن تتخيل هذه الحُرة كيف كان عقلها وهي زوجة إله، وإن لم تقتنع بحرية المرأة المصرية زوجة فرعون، بقولك أنها ذات سيادة وجمال وسلطة، وأمكنها ممارسة حريتها بهذا الشكل في عقيدتها؛ لأنها من عِلية قومها، فانظر إلى ماشطة ابنتها التي من عوام الشعب، كيف أصرت على اختيارها عقيدتها ولم تتنازل عنه رغم الذي لاقته من بطش فرعون وزيته الذي سيُقلى فيه بمشيئة الله. فالمرأة المصرية يمكنها فعل أي عمل شاق يعاني منه الرجال، في الوقت الذي هي فيه بالفعل ليست حمل ربع هذه المتاعب التي تواجهها أرملة رفضت إلا أن تربي أطفالها، ولا تتركهم لتربية الأيام والليالي، هذه الأرملة بجينات الأُنثى الرقيقة والمرهفة، تتحول إن تطَلّب الأمر أن تحمل على رأسها (قصعة) بها خرسانة جاهزة أو طوب أحمر بعد الانصهار بحرارة تتجاوز المائتين درجة لتحمله بعد تبريده ووصوله لسبعين درجة، أو على كتفها مثلما يفعل رجال مصانع الطوب الطفلي في المراكز المجاورة لنا، كانوا يلبسون العصفور في أكتافهم.

والعصفور هو قطعة خشبية طولها متر في ثلاثين سم، له حرفٌ خشبي على حرف(L)، فشكل العصفور الخشبي هذا الذي

يشبه ذيل العصفور يكون بهذا الشكل للحرف بالضبط، فظهر الحرف ملتصقٌ في ظهر العامل الحامل على ظهره العصفور ويتأبط حزامه الذي يكون إما سيرًا عريضًا أو حبلين يأكلان في أكتافهِ ويتركان أثرًا كضربات السياط على ظهر الزاني، ثم يوضع على هذه القطعة الصغيرة ما يقرب من سبعين قالبًا بواسطة المُحمِل الذي يأخذ من الفرن الذي لا زال ملتهبًا بدرجة حرارته المرتفعة جدًا، مما يجعل العُمال الذين سوف يُحمّلون القطفات الطوبية بأيديهم يرتدون أقمشة سميكة في أكفهم من لهب وحرارة الطوب، بديلة للقُفازات؛ لأنهم يعانون الحصول عليها؛ لأن هذه المصانع تفتقر الأمن الصناعي والتأمين عليهم داخل العمل. ويلقون بها على ظهر المسكين الذي ينتظر رأفتهم به وهم يضربون القطفات الطوبية واحدة تلو الأخرى على العصفور الذي على ظهره.

والقطفة من أربعة قوالب من الطوب حتى تسعة، ثم تظل هذه المجموعة هكذا يدخلون الفُرن عصافير خفيفة، ويخرجون أبطالاً يحملون الجنة فوق ظهورهم في تجنب الكسب الحرام.

ومن أبرز المواقف المضحكة في هذه التجارب القاسية التي كانت تربت على لين هؤلاء، أمثال عبد الستار الذي ظل عمره كله يعمل في (العصفور).

يحكى عنه أنه أول أيام يذهب إلى مصنع الطوب وفرِحًا بذلك وألبسوه العصفور بعدما عرِف اسمه، وبعد ثلاثة أشواط من الرزع على ذيل عصفوره والخروج والدخول، جاء دوره في المرة الرابعة

وهو مُنهك يلتقط أنفاسه وهو يدخل الفرن ويقول:

- كذب من سماكَ عصفورًا والله، كان يجب أن يسموك غُرابًا.

وأيضا أيام الحرب في سوريا، جاء في القرية التي جانبنا، أُسر سورية، أجلسوهم في بيوت مؤقتة لتبين رغبتهم في الاستقرار هنا أم التنقل لمدينةٍ أُخرى.

فطلب الرجال السوريون من إخوتهم المصريين أن يبحثون لهم عن عمل، فهم لا يحبذون أن يعيشوا دون عمل.

فأخذ العمال الطيبون الرجال السوريين معهم إلى العصفور أو مصنع الطوب، ومع أول عصفورٍ من الطوب على ظهورهم أوقعوها ونزعوها من أكتافهم وذهبوا وهم يقولون:

- الحرب وما يفعله بشار أهون علينا مما تفعلوه في أنفسكم.

وهذا لا يعني أن الشعب السوري لا يعمل، لا، بل كل شعب له قدرات عملية يتفوق فيها دون غيره من الشعوب، فهناك رجال أعمال عرب ناجحون في الاستثمار والتجارة والصناعة.

وهناك شعوب تتميز بصُناعها، مثل الهنود والباكستانيين، وهناك شعب منه مزارعون بارعون في الرعي وزيادة الإنتاج الحيواني والنباتي مثل الراعي الصومالي.

إلا شعبنا، قُدرات كل الشعوب فيه، رجالاً ونساء، فكان لازمًا على حُباب الأرض القديمة أن يفعلوا أي شيء هم وماثونيتهم من

أجل إضعافنا في الوقت الذي ظهروا فيه، ينقلون مدى ودهم للعرب وللمصريين، خاصةً وهم يرددون نِكاتنا ويسمعون كوكبنا الشرقي، سيدة الغناء (أم كلثوم) ويتحدثون عن حبهم للأجواء الرمضانية التي يعيشها العرب المسلمون من الحديث عن ذكرياتهم في القاهرة والأكلات المصرية التي اعتادوا أكلها مثل الملوخية والبامية والبصارة وغيرها من موروثاتنا التي حلموا، وعلى أمل العيش تحت مجرى نيلها، ليكتسبوا عطفنا تجاه إقامة دولة لهم على أرض ليست ملكهم. ومن أبرز المواقف التي أخجلتني تجاه ما تأثرت به الشعوب العربية هي تلك الفتاة التي تعرفت عليها عبر الإنترنت وأنا في الفترة التي كنت فيها بعيدًا في تنزانيا في أول عملٍ ضخم نفذته المقاولات المصرية باسم شركة (عثمان أحمد عثمان للمقاولات) هي تلك الفتاة الفلسطينية التي كان الحديث معها في سياق حُبنا كمصريين للشعب الفلسطيني، وبعدما سألتها: من أي بلاد فلسطين أنت؟

قالت لي: إنها من (تل أبيب).

صُعقت بعدما تبينت أنها فلسطينية عربية مسلمة، تسكن في القدس.

(سألتُ فتاة تسكن في ضواحي القدس من أين انتِ؟

قالت من تل أبيب

وسألت أخري تسكن في يافا.

قالت: من تل أبيب.

وسألت مطاردًا على أبواب رفح لم يعبر حينما فتحوا له المعابر.

من أين أنت يا فتي؟

قال: من القدس الشريف.

علمت حينها أن أولاد العم نجحوا في القسمة...

لم ترد أن تسرق إسرائيل الأرض فقط.

إنما أيضا أرادت سرقت ضمائر الشعوب تجاه الأوطان.

وإن اغتصاب الأرض أشرف من أن يرفع يهودي ذِراعهُ على عربية ولم تُقطع ممن رأى للحدث.

حينما سألوا جرجس أين أنت ذاهب؟

قال: فلسطين. وجواز سفرِهِ مختومٌ عليه ختمهم. ...لكنه ذهب للتقديس بالنية.

جرجس كان صوفيًا ومتصوفي القدس أصبحوا جراجس)

وليس شعبٌ واحد مقصودًا بالمؤامرة، فكل أصحاب الديانات السماوية مهدد دينهم بالتزعزع والتفتت وانتشار وإصدار قوانين ترى بها المشرع نفسهُ يرتكب جُرمها مثله مثل العوام. فالمؤامرة والخطة تدور الآن حول هدف رئيسي في القرب من انتهائه، وهو فعل كل خبيث، وكيفية الوصول للجميع والتأثير عليهم في أي

وقت، لجريان التحدي مع الملك الكبير الذي خلق كل شيء. يتلبس الجن الإنسان من نرجسيته التي يُعجب بها ثم يعرضها على من بادلته ذلك، تكون هذه الفتيات أو النساء، القسم الأكبر منهن يكون من البرازيل ورومانيا وجزر المالديف، وفي العراق وألمانيا، وكثير من دول الصين والهند، ومنغوليا،

أما ما انتشر في العرب فهي التقليدية التي مارسوها عبر هذه الوسائل والمحادثات التي أصبح يمارسها الجاهل في ظل ترجمة جوجل المتبعة للنسخ واللصق، غير أن الرجل العربي في طبيعته الرومنسية الجريئة التي لم تعرف الخجل مع الغرباء على خلاف ممارستها مع الحلائل، كان الغرض منها هو إظهار الأعضاء التناسلية للرجل أو المرأة، لتبادل الممارسة الجنسية عبر الأجهزة الإلكترونية المتمثلة في جهاز الكمبيوتر أو الهاتف الشخصي، يحب ذلك الشيطان جدًا، فتستقبل منيك عشيقتك من الجن بلهفة وكذلك عشيق الأُخرى، في ظل هذه الممارسات قد يوجد أطفال في نفس البيت مع هذه الفتاة أو المرأة، تفعل المرأة كثيرًا من ذلك وهي تتوارى طورًا، وأطوارًا لا تبالي، يرى الطفل في مسقط خدره أعضاء أنثوية تثيره مثلما التي لجأ لها على الشبكة، حتى يوقعوه في قصص إباحية مُعنونة بالابن وأمه، أو الأخ وأخته، أو الخالة أو زوجة الأب، ينخرون في هذه العُقد الإلكترواُديبية، سواء لأنها تثير جدلاً ومشاعر في الآونة الأخيرة مما أصبحنا نسمع عن قضايا تهز كيان المجتمع الشرقي تجاه قضية أب يستغل ابنته في سذاجتها والتحرش بها، ومع مرور الوقت يزني بها، والذي

يتلصص على أمه، أو التي فعلت مع أخيها الصغير علاقة محرمة، أو انتشار أفلام المثليين الذكور وكذلك الإناث. ولم يمكننا أن نصرح بأن هذه مؤامرة على أصحاب الديانات في اتباع الفُحش وإرضاء إبليس؛ كي يربح بنا على الله، إلا أننا نعلم أن الله سيخذله برحمته لنا، فهذا التصريح منبثق من فِكر وتفكر الإنسان المؤمن في كل الأديان ولعل ما كانت عليه أوربا في القرن السادس والسابع عشر، في معاقبة مثلي الجنس بالموت، رغم الهرطقات الإلحادية التي برزت في ذلك الوقت الذي كان لامعًا فيها، الكاتب المسرحي الإنجليزي (كريستوفر مارلو) رغم إلحاد مارلو المتمثل في الهرطقات الإلحادية، إلا أنه كان مثلي الجنس، ولكنه كان يحتمي في الحكومة باعتباره يعمل لها جاسوسًا برصد أنشطة الكاثوليك الإنجليز خارج البلاد، ولعل التهمتين كانتا لصيقتين لمارلو، هو وصديقه المبدع الذي أثار الجدل وهو(وليم شكسبير) الذي لم يكن واضحًا كل الوضوح في عقيدته التي تجرأ بها هملته في احتسائه الخمر في جماجم الموتى، أو في عُطيلهِ الذي ظن في ديدمونته فحشًا فراح يُذكرها بالصلاة وإن اقترفت ذنبًا تود البوح به له فالله غفور، ويمكنك في الأخيرة أن تَعُد شكسبير من الصوفيين وليس من المُلحدين إن جازه الوصف، على خلاف صديقه مارلو الذي كان بها صريحًا في مسرحيته يهودي من مالطة، التي قال فيها: إن الجحيم خرافة، والكون لعبة شيطانية.

ولا ينبغي أن تذهب إلا حينما تعلم أن مارلو قد طعن في شيئين ثابتين أثبتهما الله في القرآن الكريم، الذي هو الكتاب الأول

في فصاحته ومفتاح كل العلوم التي تعلمها الإنسان من يوم أن خلق آدم إلى أن يبعثه. وأكبر دليل على ذلك أن كل الغرب يستخدم الأسماء التي ذكرها الله في القرآن وينطقون بها كما سماها الله، مثل النجم، والكوكب، والأجرام، حتى وصف بعضها مثل الطارق الذي بالفعل يطرق أو بمتغير حدث منذ أكثر من ألف عام مثل انشقاق القمر.

وهما قوله عز وجل: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ}

فالله يعلم من يقولون مثل هذا القول بأنه خلق الوجود لعبة أو لم يخلقهم، وقد تناقشوا في مسألة وجود الجنة والجحيم، وكفروا بهما في المكان الذي أُنزل فيه القرآن، ورأوا معجزات وآيات الله وهم أمام باب الكعبة، حينما كشفهم أول بيت من قصيدة لبيد بن ربيعة التي مطلعها،

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل.

فمقابلة الجحيم، الجنة.

فمن داخلهم يؤمنون بها، لكن عدم التصديق للحق حولها من كذب إلى كِبر ومن كبر إلى كفر.

ولم يعنينا مارلو وصديقه وليم شكسبير، مثلما يعنينا ما كانت عليه إنجلترا حينها في تجريم ومعاقبة الملحد والشاذ جنسيًا

بالسجن مدي الحياة أو الموت. وكانت هذه إنجلترا في الدفاع عن معتقداتها الدينية وحماية شعبها. فهل لسنا بها أولى في الدفاع عن أنفسنا والإنسان عامة تحت أي راية إن لم تعجبهم راية الإسلام؟

ولم يكن الدفاع عن الإسلام لأننا علماء دين، هيهات. فشطرينا لم يصلِّ لله الفروض، وحللوا رِبا القُروض.

لم يعِ أحد خطورة ما هم عليه من اتباع هذه الفواحش التي تودي بصاحبها مرضيًا قبل أن تسأل عن سبب حُرمتها، فالأمراض التي تُصيب ممارسي اللواط كفيلة على تحطيم ثقافة مجتمع وحضارته بأسرها، وكيف لا، وممارسة الزنا أو إتيان الذكور يُصيب الإنسان بمرض الإيدز أو نقص المناعة البشرية المكتسبة؟!

والتي من ضمن أسبابها:

الجماع: قد تحدث الإصابة في حالة ممارسة الجنس المهبلي أو الشرجي أو الفموي مع شريك مصاب، الأمر الذي يُؤدِّي إلى دخول الدم أو السائل المنوي أو الإفرازات المهبلية الموبوءة إلى جسمك. يتمكَّن الفيروس من دخول الجسم عن طريق قُرح الفم أو التمزُّقات الصغيرة التي توجد أحيانًا في المستقيم أو المهبل أثناء ممارسة النشاط الجنسي..

هنا ذلك يحدث بالضبط ويزيد مع المثلي الذكر الفاعل الذي تدخله إفرازات من المفعول به وقت ممارسة الفاحشة.

وأيضًا: ضعف عضلة الشرج التي تسبب للمريض المفعول فيه تبرزًا لا إراديًا في عُمر أصدقائه الذين لا زالوا قادرين على العمل في العِتالة وغيرها التي تحتاج إلى النشاط الجسدي، في ذلك الوقت أُلزم هو فيه على عدم مغادرة بيته ليتواجد بجوار الحمام لصعوبة تحكمه في ذاته لضعف هذه الأمانة التي لم يحافظ عليها.

كما أنه قادر بكل سهولة، على أن يُصيب الشخص الفاعل بالعُقم لالتهاب البروستاتا وتلويث دورات الدم البروستاتية تحت جهازه التناسلي.

ومعنى إنك مريض نقص مناعة هذا يعني أن كل خلايا جسدك أصبحت غير قادرة على استقبال الغذاء أو العناصر الغذائية المتواجدة في كل شيء تأكله أو تشربه بالنسبة التي ينبغي أن تدخل جسدك.

فقدان الوزن بسببه الإيدز. والضعف والإرهاق والحمى والتهاب العُقد الليمفاوية، والزهايمر.

فماذا يتبقى منك؟ عقلك الذي ستنهض به أنت وطاقتك قد فقدتهما.

وليس كل مرضى المناعة البشرية المكتسبة قد مارسوا الجنس بطرق غير آمنة، قد يُصاب بهذا الإنسان عن طريق نقل الدم المصابُ بهذا المرض أو يمكن نقل العدوى من ملامسته.

يتوهمون أنهم يُخضعون الكون كيفما شاءوا، ويوقفوه كيفما شاءوا، إلا المحسنين من الجن المتمثلين في خدمة الإنسان قدر

استطاعته في الخير.

وكان كثير من رجال الدين القرآنيين الذين اتخذوا القرآن علاجًا من السحر، كان معهم أيضا خدمات من الجن يُعْلموهم بحقيقة أمر المريض، وهؤلاء القرآنيون هم أفضل من بقيتهم من السحرة أو بعض الناس العاديين الذين تمكنوا من التحكم في خادم لهم ولم يسموا سحرة أو قرآنيون، هم فقط معهم خدمة لها حدود محدودة لا تزيد عن السؤال للقرين، علما بأن هناك قُرناء يكذبون ولا يعطون الجن السائل الحقيقة، أو يُضللوه فيها.

فالذين يُعالجون الإنسان المُتلبس بالقرآن رحم الله فيهم أصحاب الضمائر، ولعن مُتخذي القرآن والدين حائلاً. فالساحر إن لم يكن متمكن من التحكم في خدمات جِنية قوية يمكنها تنفيذ أوامره، لن يستطيع إخراج عشيقة مثل دونكا من جسد مصاب مثلي.

فكان هؤلاء القرآنيون يُجيشون الجيوش تحت إمرتهم بالقرآن والذكر الحكيم، فكان الجن المؤمن يأخذ الشيخ القرآني قدوة يُخبروه بكل مرضى ومصابي السِحر فقط حينما يمروا من أمامه، يودودُ الجن في أُذن التقي إلى الله وصاحب الضمير في عدم كشف عورات الناس، التي يستغلها الساحر في إرضاء الشياطين؛ كي يمنحوه رُتبة حينما تأتيه عروس وأمها تطلبان الشفاء منه في تأخر إنجابها الذي هو معلومٌ سببه، وهو العشيق الذي يستقبل السائل المنوي من زوجها ويُفسدهُ كي لا يصلح للبويضة أو يمنعه العبور.

وهذا له ضوابط لإبعاده عن المرأة أو الرجل أو كليهما باتباع الخطوات التي يفعلها كلٌ من القرآني والساحر بطريقته المشروعة للقرآني، والكافرة للساحر.

فكان العلاج بالقرآن والأعشاب التي تطرد الشيطان كدورة تحصينية متمثلة في سورة النور والصافات وياسين، ثلاث مرات يوميًا لكل سورة، وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة مرة صباحًا ومساءً، وقراءة المعوذتين والإخلاص سبع مرات لكل سورة، وقراءة آية الكرسي مائة مرة على زيت الزيتون، وسورة البقرة كاملة وآيات إبطال السحر على ماء، يمكنك تزويده فقليله يَعم كثيره وتستحم به ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع دون أن تلقي الماء المقروء عليه هذا في الخلاء، ويحبذ إلقاؤه بجانب أي جدار لا تؤثر عليه المياه مثل الجدران المبنية بالطوب اللبن، والتطيب بالمسك الإنجليزي الأحمر عند الجِماع، كل ذلك للمصاب بالعشيق ويحتمل كلاهما معشوق إلا أن الزوجة يتطلب منها استخدام طلح النخيل والعسل والنخلة وعجنه بزيت الزيتون ووضعه في المهبل قبل الجماع فإن الشياطين لا تحتمل رائحة طلح النخيل وزيت الزيتون والنخلة والمسك الأحمر. فبإذن الله يخرج بعد عناء عَقدي يتطلب من المسلم الشروع فيه وإقامة الأذكار، لابتعاده عنه مما تمكن من دخول الشيطان فيه كيفما شاء وقتما شاء.

ومن الممكن ألا تنفع هذه لسوء الاتباع فيه بعناية وتقرب المصاب إلى ربه بالدعاء أن يصرف عنه الشيطان وشركه.

وبعد الانتهاء من هذه الدورة التحصينية التي تمكث أسبوعين، يذهب المريض إلى الشيخ القرآني الذي معه جنود كثيرة من الجن المؤمن، ليفحص المريض بمعاونة الجن في معرفة وجود الجن أم خرج عنه، وبعد تبين خروجه، يطلب الطلب الذي يطلبه دكتور النساء والتوليد في حدوث جماع أيام التبويض.

أما علاج الساحر من الممكن أن يتبع معك العلاج بالقرآن على عُجالة كي تنفع أو لا تنفع. ففي الحالتين إن كان متمكنًا جيدًا في السحر وتُنفذ أوامره الخُدام فيمكنه إخراج الجن منك من أول لقاء بينك وبينه، ولكن لأن لكل طلب ثمن، فكان ولا بد أن يدفع كلٌ منهم للآخر.

فالساحر يريد قوة من غروره الذي يزداد كلما تمكن من أسر عفاريت أو شياطين كبار الرُتب وصغارها حتى يكون له جيش من الجن الذي جميعه كافر، يُنفذ له في المقابل.

وعند علوم الساحر بمعاد انقطاع الحيض من المرأة بعد خروج العشيق منها مؤقتًا يأمرها أن تأتيه بعد أيامها السبع الأولى من انقطاع الحيض ليسحرها أو يخدرها أو يقول لها بالفعل سوف تنجبين ولكن يتبقى هذا الشرط الوحيد في أن اضاجعك أو يضاجعك غيري ومن المؤكد أنها ستحمل بتلك المواصفات الإرشادية التي تحفظها النساء من طب الأسرة وفي يومها الثامن حتى الرابع عشر هذه هي أيام تكوين البويضة التي تتواجد بعد عشرة أيام من انقطاع الحيض أسفل قناة فالوب، في حين أن

احتفاظ المرأة بالحيوانات المنوية داخل الجهاز التناسلي يظل خمسة أيام. والجماع قبل ميعاد تكوين أو وصول البويضة بأيام أنسب بكثير من الجماع وقت وجود البويضة، بالطبع تظل البويضة تقريبًا يومًا.

لكن حينما تأتي البويضة وتصطدم بالحيوانات المنوية ستعمل من فورها على التخصيب. أما إن انتظرت، نعم سيحدث تخصيب لكن حينما يكون هناك ماءين حاصرا البويضة قبل وجودها وبعدها تكون احتمالية التخصيب مائة بالمائة، فإن فلتت من القديمة لقيت الجديدة، وهذه واحدة.

أو يقول لها الساحر، ستنجبين إذا تمكنتِ من أخيه وفعلها هو، أو أي غريب إن تعسر الطلب، وهذه واحدة تمثيلية لأشباهها من أوامر الجن للمستعينين به في البحث عن الكنوز المدفونة التي يطلب فيها الجن دم أو نجاسة، إما ذبح رضيع يُحبذ أن يكون ابن الباحث عن المقبرة، أو الإفضاء بعذراء من بني نسله.

انتشار كل هذه الفواحش أو كثرتها لا يعني إلا أننا في وهن وضعف أمام الشيطان؛ لأننا ابتعدنا عن الله. فالذي مع الله ينفع نفسه أولا وأخيرًا. فالله إله لا ينقصُ من عظمته شيء بكفرنا به أو عصياننا له. لكنه لم يمنحنا الجنة بالمجان.

لم أكن مقتنعًا بأن أعبد الله من أجل حاجة تنقصني، فرحت أعبده؛ لأنه أهل لذلك.

(لست أدري كيف أدعوك أن تتقبل صالح أعمالٍ لا أفعلها، ربِ أصلح لي شأني في أن أفعل خيرًا لأجلك، أؤمن أنَّ لا مالك إلا أنت، ولا إله إلا أنت الله الذي لا إله سواه، إني يا رب أعبدك وأرجو رحمتك، قويني على الشيطان وضعفه، وعلى مكرِهِ وكُفره، نقيه يا ربي من دمي، واحذفه من توظيفه لسمي، واكففه عن النظر لجسمي، اللهم إنك تعلم أن نفسي أضعف من خبث الشيطان، فباسمك القوي، وكفكَ السخي، أن تأخذني في خدمة ظِلك خادمًا، فإني يا رب للخير عازم).

لم أهتم لمناقشة الدكتوراه فعملت في هيئة التخطيط والتنفيذ في إحدى شركات المقاولات الكبرى في الشرق الأوسط، شركة المقاولين العرب، التي بزغت بزوغ الفراعنة في العصر الحديث على أيادي قائد المهندسين ورائد تحطيم المستحيلات السيد المعلم المهندس: عثمان احمد عثمان رحمه الله، وكانت فرصة رائعة أن يُكتب اسمي في قوائم المنفذين لسد تنزانيا (جوليوس نيريري)

كانت تُعد من أروع الفرص التي حصلت عليها في بداية ممارسة الهندسة الإنشائية والمدنية في عمل لا يقل عن بناء السد العالي الذي شيده المصريون في عهد الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله، ولا شك أنه كان عملاً شاقًا في ظل الإجراءات الاحترازية لتجنب الإصابة بالفيروس الذي كان يُنقل عبر الدول قبل وصول حامليه. ولا أدري كيف. كانت هذه بداية التغيير

الذي أراد المسئولون الكبار في العالم تغييره. ولكن يبقي السؤال، لحساب من يريدون تغيره طالما جميعهم يعلم أنه سيموت لا محالة. ويرى ذلك كل الغرب والشرق وغيرهم في أمصار الدنيا.

طالما الوقت الذي سنصل فيه للمليار الذهبي يكون نصف أكبر رؤساء العالم قد ماتوا أو في طريقهم للموت، فلمن يعملون بقتل أنفسهم وإحياء غيرهم؟

لم يكن كل الأمر هو استخلاص مليار شخص، إنما هي فكرة ملاصقة لأفكار متعددة لأصحاب (العزلة) الذين يحبذون العيش وحدهم في الوجود دون أحد، وترى أمثال هؤلاء دائما ما يُعادون ويُقاتلون على امتلاك الأرض، عددهم أقل من عدد الشواذ أنفسهم ويريدون امتلاك كل الأراضي الجميلة التي لا يملكون فيها سوى عَدْ خُطاهم، ولستُ أدري أين متعة العيش وأنت في سكنات عسكرية فوق هضبة الجولان، أو في مثلها في جنوب لبنان، أو حتى اختلاع عينك تجاه سيناء، وأنت محتل للقدس؟ في حين أن الأنباء العرَّافية وأصحاب الحواس الخفية ينقلون أننا في أواخر سنوات إسرائيل، وأنها ستتيه في البلاد كتيهَتهم الأولى، ولست أدري إن كان هذا صحيحًا. فكيف ستراني صديقتي أميرة الفتاة الفلسطينية التي صادقتها عبر الفيس بوك، وهي تعيش وكل شعبها على أمل حربٍ ستفوز بها العرب على اليهود؟ كيف يكون حالنا أو وجهتنا؟ فأنا كشاب عربي قبلت عنوة بأن تُحتل أرضي كل هذه السنوات الطويلة، وتقتل أطفالي، وتُرمل نسائي وتُؤم زوجات

الغائبين في مقابل معركة رد الاعتبار؛ كي أستطيع أن أعيش ما تبقى لي من حياتي في هذا الوجود أمام من كانوا يذبحونني كل يوم وأنا أشاهد وأبكي، أشاهد وأدعو، أشاهد وأنتظر، فإن انتهت هكذا فهذا لا يعني إلا أننا مجرد درجٌ كانوا يطئونه للصعود.

لم يكن بناء سد تانزانيا له علاقة بسد النهضة الإثيوبي الذي أمامه. فتانزانيا تمتلك تقريبا ثمانية عشر بالمائة من ماء العالم. في حين أن لديها أراضي كثيرة تجف، حتى أن شربهم للماء ليس قائمًا على ماء الأنهار وإنما على المياه الجوفية المتواجدة في الآبار التي تجف مع قلة سقوط المطر وتتزايد عند سقوطه. غير افتقارها للكهرباء ودون هذه بالطبع تُعرض الشعب التانزاني على أن يكون في ذيل الحضارات التكنولوجية الحديثة التي يحياها العالم الآن، وليس بناء سد تانزانيا يخدم تانزانيا وحدها، فهذه البقعة يمكنها خلق حياة لم تكن متواجدة بالأمس على كثير من دول حوض النيل مثل: بوروندي وكينيا وأوغندا والكونغو ورواندا. ولا ندري لماذا لم يتم بناء هذا السد التانزاني قبل بناء سد النهضة، حيث كان من الممكن أن يفعلها (جوليوس نيريري)، الذي تم إنشاؤه ويمكنه خدمة الدول المجاورة لتنزانيا المتمثلة في دول حوض النيل التي من بينها إثيوبيا، التي لا زالت ومستمرة في ملء بحيرة أصبحت تُشبه البحر في حين أنه تم الانتهاء من السد التنزاني، حتى ظن البعض أنهم يخزنون الماء لبيعه لدول أخرى، غير الظن الذي راح يوسوسني به شيطاني الملعون في افتعال أو انهيار السد لضعف القوة المصرية وانشغالها بملايين الغرقى بدخول الصهاينة الأرض

المقدسة من جديد باعتبار أنها أرض موسى عليه السلام التي كلمهُ ربهُ فيها، وكان الشعب المصري إذا سمع مثل هذه التخاريف ضحك وقال: "يا أهلا وسهلا بأولاد العم، يأتون وينظرون ماذا نحنُ بهم فاعلون".

فالشعب المصري وما يكنه في ذاته تجاههم يختلف كل الاختلاف عما تصدره الحكومات العربية، فلم تكن هناك لإسرائيل حرب حقيقة قد خاضتها إلا حربهم مع المصريون في شبه جزيرة سيناء. فلم تعرف مصر عدوًا حقيقيًا في العصر الحديث إلا إسرائيل، ولعل هذا قد وضعه الله في قلوبنا دون من يريد نزعه أو تبريده. فمثل ما يقولون رغم كل هذا السلام، إلا أنَ(ما في القلب فى القلب). ولم يكن كُرهنا لهم قلة حضارة أو عنصرية، فقد اعترف كل العالم لشعبنا بأنهم الشعب الطيب، ولا ينبغي للطيب أن يكره أحدًا. ولكن الله يعلم ارتزاقهم جيدًا، فوضع من هم أنسب للمرابطة لهم، كي يكتمل التكافؤ التقابلي. ظللت أتورع إلى الله في أن يكشف عني السوء، ولا أُصاب بهذا الوباء، مُستغفرًا ذاكرًا لله حتى وأنا في محل عملي أتيهُ في الصلاة على النبي. أُكثرُ من قراءة القرآن. وليست الآيات القرآنية التي كتبها لي الشيخ سامر في مُصلى (ولاية النيل) بالسودان، حتى حدث لي الحادث الذي طهرني مما يسكنني بقدر الله، حينما خرج طرفٌ من أسياخ الحديد باتجاه أسفل بطني في أعلى موضع الضامة حينما تم دفعه بقوة تزيد على دفعه المطلوب من قِبل دافعات آلية حديثة الصُنع، التي كانت تساعد في دفع الأسياخ للداخل، ليخرج

طرف منها بكل رفق يشق أسفل خصري موضع أو أعلى ضامة الحوض، ليسيل الدم كما لو أنك تسكبه مرةً واحدة من جرة صغيرة، لأسقط بين ركبتيّ وأنا أنظر لصفحة الدماء لأرى دونكا في عُريها تبكي عند غشياني من هول الدماء التي أراها تحت فرجي.

بعد انتقالي لمستشفى(الأغا خان) التي تم افتتاحها جديدًا حينها، كان ذلك في عز الوباء العالمي الذي تحملت مصاعبه الجيوش البيضاء في جميع أنحاء العالم.

فلم أكن آمن على نفسي حينها في ذلك الوقت إلا اضطرارًا لما رأيتهُ من نفسي ونصف دمائي تصبغ أرضية السد الذي تقريبًا انتهينا فيه من فتحات التُربينات السُفلية التي ستُجهز لوقتها هي والتي ستعلوها، كانت هذه السنوات القليلة من العمل قد ربحت فيها أضعاف راتبي الذي أتقاضاه بالدولار الأمريكي بعدما أصبح بثلاثين جنيهًا بدلاً من خمسة عشر.

حيث تمكنت من تحقيق حلم أمي وأنا صغير، الذي قصته على خالي صادق في تقديم العون لها فيما بعد، والذي تحقق بزيارتها وحجها إلى بيت الله الحرام، الذي لم تتمكن من زيارته في وقتٍ كان من الصعب أن يفعلها العامل بإرسال زيارة لأحد من أهله مثلما كان من السهل فعل ذلك على طبيب أو مُدرس أو مهندس يعمل في المملكة، لتوفر سكن أُسري خاص من قِبل هذه الوزارات دون تفعيلها مع عُمار الأرض.

كانت حجة أمي لبيت الله الحرام، في أول فتح للمسجد

الحرام، لأداء مناسك الحج بعد الأعوام التي كانت جائحة كورونا تفرض خطورتها على العالم.

فما كانت أكبر أمنياتي إلا أن أستطيع أن أحقق لأمي رؤيتها في أنني سأكون سببًا من عطايا الله لها، وأستطيع أن أجعلها تحج بيت الله الحرام، الذي طال انتظاره بالنسبة إليها.

كنت في عيد الأم منذ صغري وأنا أسمع كلام المعلمين الذين كانوا يحسوننا على إرضاء الأم، وأن الجنة تحت أقدامها، فكنت في عيد الأم أشتري لها هدية متواضعة الثمن، من المال الذي يتبقى من مصروف العِدِّيات التي كنا نأخذها في العيد من أخوالنا وأعمامنا، فكان يمر من أمام بيتنا، وكل البيوت بائع مناديل أو إشربات وشيلان سوداء أو طُرح بحجم الشاش لكنها أنعم مثل الحرير ولينة مثل القطن.

كان المنديل منه سادة نبيتي أو كحلي، وكان هذا يناسب النساء أكثر دون الفتيات أمثال أختي نسرين اللائي كُنَّ يتعصبنَّ بإشربات خضراء أو زرقاء بها نقوش وردية مغزولة من نفس الخيط باللون الأحمر في وسط المنديل، وكان ثمن الإشرب السادة أو الألوان لا يتجاوز الثلاثة جنيهات، ولم يكن ذلك بعيدًا، فكان ذلك في مطلع الألفية الثانية.

لكنني حديثًا رأيت مثل هذه المناديل معقودة على أعناق الحِسان من فتيات القاهرة والإسكندرية، وكانت الفتيات غير

المحجبات تُطبقهُ بشكل مثلثي على رأسها. زادني الفضول بأن أُعيد الذكرى الجميلة وأبحث عن متجر محجبات في وسط القاهرة، لأجده بالضبط وأنا عازم على شرائه من جديد لأختي نسرين بمئات الجنيهات وليس بثلاثة جنيهات، وكأنهم ما أرادوا إلا أن يبيعوا لنا الذِكريات.

(أرادوا أنْ يرفعوا قَدرَ الأم. فوضعوا على رأسها عيد...

وأرادَ الله أن يَرفعها فوضعَ قَدميها على الجنة.

وهُنا الفرق بين هَدية البشر للأُم وهَدية الله لها..

البشر حَمّلُوها...

والله حمَلَها..

البشر جعلوا لها عادة بدأت قريبًا ويومًا ما ستزول.

والله أهداها جنة لا تَزول...

هذا هو قَدر الأم الحقيقي).

وأتيت لأبي بسيارة متواضعة يستطيع أن يذهب بها ويصل رحم أصدقائه في العُربان والمحافظات المجاورة التي نثر فيها أصدقاء يودهم ولو في كل عام مرة.

كان سائقها العم ناجح، بعد موت عمي عبد الله، وتَرْكِ أبنائه مجال التجارة في الخضراوات التي لم ينفع زرعها؛ لاستبدال بذور الطماطم ببذور لا تنفع في تربتنا الزراعية، مما ألجأ المزارعين

لزراعة النباتات التي تستخدم علفًا للماشية، مثل الذرة، والجراوة، والدنيبة التي تُشبه الشعير، والبرسيم، بدلاً من الخضراوات التي قلت زراعتها في قريتنا لانحصار الأراضي الزراعية أيضا.

كانت الطبيبة التي أُجرت لي عملية الجراحة طبيبة أردنية تُدعى (فدوى) كانت متزوجة من رجل فلسطيني يعيش معها في الأردن، وكانت تبحث له عن عمل مناسب في تانزانيا ليبقى معها بعدما تم ترشيحها أو إعارتها من قبل دولة الأردن للعمل في المستشفى الجديدة (الأغا خان).

حينما وجدتني متوترًا بشأن الحادث وكمية الدماء التي سالت مني، طمأنتني بأن جرحي هذا سطحي أو ليس بالخطورة التي تُعد من الدرجة الأولى.

لأتعجب من قولها الطبي وأنا أسألها:

- هل هذه المنطقة المصابة لها علاقة بالخصية؟

ظهر على الطبيبة فدوى التوتر، ليس من اللفظ، إنما من المعنى.

- هل تشعر بشيء يؤلمك في خصيتيك؟

- لا، لا، فقط أنا أسأل؛ لأمر آخر ليس له علاقة بوجع خصيتي.

كان تعجب الطبيبة فدوى قد بدا على وجهها وهي تبتسم لتخبرني أن مستقبلي لا زال قائمًا، وتعني ما نمزح به نحن المصريون

إذا كنا نلعب الكرة، وتم شوط الكرة بقوة في منطقة الحوض مثلا، ونقول للفاعل: لقد دمرت مستقبله الأُسري.

لكن توتر الطبيبة من استفهامي منها كان قائمًا على رؤيتي دونكا على صفحة الدماء تبكي، وهي لا تعلم أنني أسألها عن أمرٍ ليس له علاقة بالطب.

لكن الطبيبة فدوى حينما وجدت ثقافتي الطبية التي لم أقصدها أصلا هكذا، شرحت لي أنه بالفعل مكان الجُرح له علاقة بالخصية، حيث أوضحت لي أن حادثي هذا من الحوادث التي من الممكن أن تخدم صاحبها، رغم البلاء الذي يراه الإنسان من وقوع الحادث، فلو أتيتنا إلى هنا كي نسحب لك الدوالي التي كانت على خصيتك لما فتحنا لك موضعها من هذا المكان مثلما فعلها القدر، نعم الحادث قد كان على شفا قطع الوتر المرتبط بكيس الصفن، لكن سبحان الله، جئتنا هنا وقد تصفت كل دماؤك المُخزنة من سنوات فيه، وترك الدوالي هكذا دون سحبها يؤدي إلى العقم، وهذا عرضٌ يحدث للشباب غير المتزوجين بسبب الكبت الجنسي أو مشاهدة الأفلام الإباحية دون ممارسة العادة السرية بشكل منتظم، حيث أن لا علاقة بكثرة ممارسة العادة السرية وتقليلها إلا الانتظام والشروع على فعلها والانتهاء منها فور القرار، ولا ينبغي التراجع أو الحبس لها، فالتراجع أو إنهاء الأمر قبل استكماله حتى النهاية، هذا ما يجعل الماء المني يتحول لصديد فيروسي قد يسبب العقم على المدى الطويل، إن لم يلحق الشاب نفسه بالزواج، وظل

على حاله عزولاً تتخبط حواسه تجاه الممنوعات التي يسيء أمانتها كثير من الشباب.

وأضافت:

- فإن انبجاس الوتر الذي قد أُصيب من هذا الحادث هو الذي أخرج الدم الصالح من الأعلى، والفاسد من الأسفل، غير أننا قبل الترقيع أو الربط قمنا بسحب ما تبقي في كيس الصفن، فعملية ربط الأوردة أصبحت أمرًا طبيًا غاية السهولة الآن.

كان حديث(فدوى) معي وكأنها دكتورة تُدرس لابنها وهي تشرح كل هذا برحابة صدرها.

كنت أحب لَكّنتها التي تتحدث بها مثل الشاميين غير أنها من النشميين. ويمكن المرور من فلسطين للأُردن برًا من معبر الملك حسين الذي يقع في جنوب الأردن. ولعل أكثر المُصاهرات العربية سنجدها بين كل من البلدين لهذا التلاحم البري القريب بين أفراد الشعبين.

علمت حينها أن رحمة الله بي كانت أسرع وأأمن من علاج السّحرة أو حتى القُرآنيين.

فما كان لي من سبيل إلا أنني أذهب لقضاء إجازة إصابتي هذه في مصر، في ظل وجود فيروس كورونا الذي بسببه كان انشغال وزارة الصحة قائمًا جميعه على الإجراءات الاحترازية له، والعمل على تجنبه، والدواء للمرضى في حالة وجود الإصابات التي تجاوزت

أكثر من نصف مليار مصاب حول العالم، في حين سجلت وزارة الصحة العالمية حتى الآن، أكثر من ستة ملايين حالة وفاة حول العالم، ربحت فيه الولايات المتحدة الأمريكية المركز الأول في وفاة مليون نسمة من شعبها.

ويبقى السؤال الذي إجابته نراها مختلفة ومتناقضة بين طائفة سياسية أو علمية أو دولية وأخرى، ولعل المؤامرة المشتركة بين أصحاب العهود الإبليسية أنه كان الاتفاق هو الاتفاق المعتاد بين الإنس والجن من تقديم البدل مقابل المساعدة أو التزويد العلمي الذي حرصت عليه الماسونية في تحريف وسرقة الحضارات العقدية والفكرية، مثل سرقة فكرة اختراع الكهربائي الذي نُسب إلى إديسون وهذه النظرية كما تظهر النقوش على جدران المعابد وأوراق البردي على أنهم استخدموا الكشافات الكهربائية اليدوية، ويخمن العلماء السبب الحقيقي لبناء الأهرامات وهو أنها محطات عملاقة لتوليد الكهرباء، وأبرز الدلائل على ذلك مصباح القوس المستخدم في منارة الإسكندرية على إمكانية استخدام الكهرباء في مصر القديمة. وإن لم تكن الكهرباء متواجدة بالشكل التي هي عليه الآن، فيكفي نظرية توليد المصباح الكهربائي المنقوشة على جدران معبد (دندرة)، التي تبين ترتيب الرسم البياني بالأفراد المنقوشين على الجدران والرموز المعنية مثل الأفعى التي تمثل الشحنة. وستجد إله الهواء الذي هو في كبد النقش والذي كان اسمه (هِي) ويدل من داخله على التميز أو الاختلاف وبه (الغاز المؤين) وستجد شخصين في النقش جالسين على ركبتهما يجلس كلٌ

منهما في عكس اتجاه الآخر، وهذا رمز يدل على تغيير القطبية من السالب لموجب، أما رسمة (توحوت) الذي يمسك في يده شيئًا يخرج النور منه على شكل الإشعاع الحديث، كان يطلق عليه (جالب النور).

والغريب حينما جاءت البعثات الأوروبية لتبين حقيقة النقش الذي تم تنفيذه بطريقة تفريغ الغاز والتوصيلات الإلكتروستاتيكية، بنفس الطرق والنسب، فحدثت المفاجأة بإضاءة المصباح. وتعني إلكتروستاتيكية في الإنجليزية، الكهرباء الساكنة Electrostatic

- ألكتروستاتيّ، كَهرَسُكونيّ

فجميع حضارات العرب سُرقت، وتم العمل عليها. حتى وصف المعارك بالرحى التي تطحن العدو دون القمح في شعر الفحول الشعراء أمثال عمرو بن كلثوم وعنترة وغيرهم، قد تم تنفيذها تصويرًا في أفلام الأكشن التي تسرد الحضارات الرومانية اليونانية، وإظهار الطاحونة المتمثلة في الجيشين اللذين دارت المعركة بينهما في ساحة القتال مثلما تدور الرحى يمينًا ويصبح الحجر السفلي يدور يسارًا، وما يسقط مطحونًا هم الموتى في تطايرهم للخارج، في فيلم أسطورة (هرقل) الذي استبطله المصارع السابق (دوين جونسون) في عام ألفين وأربعة عشر.

مَـتَى نَنْقُـلْ إِلَى قَـوْمٍ رَحَانَـا يَكُوْنُوا فِي اللِّقَاءِ لَهَا طَحِيْنَا...

ولعل هذا الاتفاق ظهر في غلق المساجد والكنائس، والعُزلة لطبيعة الشروط الواجبة لتجنب الإصابة بالفيروس.

فلو أمسكنا خيط الإدانة على أنها شيطانية شطرًا، إنسانية شطرها الثاني في غلق المساجد وعدم الخروج من المنزل، ستستنتج عِدة أشياء خطيرة فقط في هذين الأمرين:

غلق دور العبادة:

أولًا: لا أحد يختلف أن أصحاب الديانات السماوية قد انحرفوا عن منهج الله في العقود الأخيرة حتى الآن، ولو اتخذنا عبادة واحدة فقط لله تؤدى داخل دور العبادة وهي الصلاة، ستكتشف من تلقاء نفسك بعد عام أو أقل من غلق دور العبادة، ما الذي حدث لك من بُعدك الدائم عن دور العبادة، فكثيرٌ منا مُقصر في الصلاة، فمنا الذي يصلي كل الصلوات إلا الفجر، ومنا الذي يصلي وقتًا ويترك ما بعده، ومنا الذي يصلي في الصيف دون الشتاء، وكثير من هؤلاء قد يُصلي بعض الصلوات إحراجًا من الناس دون الله، وهو واقف على الناصية أو جالس أمام بيته على الطريق وأذن المؤذن وجاء وقت الصلاة وهو ليس في نواياه أن يدخل المسجد أصلا، لكنه وجد من هم ذاهبون للصلاة ينظرون إليه، فأُحرج فدخل معهم.

غلق المسجد هنا يجعل الذي كان مُقصرًا في الصلاة، لا يصلي أصلاً في ظل هذه الأزمة التي عَودته من تكاسله المُسبق إلى عدم

صلاته. وكيف لا تكون هذه مطلب من مطالب إبليس؛ كي يأمن بعد العباد عن ربهم بالطاقة والشُحنة التحصينية التي يمنحها الله لعباده المتقربين منه، لا شك، ولا قول في أن مثل الصلوات فيها تجمع للناس مما قد يسبب انتقال الوباء من التقارب، ولكن أهمية اتخاذ الإجراءات وسن القوانين كانت عادلة جدًا، وصارمة في التنفيذ تجاه دور العبادة دون مدرجات كرة القدم التي كانت تُقام في أخطر ذروات سيادة فيروس كورونا، مثل استثناء لعب الفريقين الكبيرين معًا أمرٌ لا ينبغي إلغاؤه مهما كانت الخسائر.

ولعل من المواقف المضحكة التي أضحكنا فيها عبد الهادي صاحب متلازمة داون قبل وفاته، هو أنه كان يسمع المؤذن وقد جاء بنداءٍ جديد لم تعتد الأسماع سماعه، وهو: (صلوا في بيوتكم) أو (صلوا في رحالكم)،

فكان عبد الهادي لم يفهم ما يقوله المؤذن جيدًا. فكنا إذا سألناه ما الذي يقوله المؤذن؟

قال:

- (صلوا فيكوكوم)

فكان ينقل ما استطاع فهمه من الوزن دون النطق به.

أما الثانية: فكان ولا زال من شروط صحة الصلاة، هي الوضوء، في الوقت الذي دعت إليه منظمة الصحة العالمية من ضرورة غسل الأيادي دائما لمدة عشرين ثانية.

وهذا أمرٌ يفعله المُصلي خمس مرات في اليوم. فكان ولا بد منع هؤلاء كي يحصلوا على عدد كبير من الموتى والمُصابين بفيروس كورونا.

أما العزلة: فكان قد مُهد لها، ودعت إليها وعبرت عنها حسناوات في منشوراتها على الفيس بوك ينثرن الخواطر في حبهن للعزلة التي يرين فيها الراحة الدائمة في البعد عن البشر. في الوقت الذي تراها فيه تتحدث مع عشرة شباب، على شبكات التواصل الاجتماعي جميعها، ولم يكن مدفوعًا لهن كي ينشرن أو يعبرن عن هذه العزلة، لكنهن بالفعل اعتدن على البيت من قبل وجود كورونا بعشر سنوات، في ظل تواجد اللاشيء على الإنترنت. فترى مرضى السوشيال الذين يعانون من الجفاء العاطفي كثيرًا منهم من يشتكي في منشوراته من التقرب من أحد؛ لأنهم انجرحوا وتم الغدر بهم وظُلموا من الحبيب رغم أنه أصلا قد يكون حبيبه هذا لم يره مرة واحدة.

وكانت هذه واحدة تحض النفس على التجمل بالتورع أمام الناس، وفعل ما يُسعد الشيطان في محادثات الغرف المغلقة. غير تواجد أو جبر النقص الذي يفتقره المنعزل من الحقيقة إلى الافتراضية أو الافتراضية التي قلما تحويلها لحقيقة ملموسة، مثل التغزل الكتابي أو السمعي أو المرئي عن بعد، دون فعل ذلك حقيقةً في واقع الحياة الذي سيحدث تدريجيًا لِما تم التمهيد له عبر الافتراضية هذه إذا تمكن مستخدمها من تحويلها لحقيقة، وقد

بدأت بالفعل أسواق المتعة وإصدار أرقام الهواتف من قِبل ممارسي الجنس بالمال، أو بكروت شحن الاتصالات. أما الهواة فلا يعنيهم المال، بل يعنيهم الحب الذي يعلمون كل العلم أنه كذب، وسنرضي أنفسنا بالبكاء عليه لحين أن يأتي حبيبٌ جديد.

ثانيًا: في ظل هذه العزلة، والمكوث في المنزل كانت الصين وأمثالها قد جهزوا التطبيقات الشهيرة التي تعمل حتى الآن مثل تطبيق (التيك توك) الذي جاء محملاً بالفلاتر التي يمكن ظهور الجرباء من خلاله حسناء، وقد ضخت من خلاله أمولاً كثيرة تُغري المستخدمين الكُثر ومشاهديهم الأكثر بكثير للمحتويات التي لا ينبغي تسميتها إلا (تافهة) مثل الروتينات اليومية التي لم تنم نساء المنازل عن بثها من منزلها أو حقلها أو زريبتها أو حتى قصرها الشامخ في عرض جسدها دون ظهور وجهها. ولعل صدق ذلك في التخفي التي بدت عليه هذه النساء خلف النقاب أو الكُمامة التي تم استخدامها رغم أنها وهاتفها وحدهما، وبدا لي أنهن كُنَّ يرتدين الكمامة أمام الكاميرا في البث المباشر خوفًا من عدوى المشاهدين لها. وكان لهذه كبير من الآثار السلبية على الأطفال والشباب وحتي الرجال الفطناء في التأثر بها ومشاهدتها.

وعليك أن تتذكر إلغاء الأعوام الدراسية والتدريس، وتقليل أيام الدراسة إلى نصفها، واعتماد النتائج بالنجاح له كبير أثر في عرقلة أو فتور وكسل الجيل الصاعد علميًا سواء في المدارس الحكومية أو

الخاصة، إلا من نجا بأطفاله ليكونوا عباقرة على (الخيبين) الذين من جيله حينما تم وعي الآباء العقلاء لهذه الظاهرة الفرضية، فعملوا على العناية العلمية والتدريسية لأطفالهم في المنزل.

فالصف الأول والثاني والثالث والرابع الابتدائي ومن سيأتي من الصغار خلفهم في الصف الأول ثم من يليه، هؤلاء الأطفال الذين نشؤوا على اللاشيء هم أول الأجيال ظلمًا في التعليم لمؤامرة (فيروس كورونا).

فكان من الأوجب على شعوب العالم في ظل انشغالها بالمناخ العالمي، وتوفير الصحة الجيدة في الوقت الذي بدأ فيه أيضا ذوبان الجليد، وارتفاع درجة حرارة الأرض إلى درجتين في ثلاثين عامًا فقط نتيجة ما خلفه الإنسان خلفه، أن ينتبهوا أن الأطفال يخرجون من بيوتهم لأجل أن يتعلموا وليس من أجل العمل في المصانع أو إشعال وقود الحروب. الاحتباس الحراري الذي تسببت فيه الاستهلاكات الكربونية الضخمة التي شرعت في تخزينها دول الخليج العربي؛ ليأتي دورها في أن تمتلك أنف الحياة؛ ليتنفس منها عبر الغيث الثقيل الذي زار شبه الجزيرة؛ كي يمكنها من خلاله التخضير الرملي. ومن أبرزها المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة، فمنشأة (ريادة) للتخزين الكربوني في دولة الإمارات تلتقط ثمانيمائة ألف طن سنويًا من الكربون، بينما تفعلها السعودية في مشروعها الذي انطلق من عام ألفين وخمسة عشر باستخلاص أربعين قدم مكعبة قياسية يوميًا للكربون. فكان

الهدف من المبادرة أن يصل المجتمع الخليجي لجو خالٍ من الكربون في حلول عام ألفين وخمسين، بناء على اتفاقية باريس للمناخ، التي تقدمتها التخلص من الكربون.

وأيضًا رأينا الإحصائيات حول أكبر دول العالم استهلاكًا للوقود الذي نتج عنه تلوث البيئة، وكان على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، ولعل تلوث البيئة الأمريكية بهذا الحجم قد وضح وضوح الشمس من خلال عدد النسمات التي تعرض لها المواطنون الأمريكان بالفيروس التاجي. وهذا لا يدل إلا على أن صحة المواطن الأمريكي هي أقل مستويات الصحة، التي يتحدثون عن رفاهية شعبها، والعناية بهم، والتمتع بجو وثقافة نصّبَّتها الأول في كل شيء. وكأن السحر فضح الساحر. فقط من خلال الاحتباسات التي خلفها الوقود الأمريكي.

لكن على الصعيد الآخر سنجد الصين التي خرج منها الفيروس التاجي للعالم أجمع أن تتعافى من ذلك بهذه السرعة، وهذا الوقت الذي لم تكن قد بدأت فيه بعض الدول للمواجهة، فأكثر المعرضين للإصابة بالفيروس هم أصحاب أمراض الرئة والحساسية الصدرية وضيق التنفس، وما أكثرهم في العالم الوَقْاد، الذي يُشعِل بها آخر ما وصل إليه من تقدم تكنولوجي، سلميًا كان أو دماريًا. وقد تجهزت مثل كل دول الشرق الأوسط لهذه التغيرات المناخية التي ستحدث. ستحدث استشهادًا ببدءها الآن، عملت كثير من دول الشرق الأوسط ومن بينها مصر على إعادة وتمكين البنية

التحتية، التي تُعَد المستقبل الأول لجريان الماء فيها مثل مبادرات (حياة كريمة) في مصر التي تمثلت في استعدادها في بناء بنية جديدة لم تكن موجودة من قبل في الأرياف وصعيد مصر والنجوع، مثل مشروعات الصرف الصحي، وتبطين التُرع، مما يُحافظ على كميات كبيرة من المياه من التسريب داخل الأرض. كما أنها على استعداد لاستقبال كميات كبيرة من ماء السيول التي تساعد مع هذه التُرع (المخرات)، وهي تُعطي مؤخرتها للصحراء الشرقية للنيل، تستقبل ماء السيول الساقطة على جبالها لتنحدر في المخرات عبر أحواض استقبال، يمكن استخدمها مستقبلا لجهتين دون جهة واحدة، وكانت هذه السيول ولا زالت تصب ما أرسلته السماء فيها، ثم يجري إلى النيل.

أما وجهتها المستقبلية التي يمكن استخدامها في مناطق عكس رقعة النيل الأخضر، إلى الصحراء التي يمكنها أن تنبت إذا سقط عليها المطر مرة واحدة في العام. فتخزين هذه المياه التي ستكون بغزاره وكثافة تتزايد كل عام أضعاف عامها الماضي، كفيلة لاكتفاء كل العرب وسد احتياجهم للقمح فقط، في ظل الأزمات الغذائية التي جاري تعرض العالم لها الآن بعد أن ينتهي الجليد من ذوبانه. ولا أُحبذ أن أقول بأن الماء القادم يمكنه توفير القمح لكل العالم وليست العرب وحدها؛ لأن هذا لن يصدقه أحد إذا نظر للأزمات الاقتصادية والغذائية التي يتعرض لها العالم ومن بينها مصر.

وهناك فارقٌ كبير في مقارنة الاقتصادية بالغذائية في مصر دون غيرها من دول العالم، بالرغم أن كليهما مرتبط أشد الارتباط بأخيه، لكن لا زال الخير متواجدًا في مصر، حيث أننا لم نستيقظ يومًا ولم نجد رغيف الخبز أو حبيبات الأرز. ولكننا نتفاجأ بأنها يعلو قيمتها المالية كل يوم. وهنا الأزمة في الاقتصاد، وليست في الغذاء. فهناك شعوب معهم المال ولا يجدون الغذاء. فلا بد على الشعب المصري وحكوماتهِ العمل على تحويل هذه المحنة إلى منحة لكل العالم. وإذا فشلنا في إطعام العالم، نكون قد اكتسبنا على الأقل طعامنا. وإذا جاء يوم، وقد جاءت أيام على المصريين كثيرة لا يملكون مالاً ولا قوتًا، ولكنهم أبدًا ما ماتوا جوعًا. إذا جاع العالم كله لن يجوع شعبنا. فقط يجب توفير الغذاء الإلهي المجاني، وهي مياه الله في نيل الجنة، ومهما يحدث من حجز الماء أو تخزينه، (لن يجف مجراكَ يا نيل وكيف وأنت تخرج من تحت أنامل الرحمن؟! ونحن يا رب جنودك في الأرض لو فُرض الزحف بالفؤوس تجاههم منك لحملناها سيرًا، وإذا عطشنا في سيرنا إليهم، سنحفر تحت أقدامنا ألف بئر، ونكمل السير حتى عطشٍ جديد. ولكن يا رب لأننا نحتمل العطش سنصبر حتى تأذن لنا).

وكانت هذه المخرات النائمة تحت أذيال ثوب الجبال الشرقية أكثر من غربها؛ لاعتدال الأرض وتسطحها فيها غربًا، ويميزها أنها أيضا صحراوية يمكنها استقبال كميات كبيرة من الأمطار دون

وقوع الضرر بها. والمقصود بالجبال الشرقية، أي الشرقية لنهر النيل وليس لمصر، علمًا بأن الماء الوفير يسقط في سيناء بغزارة يمكنك أن تُطبق عليه مثل ما تُطبقه بنفس الخطة التي تعمل عليها شرق النيل وغربه. وأتوقع أن بين جبال سيناء في السنوات القادمة يمكنها إنتاج كميات هائلة من حبوب الأرز الإلهي الذي ينبُت في مستنقعات الماء، مثلما هي طريقة زراعته في الغربية والمنصورة ورشيد. في السنوات القادمة يمكننا أن نأكل بالمجان، ويمكننا أن نموت بأغلى الأسعار، إن لم نسعَ أو حتى نَّطلِع على خطة يوسفٍ جديد.

الطوفان الأصغر

لكن ما حدث لوادي نوار في جازان كان أشبه بالطوفان الأصغر، حيث أن مملكتها تقع بين الأودية والجبال الشاهقة، مما جعل المملكة حينها تتجه للشروع في صناعة بعض العَبارات المؤقتة وتجهيز المخرات، التي بالطبع لم تكن متواجدة لطبيعة البيئة المفتقرة للسيول، أو حتى الكوارث الطبيعية، أو التغير البيئي الذي ستشهدهُ المملكة من حينها إلى أن يشاء الله.

عادت نوار إلى مرأى موضع غرق دونكا أمام بيتها المطل على النيل في قريتنا، بعد السيل الذي حذرها في العام الأول من هطول الخير في المملكة العربية السعودية، بدخول الماء وملء الطابق الأول عن آخره. كان هذا السيل الأول قد شرح صدور المزارعين في أراضي جازان ونجران. إلا نوار التي رفضت ترك مملكتها إلا بعد استواء الماء على جود جبالها ومملكتها في العام الثاني، التي أصبحت في قاع الجبال، كانت الصخور تسقط من أعلاها كانهيار المرهفين أمام الحُور. طفحت ذكريات العجوز أمام عينها، وهي تقف على رابية الطريق ولا يُبكيها شيء سوى بقاؤها في الوجود الذي ساءها نقصانه بعد كمال. لم تره قد يكتمل من وقت ذهاب باديس عنها وملاقةُ أبي، حتى موت ابنتها دونكا.

جئت مُصابًا بخروج دونكا من دمي، أجلس بجوارها انتظرُ إله النيل يُرجعها إليّ في الطوفان العظيم الذي يُرهب الجميع، إلا أنا ونوار التي اعتادت على استقبال الكوارث، يُطوقني وهنها الشاحب.

كان النيل بارتطامه يُضاجع الجُرف رويدًا رويدًا، ثم أسرع في ذكرى فراق دونكا، كأنه نسفٌ يتضامن مع موعد رحيلها.

فلم ندرِ أحاف جُرفنا أم أنها ساعة القذف؟ تحتضن فيَّ أبي، وأحتضن فيها دونكا، إلى أن يُسقطها الله لي في مُزنهِ من جديد.

*****